الدكتور زكي نجيب محمود

الكوميديا الأرضية

دار الشروق

الكوميديا
الأرضيّة

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: [illegible] - هاتف: [illegible] - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK [illegible] LE

القاهرة: [illegible] شارع جواد حسني - هاتف: [illegible] - برقياً: شروق - تلكس: [illegible] SHROK UN

الدكتور زكي نجيب محمود

الكوميديا الأرضية

دار الشروق

عند سفح الجبل

هو جبل شاهق ، يعلو بقمته على مستوى السحاب ، فلئن اعتاد أهل الأرض أن ينظروا إلى السحاب منساباً فوق رءوسهم ، فأهل تلك القمة العالية ينظرون إليه صاعداً أو هابطاً تحت أقدامهم ، إذ لا يجاوز ثلاثة أرباع الجبل صعوداً ، حتى إذا ما كثف الغمام نظر الواقف هنالك ، فإذا هو على جزيرة ناتئة حولها بحر من دخان . تتدافع أجزاؤه فى صمت ، كأنه الموج الأخرس ، يرتفع حيناً ويهبط حيناً ، وهو فى معظم الحالات من الكثافة بحيث يستحيل على ساكن القمة العالية أن يرى شيئاً من السفح، وقليلا ما يصفو الفضاء فيتبدى سفح الجبل من أعلاه إلى أدناه ، بصخوره البارزة الغليظة ، وشعابه الخشنة الممزقة .

فالقمة مشمسة طيلة النهار سماؤها صحو أبدا وعليها قامت قرية صغيرة أمرها عجب ، فهى نظيفة البيوت نظيفة الشوارع ؛ نعم إن شوارعها ملتوية كالأفاعى ، تكاد لا تستقيم فى موضع ، إلا أنها مرصوفة كلها ، نظيفة كلها ، وعلى جوانبها صفوف من المنازل الجميلة الأنيقة ، مختلفة الطرز منسقة البساتين ؛ وأهل القرية على درجة ملحوظة من نظافة الثياب وسلامة

الذوق ، و إن يكن مما يلفت النظر فيهم بدانة وترهل و بطء حركة .

ولست ترى هنالك خدماً ولا دكاكين ، فتعجب من أين تأتيهم حاجاتهم ، ومن ذا يعاونهم على تنظيف الشوارع والبيوت ؛ ولذلك قلما تسمع فى طرقاتها صوتاً ، ومن النادر أن ينبعث صوت من هذا البيت أو ذاك ، بل قليلا ما يصادفك فى أنحائها رائح أو غاد ، كأنهم جميعاً قد قروا فى بيوتهم لا يبرحونها لنزهة أو عمل .

هكذا كانت الحال كما وصفها محدثى الرحالة ، وكما بدت له عند أول صعوده ذلك الجبل إلى قمته ، ثم ما لبث أن التقى من أهل القرية برجل ، قصد إلى لقائه بتوصية من صديق ، حتى تبين له — بهداية هذا الزميل — نشاط عجيب حاد عنيف داخل الجدران ، ذلك أن هذه القرية كثيرة النوادى ، كثرة ليس لها نظير فيما نعرف من مدن الأرض الواقعة فى مستوى البحر ، ومن تلك النوادى ما هو خاص ، ومنها ما هو عام ، لكن النوادى الخاصة هى التى كانت موطن النشاط العجيب الذى أشرنا إليه ؛ وهى صنوف مختلفة ، منها النـــوادى السياسية ، والاجتماعية والثقافية ، والرياضية وغير ذلك ، بل قد يختص النادى الواحد بناحية غريبة واحدة لا يتعداها بنشاطه ، فمن أمثلة ذلك ناد لسباق الأرانب وناد لتدخين النرجيلة ، وناد لصيد البط ، وآخر لصيد الإوز وهكذا .

وأخذ يصف لى محدثى الرحالة ما لقيه فى نوادى القرية وهو بصحبة دليله ؛ فهذا ناد سياسى ، تدخل من بابه الخارجى إلى البهو ، فلا حركة ولا صوت ، صمت شامل وهدوء جميل ، حتى إذا ما انفتح لك باب غرفة الاجتماع ، جاءتك الأصوات كالرعود ؛ ويقول محدثى : إن أول ما عجبت له عند ما دخلت مع دليلى متسللا على أطراف قدمىّ ، أنى رأيت أصحاب الأبدان السمينة والحركات البطيئة والأطراف المسترخية ، قد دبت فيهم حرارة المناقشة كأنها شعلة من نار ؛ فالوجوه محتقنة ، والعيون محمرة ، والأجسام متحفزة والأطراف مرتعشة ؛ وكانت كلمة « الشعب » أكثر الكلمات وروداً فى مناقشاتهم الحادة الحارة ؛ وقد سألت نفسى عندئذ ؛ أى « شعب » يا ترى يقصدون ؟ لأننى لم أجد فى القرية شعباً بقدر ما وجدت سادة ؛ أفيكون هذا المجتمع الغريب رأساً بلا بدن ؟ لكننى لم أطل التفكير فى هذا وما كنت لأستطيع أن أطيله ، لأن شدة التحمس ترغم السامع إرغاماً على مسايرة الحديث وهم يتراشقون فيه بالحجج كأنها الحجارة أو أشد صلابة ؛ ويظلون كذلك حتى يفوتهم أوان الغداء إن كان الوقت نهاراً ، وأوان العشاء إن كان الوقت ليلا ، وهنا كذلك سألت نفسى : من أين لهؤلاء الزاهدين فى الطعام هذه الأبدان السمينة ؟ لكننى مرة أخرى لم أطل التفكير فى هذا ، وما كنت لأستطيع أن أطيله ، لأننى إزاء تيار دافق من الكلام ، يستحيل معه لإنسان أن

يقف لحظة واحدة يفكر أثناءها لنفسه فى هذا أو ذاك مما عساه أن يستوقف نظره أو سمعه .

ومضى محدثى الرحالة يقول : الحق أنهم فى تلك الندوة السياسية التى زرتها ، كانوا يناقشون موضوعاً ظريفاً طريفاً وهو : هل يستورد الإصلاح الدستورى « للشعب » — قلت إن كلمة « الشعب » كانت كثيرة الورود — من فرنسا أو من بلچيكا ؟ فالبضاعة الفرنسية — بما فى ذلك الدستور والقوانين — فيها جمال لكنها رقيقة إلى حد الهزال والضعف ، والبضاعة البلچيكية على شىء من متانة البناء ، لكنها عسرة الهضم متعذرة القبول ؛ و « الشعب » عندنا — هكذا روى الرحاله محدثى عن خطباء الندوة السياسية على قمة الجبل — لا ترضيه الرقة الفرنسية ولا تقنعه الغلظة البلچيكية . وقال قائل : لماذا لا تمزج عناصر من هنا بعناصر من هناك ؟ فجاءت فكرة مزج العناصر كالقنبلة الداوية ، لأنها نقلت الحديث كله إلى موضوع جديد هو : هل يمكن للعناصر أن تمتزج ؟ وأى المقادير يجعل النسبة صحيحة مناسبة للمزج ؟ ولبثوا فى ذلك حتى انفض الاجتماع ليعود إلى البحث مرة أخرى .

وزار محدثى الرحالة ندوة ثقافية فى تلك القمة العالية التى لا تعكر صفو سمائها سحابة فى نهار أو ليل ، لأن القمة تعلو على مستوى السحاب

وها هنا — بداهة — لم يجد صخباً ولا ضجيجاً ؛ كان البهو صامتاً ، وانفتح الباب عن غرفة الاجتماع فإذا فيها صمت هامس ؛ وكان موضوع الحديث هو : ماذا يكون أساس الفن كله بما فى ذلك الأدب ؟ أيجعلون الفن للفن ، أم يخدمون به « الشعب » — كانت كلمة « الشعب » هنا أيضاً دائرة على ألسنة المتكلمين فى كثرة ملحوظة — وكانت كثرتهم الغالبة مع « الشعب » ؛ لا بد أن يصور المصور للشعب ، وأن يعزف الموسيقى للشعب ، وينشد الشاعر شعره للشعب ، وينحت المثّال تماثيله للشعب ، ويقيم المهندس المعمارى عمارته للشعب ؛ وعبثاً حاول منهم فريق ضئيل أن يبين للحاضرين أن القطعة الفنية مخلوق قائم بذاته . ولا يقال عن المخلوق الذى كملت خلقته ماذا يحقق من أغراض ؟ لأنه لا غرض من الكائن التام التكوين إلا أنه كائن تام التكوين وكفى ؛ هل تقول ما الغاية من هذه الفراشة ، وما الغاية من هذا العصفور وما الغاية من هذه الوردة ؟ كذلك لا ينبغى أن تقول ما الغاية من هذه القصيدة وما الغاية من هذه القطعة الموسيقية وما الغاية من هذه الصورة أو التمثال ؛ إنها جميعاً كائنات خلقها خالقوها فأحسنوا خلقاً ، وفى ذلك الكفاية .

لكن فكرة « الشعب » — كما قلت — كانت لها الغلبة والرجحان ، ففى سبيل الشعب ما يخلق الفنان .

وخرج محدثي الرحالة — كما روى — من الندوة الثقافية معجباً أشد إعجاب ، لأن تبادل الرأى قد تم فى هدوء ورحابة صدر ؛ أين منه ما شهده فى الندوة السياسية من نيران مستعرة فى الأعين والوجوه والأطراف — وقصد لتوه ندوة اجتماعية ولم يشأ أن يرجىء الزيارة إلى يوم آخر لقصر مقامه هناك ، فقد كان لابد له من الهبوط إلى السفح فى صبيحة اليوم التالى.

وكانت الندوة الاجتماعية فى منتصف نشاطها عندما زارها صاحبي ، لم يشهد الحديث من أوله ، لكن المصادفة قد شاءت أن تكون أول كلمة يسمعها عند انفتاح الباب ، هى كلمة « الشعب » ، ولم يسعه عندئذ إلا أن يعاود السؤال من جديد : أين يا ترى هذا الشعب الذى يشير إليه كل متحدث إذا ما انفرجت شفتاه عن حديث مهما قصر ؟ إنها — فيما رأى — قرية صغيرة كلها منسق نظيف ، لا خدم فيها ولا باعة ولا مارة إلا فى القليـــــل النادر ، لكنه سرعان ما طرح هذا التيار الداخلى فى نفسه لينصت .

كان الخطيب الذى يتكلم فى نحو الثلاثين من عمره ، تميزه حركات بذراعيه وجذعه تتناسب مع المعانى التى يعبر عنها فى حديثه ؛ وخلاصة كلامه أنه متألم لحال الشعب لأن حياته تكاد تخلو خلواً تاماً من أسباب اللهو البرىء ؛ فهل عملت الحكومة فى القرى على الترويح عن هؤلاء

العاملين المنهوكى القوى ؟ هل أعدت لهم شيئاً مما يدفىء فى الشتاء ويخفف عناء الحر فى الصيف ؟ .

وما إن خرج محدثى الرحالة — هكذا روى — من تلك الندوة ، حتى سأل دليله فى حذر وتلعثم : أين الشعب هنا ؟ فقال الدليل — الشعب ؟ ليس هنا ، إنه هناك ، هناك عند سفح الجبل ، ها هنا القمة ، قمة الصفوة الممتازة ، ألم تصعد إلينا من سفح الجبـــل حيث أفراد الشعب يعملون ويقيمون ؟

فأجاب الرحالة فى ارتباك واضطراب : نعم ، نعم ، رأيتهم هناك ، لـكننى ظننت أنهم ...

فسأل الدليل : ظننت ماذا ؟

فقال الرحالة : ظننتهم أفراد شعب لا ينتمى إلى هذه القمة وأهلها ؛ كانت غفلة منى وكان سهواً لأن العلاقة بين القمة والسفح واضحة ، واضحة لا تحتاج إلى بيان ؛ فما على السائر إلا أن يصعد مجتازاً حاجز السحاب فإذا هو فى القمة المشمسة ، أو يهبط مجتازاً حاجز السحاب فإذا هو عند سفح الجبل .

وفى ضحى اليوم التالى ، هبط رحالتنا إلى السفح فى طريق عودته فـكان أول من لقيه من الناس امرأة عجوز متهدمة جلست على جانب الطريق ، وأمامها صنـدوق خشبى صغير تناثرت على ظهره سبع قطع من

الحلوى ، فأما المرأة فكومة من أسمال سوداء ، تكاد لا تميز فيها رأساً من صدر ، حتى إذا ما رفعت وجهها ، رأيت شيئاً قريب الشبه بجماجم الموتى ، غطاه جلد داكن متغضن ، وكأنما كانت ترتعش بجسدها كله رعشة متصلة ، وأما حلواها فسل عنها أقذر الذباب .

ترى كم مليا تربح هذه المسكينة فى يومها ؟ أين تسكن وعلى أى كومة من التراب والحصى تضع جنبها سواد الليل ؟ ماذا تأكل ، وكيف تغطى جسدها إذا ما اشتد برد الشتاء ؟ أين وكيف تغسل جسدها ومن ذا يجيبها إن تأوهت من ألم كما شاء الله لعباده المرضى أن يتأوهوا كلما اشتد بهم الألم ؟

وأبطأ صاحبي الرحالة خطاه أمام بائعة الحلوى ، وهو يفكر فى أمرها ، ويسأل نفسه هذه الأسئلة عنها ، فظنته المسكينة شارياً لبضاعتها ، فقالت فى أنفاس متقطعة واهنة : « حلاوة يازباين » .

قال الرحالة : بكم تبيعين القطعة يا أمى ؟

فقالت : القطعة بمليم .

قال : سأشترى منك حلواك كلها لأولادى .

وكأن « البائعة » لم تصدق قول « زبونها » فراحت — قبل

أن تجمع له « البضاعة » — تدعو له ولأولاده بطول البقاء ، ناظرة إلى السماء ، باسطة كفيها النحيلتين المحروقتين المرتعشتين .

فقال لها صاحبنا وهو يدفع لها قرشاً كاملا ثمن حلواها — وحقها سبعة مليمات — لا تنسى يا أمى أن تطلبي من رب السماء رحمة بأولئك الذين يرعون مصالحك فوق قمة الجبل ؛ لقد رأيتهم هناك بعينى رأسى ، يتحمسون لك ولا يدخرون من وسعهم وسعاً ، فقد كانوا يتجادلون فى نوع الإصلاح الدستورى الذى يستوردونه لك من فرنسا و بلچيكا ، وكانوا يتناقشون فى هل يخلق الفنان فنه لنفسه أو يصوغه ويوجهه إليك ، ورأيتهم يبحثون كيف يهيئون لك مصيفاً تستمتعين فيه بهواء عليل حين تشتد الحرارة هنا فى يوليو وأغسطس ...

فرفعت المرأة عينيها مرة أخرى نحو السماء ، و بسطت كفيها ، وقالت « يارب بارك لنا فيهم أجمعين » .

نفس عارية *

— « لا ، إنى لا أريد أن أكون سعيداً ، لا أريد اطمئنان النفس وراحة البال ، وإنى لأسعى دءوباً إلى الشقاء والعناء والتعب ، وأبحث عن أسباب البؤس والنكد ؛ كذبٌ كله هذا الذى يكتبونه فى الكتب ويعظون به فى المحافل عن طلب الإنسان لسعادة نفسه ؛ إنهم لا يعلمون عن النفس الإنسانية شيئاً أولئك الذين يحسبون الناس جادين فى طلب السعادة وراحة البال ، ويظنونهم جادين حقاً فى التماس الرفاهية والخير .

« إنى أريد لنفسى الألم ، وأريده للناس ؛ أريد لها ولهم أن يتعذبوا... ومنافق أنا مع سائر المنافقين حين أدّعى بهتاناً وزوراً أننى كاره حقاً للألم ينزل بى ، وبالناس ، ويشتملنى ويشتملهم جسداً وروحاً . . . إننى لن أنسى أبد الدهر ذلك الطفل الذى رأيته مرة يبكى على لعبة أفسدتها له أخته ، فجاءت أمه تمسح له الدموع عن عينيه ، وترضيه بحلو كلامها ، فقال لها وهو يدفعها عنه بيديه الصغيرتين غاضباً : عنى لا تمسحى دموعى لأننى أريد أن أبكى ولا أستطيع البكاء بغير دموع . . . لن أنسى أبد الدهر ذلك الطفل الذى أصاب من حقيقة النفس الإنسانية بفطرته الشفافة ،

(*) كتبت بمناسبة حريق القاهرة التى شبت يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢

ما لم يصبه أصحاب الكتب والمواعظ الذين قد راءوا حتى أفسدهم الرياء، ونافقوا حتى أنساهم النفاق أنهم منافقون؛ إن الإنسان يريد أن يتألم ويبكى، ويبحث فى الخفاء عما يثير فيه ذلك الألم وهذا البكاء، وكَذِبٌ كله هذا الذى يقولونه ويكتبونه من أن الإنسان ينشد لنفسه وللناس راحة وطمأنينة وسعادة.

« أنظرْ إلى هذه القطعة من الحلوى قد وضعت لى على المائدة منذ أمس، وهممت أن آكلها مرات عدة فى غضون النهار، ثم أمسكت لأنى آثرت لنفسى الحرمان ... »

بمثل هذه الدفعة العجيبة راح صديق يحدثنى عند ما زرته فوجدته فى داره وحيداً، فلا أمه هناك ولا خادمته، وكانت الدار مغلقة النوافذ، والضوء فيها قبيل الغروب خافتاً بين الظلام والنور.

فتح لى الباب ولم يفرح للقائى كعادته، لأنه — فيما بدا لى — قد كان يريد الوحدة؛ بل لم يكفه أن يكون فى الدار وحيداً، فانتبذ من داره هذه الخالية ركناً أبعد ما تكون أرجاؤها عن مصادر الضوء والصوت؛ كان فى مستطاعه أن يضىء المصباح وأن يدير المذياع، لكنه لم يفعل.

وجلست إلى جواره فيما هو أشبه بظلام الليل منه إلى ضوء النهار؛ لا أجرؤ على إضاءة المصباح لأنى ضيفه، وليس للضيف أن يغير من أوضاع

الدار التي تضيفه ، أو أن يلاحظ عليها شيئاً إلا أن يكون استحساناً ومدحاً ، وظل هو إلى جانبي صامتاً يفرك يديه ، ويطقطق أصابعه ، ولم يمنعني خفوت الضوء من رؤية شفتيه الراجفتين وعينيه البارقتين وأطرافه المختلجة .

فقلت له : لست أراك في وحدتك هذه سعيداً .

فاندفع يجيبني متدفقاً بالعبارة التي أسلفت بعضها : « لا ، إني لا أريد أن أكون سعيداً . . . »

وانتهزت لحظة قصيرة وقف فيها تياره الدافق ، وقلت : هل لك أن تذكر لي ما حدث لك اليوم حتى أتعقب ثورتك هذه إلى أصولها ؟ وسترى عندئذ أنها ثورة مؤقتة مرهونة بأسبابها ، حتى إذا ما زالت الأسباب ، عاد إلى النفس هدوؤها وصفاؤها ؛ فالأصل في الإنسان أن يكون هادئاً ساكناً سعيداً ، والشذوذ أن يضطرب ويشقى .

فقاطعني قائلاً : هذا حديث شاعر يسبح في أحلامه الجميلة مغمض العينين ؛ أولى لك أن تصيح بالرياح : أن اسكتي يا رياح حتى يهدأ البحر فلا يموج ، أو أن تهتف بالشمس ساعة غروب جميل أن قِفِي يا شمس حتى لا يغيب عنا هذا الجمال . . . إن مثيرات النفس قائمة لنا في كل خطوة من الطريق وفي كل منعطف بها ؛ سِرْ هنا فهنا ما يثيرك ، وسِرْ هناك فهناك ما يثيرك ، وملْ نحو اليمين أو ملْ نحو اليسار ، تجد

مثيرات النفس تتلقفك يميناً و يساراً ، فماذا أنت صانع إذا أردت لنفسك الطمأنينة والهدوء ؟ بل ارجع إلى دارك وغلق من دونك بابها ونوافذها كما ترانى أفعل الآن ، وستلاحقك المثيرات ، حين تستعيد بالذاكرة ما رأيت وما سمعت ، وحين تضيف إلى كل هذا الذى قد رأيته وسمعته جديداً من عندك تسرّ به إلى نفسك .

فسألته : ماذا تعنى ؟

فقال : ألم تلحظ فى نفسك كيف تتوهم بخيالك أنك تتحدث إلى فلان أو علان ، فيقول لك كذا فتقول له كيت ، ويفعل كذا فتفعل كيت ؛ وما تزالان — فى خيالك — تتخاصمان بالقول وتتقاتلان بالفعل ، حتى تنظر ، فإذا أنت قد احتدمت فى نفسك الثورة واشتد بك الغضب ؟

فقلت : كأنما عداوات العالم الواقع لم تكفنا فنزيدها بخيالنا عداوة وكأنما مثيرات الدنيا من حولنا لم تشبع نفوسنا ، فألهبناها بأوهامنا حرارة وسعيرا .

فقال — وقد هدأ بعض الشىء — نعم . . . لكن الخير كل الخير فى أن تنكشف للناس هذه الخواطر الدفينة ، حتى يعلموا حقائق نفوسهم وما يدور فيها ؛ إنك قد تقاتل خصمك فى خيالك قتالا ينتهى بك فعلا إلى غضبة حقيقية تندفع معها إلى الأخذ بالانتقام والثأر . . . أليس جديراً بالناس أحياناً أن يضعوا نفوسهم عارية أمامهم لا يحجب مكنونها

حجاب ، فلعل ذلك يفتح أعينهم على حقائق يجهلونها فيحورون من سلوكهم بعضهم إزاء بعض بما قد يحد من هذه الضغائن والسخائم التى يكتمونها فى أنفسهم كارهين .

وصمت صديقى قليلا ثم قال : ولماذا لا أبدأ بنفسى ؟ هذه هى نفسى أضعها أمامك عارية كما وجدتها طوال ساعات العصر — لن أستحى من مكنونها وخبيئها مهما يكن خبيثاً ، فكل الناس هذا الخبيث — لكنه الرياء يستر ويخفى . .

رأيت ظهر اليوم طفلا أمام الدار يلعب « بالنحلة » فيلف طرف الخيط حول نحلته الخشبية ثم يقذف بها ، فتدور النحلة على سنها فوق بلاط الإفريز دوراناً شديداً ، لكن الطفل يخشى على دورانها الفتور والضعف ، فيظل يضربها بعذبة سوطه ضربا متلاحقا ، حتى تدور ولا تكف عن الدوران . . وعدت إلى هنا ، فما هو إلا أن تنزو بنفسى الخواطر المثيرة ، إذ صورت لنفسى فلاناً وقد قذف بى على الأرض قذف الطفل لنحلته ، وراح يلهبنى بعذبات سياطه حتى أدور ولا أكف عن الدوران لنفعه هو ومتعته ، ولا عليه أن أدوخ وأتعب .

إننى تلك النحلة الدائرة لمتعة غيرها ، أضرب بالسياط لئلا أقف فتنقطع متعة المتمتعين — لا تقل إنه وهمك وخيالك ، لأنه عندئذ لا فرق

بين حقيقة وخيال ؛ فانطلقت خواطرى متلاحقة ساعات العصر سوداء قاتمة . كأنها أسراب الغربان تحوم فى الهواء سابحة متعاقبة ، ثم تدور دورتها لتعود من جديد ... انطلقت خواطرى السوداء متلاحقة فلا أرى الناس إلا معذِّباً بعضهم بعضا — كذب ونفاق هذا الذى يكتبونه فى الكتب ويحفلون به فى المحافل من أن الإنسان يرجو لغيره الراحة والخير ، فأنت مشاهد فى كل خطوة تخطوها وفى كل ثنية ينعرج بك الطريق فيها ، دليلا شاهداً على أن الناس يمقت بعضهم بعضا ويوقع بعضهم ببعض الضر والأذى .

وخطر لى خاطر عجيب ، وهو أن أمزق كتبا عندى تمتلىء صفحاتها بمثل هذا الكذب الذى يكتبه الكاتبون على سبيل الوعظ والتقويم ، أو لست أدرى لماذا يكتبونه وهم يعلمـــون أنه كذب — أو لعلهم لا يعلمون .

لـكن خاطر التمزيق لم يكد يطوف برأسى ، حتى اشتدت سرعة الخواطر الهدامة المشتملة بالحقد والانتقام — رأيت نفسى أنتظر حتى ينسدل ظلام الليل فأتخفى تحت ستاره وأقصد إلى دار خصمى الذى يبتسم لى رياء ، والذى تصورته يضربنى بعذبة سوطه لأدور كما كان الصبى يضرب نحلته على بلاط الإفريز — أقصد إلى دار خصمى ذاك فأشعل

فيها النـار ثم أجرى إلى التليفون القريب لأنادى رجال المطافىء ، والعجيب أنى استشعرت الراحة للصورتين معا : لصورة النار أشعلها انتقاما ، ولصورة الشهامة أبديها فى محاوله الإنقاذ ..

قلت لصديق : ليس عليك من بأس ، فأنت خير حالا من شيطانة دوستويفسكى لأنك هدمت وأصلحت ، أما هى . . .

فسألنى : وما شيطانة دوستويفسكى ؟

فقلت : هى « ليز » الفتاة التى أحبت « أليوشا » فى قصة الإخوان كارامازوف ، ثم أخذتها هذه الدفعة الجامحة نحو ارتـكاب الشر وإيقاع الأذى حتى بنفسها ، فأرسلت إلى « اليوشا » — وهو الشاب المتبتل الورع — فلما سألها : ماذا تريدين ؟ قالت : أردت أن أعبر لك عن شوق شديد بنفسى ، وهو أن يتزوجنى زوج ليعذبنى ثم يخدعنى ويفر عنى هاربا . إنى لا أريد أن أكون سعيدة .

فقال لها « اليوشا » : أتنشدين السوء ؟ فأجابته : أن نعم ، وما أنفك راغبة فى إشعال النار فى بيتى ، بحيث لا يدرك الناس الخطر إلا بعـد فوات الأوان فيحترق كل شىء .

قال صديق — وقد اطمأن نفسا أن يرى الناس فى ذلك سواء — يظهر أن هنالك لحظات يحب الإنسان فيها ارتـكاب الشر وينزع إلى

إلى الجريمة ، ليس الناس ملائكة ولا قديسين ، لكن ما الذى دفع « ليز » فى قصة دستويفسكى أن تنزع إلى هذا الشر كله ؟

فقلت : لعله مرضها ، كانت كسيحة ثم برئت ، لكنها لم تبرأ كل البرء ، فربما أشعلت العلة فى نفسها نار الحقد والرغبة فى الانتقام .

قال : انتقام ممن ؟ لقد أرادت أن تشعل النار فى دارها هى ، فهى الخاسرة .

قلت : نعم ، هذا هو الإنسان وهذه هى طبيعته ، يشتد به الضيق فيشق ثيابه ويمزقها ، ويضرب رأسه فى الجدار ليتورم ، بل قد يزهق نفسه بيديه . . . لقد ضاقت « ليز » نفساً حتى طردت حبيبها من الدار ، وأغلقت الباب على إصبعها عامدة ، ثم أخرجت إصبعها وهو ينز بالدم من أسفل الظفر ، فراحت تتأوه من الألم وتفرح فى دخيلة نفسها أن أوقعت بنفسها ذلك الألم . . . إنه الإنسان وطبيعته ، يضيق نفساً فينزل الأذى بالناس وبنفسه .

هنا قام صديق وأنار مصباحه — وكان الظلام قد اشتد سواده — وعاد إلى مكانه منبسط الجبين ، كأنما اطمأن على نفسه من شذوذ ظنه بها ، وقال : لو لم تكن « ليز » مريضة لما أحدثت شراً ولا اقترفت إثماً ، فماذا أنت قائل فيمن نزل بهم المرض مضافاً إليه عرى وجوع وتشريد ؟

الكوميديا الأرضية

يحكى أن شاعراً كان اسمه « دانتى » ، عاش فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، قد كتب قصيدة طويلة عظيمة أسماها له الناس من بعده « الكوميديا الإلهية » ، طاف فيها بصحبة أستاذ له قديم من الشعراء الأولين ، هو « فرجيل » ، طاف بالجحيم فوصف مَن شهده فيها من الآثمين وما شهده منصباً عليهم هناك من عذاب أليم .

ثم شاء الله — ولا راد لمشيئة الله إذا شاء — أن يبعث « دانتى » حياً شاعراً كما كان ، وأن يبعث معه « فرجيل » دليلا هادياً كما كان أيضاً ؛ وعادت لدانتى شهوته القديمة فى وصف الأهوال ، فكان أن زار بلداً يقال عنه إنه بلد العجائب ، حتى إذا ما رجع إلى بلاده عمد تواً إلى ما كان قد كتبه فى حياته الأولى ، وأدخل عليه تغييراً وتحويراً يناسب العصر الحديث ، مستفيداً بما علمته التجربة فى بلد العجائب ، وإدراكا منه بأن الشاعر الحق لا مندوحة له عن مسايرة الزمن ؛ لكنه هذه المرة أطلق العنوان بنفسه على قصيدته ، ولم يترك ذلك للأجيال القادمة ، كما قد فعل أول مرة ، ثم اختار عبارة « الكوميديا الأرضية » عنواناً لقصيدته الجديدة .

وهاك خلاصة وافية لوصف الجحيم فى « الـكوميديا الأرضية » كما كتبها الشاعر القديم الحديث .

يقص علينا « دانتى » كيف سار فى صحبة دليله « فرجيل » حتى بلغا باب الجحيم الأرضى ، فقرأ على قمة الباب هذه الأسطر الآتية مكتوبة بماء الذهب : « ادخلوا إلى مدينة الأحزان ؛ ادخلوا إلى أرض العذاب ؛ ادخلوا بين من ضلت بهـم السبيل إلى أبد الآبدين ؛ فيأيها الداخلون انفضوا عن أنفسكم — عند مدخلى — كل رجاء » .

ويدخل الرجلان فإذا بالجحيم هوة سحيقة فى هيئة واد طويل مديد ، رأسه عنـد مركز الأرض وقدمه على حافة البحر ، وجوانبه مدرجـة درجات عِراضاً ، وعلى هذا الدرج حشر الآثمون ؛ ولا يكاد الشاعران يدخلان أبواب الجحيم حتى يبلغا نهراً يسمى بنهر الأسف والأسى ، وعلى شطه ألفيا نفراً يريد العبور إلى الشاطىء الآخر ؛ وكان العبـور تحت إشراف حارس فظيع بشع يجذب الناس جذباً قاسياً عنيفاً ، وعيناه تدوران فى رأسه كأنهما حلقتان من نار ؛ فلا يحتمل دانتى هذا المشهد الرهيب ، ويسقط فى إغماءة لا يفيق منها إلا على صوت رعد يقصف قصفاً شديداً ، وعندئذ يعلم أنه وزميله قد عبرا نهر الأسف والأسى ، حيث انتهى بهما العبور إلى أولى حلقات الجحيم ، وهاهنا وجـدا عَبَدَةَ المبادىء الذين أنهكوا قواهم وأضاعوا حيواتهم فى سبيـل مبادئهم ؛ ولذلك فقد حق

عليهم الحرمان من نعيم الفردوس ، وأخذت تلدغهم الزنابير فى وجوههم وأعناقهم ، فيصيحون من الألم ، ولا يعرفون إلى الطمأنينة والراحة سبيلا . ويجتاز الشاعران هذه المرحلة ليجدا أمامهما فريقاً من الآثمين المجرمين ، وهو فريق أولئك الذين شغلتهم فى الدنيا عقولهم عن إشباع شهوات أجسادهم ؛ وإذا بهؤلاء قد عصفت بهم ريح شديدة فأخذتهم الراجفة كأنهم السكارى فى العاصفة ، وهنا يقول دانتى : « ها هنا بدأت أسمع صيحات الحزن والأسى ، فهاهنا قد أتيت إلى حيث الأنات الشاكيات ، تقرع أذنى فتؤذيها ، إذ ها هنا قد أتيت إلى مكان خفت فيه الضوء وزمجرت رياح عواصف ، كأنه البحر مزقته العاصفة برياحها الموج ، وهبت فى جنبات الجحيم رياح عاتية أخذت فى سورة الغضب تسوق أمامها هؤلاء الآثمين سوقاً فتدور بأجسادهم حتى الدوار ، وتدفعهم دفعاً عنيفاً موجعاً . . . الخ » .

وهنا سقط شاعرنا « دانتى » فى إغماءة أخرى ، لأنه رقيق الحس كسائر الشعراء ، حتى إذا ما أفاق ألفى نفسه فى الحلقة الثالثة من حلقات الجحيم — فى هذه الحلقة الثالثة أعد العقاب لمن عف فلم يلحف فى السؤال عن حقه لدى أصحـــاب السلطان ، فشاهد الشاعران أولئك الخائبين الخاسرين وهم يتمرغون فى حمأة من الطين تحت وابل من المطر والثلج والصقيع ؛ بينما وقف صف من كلاب وحشية تنبح فى وجوههم وتعوى

وتمزق جلودهم تمزيقاً بأنيابها ومخالبها .

وبعدئذ سار الشاعران إلى حيث الحلقة الرابعة من حلقات الجحيم ، فوجدا جماعة كانت تشتغل بالإصلاح فتفسد على غيرهم نعاسهم وأحلامهم ولذلك حقت عليهم اللعنة ونزل العقاب ؛ فرآهم الزائران هناك يدحرجون جلاميد صخر عاتيات فى اتجاهين متقابلين ، ثم لا تلبث جلاميدهم أن يصدم بعضها بعضاً ، ويعود كل جلمود كما كان أول أمره ، فينفجر الأشقياء المجرمون بالغضب من كثرة ما نالهم من نصب وإعياء ، ويلعن فريق منهم فريقاً ، لأن كل فريق يعتقد أن الفريق الثانى هو الذى أتلف عليه ما صنع .

وينتقل الزائران إلى الحلقـــة الخامسة من حلقات الجحيم ، وقد خصصت لمن أخذ زمانه بالدقة فلا يؤخر موعداً ولا يؤجل عملا إلى غد ، ويغضب ويحزن إذا ما رأى من المستهتر تراخياً وتفريطاً — كان هؤلاء المغفلون يسكنون فى الجحيم قاع بحيرة من وحل ، يتنهدون فتنتفخ على سطح البحيرة فقاقيع لاتلبث أن تنفجر ؛ وقد قال منهم قائل حين أحس مرور الشاعرين إلى جانب البحيرة : « كنا ذات يوم حزانا على الفوضى الضاربة فى أرجاء البلاد . كنا رغم الهواء الحلو الذى كانت تبهجه أشعة الشمس ، نحمل فى أجوافنا نفوساً مظلمة وضباباً ثقيلا ، لذلك حق علينا الحزن فى هذا المـكان القاتم » .

و بعدئذ وصل الشاعران إلى مكان الحلقة السادسة حيث أبصرا خلال الضباب الكثيف أبراجاً وقباباً متوهجة بألسنة اللهب ، فقيل لهم إن هذا مدخل مدينة الشيطان ، وكانت طائفة من الجن قائمة على حراسة أبوابها ، ويدخل الرجلان باباً فإذا هما يشهدان سهلا فسيحاً ملأته أجداث مكشوفة لا يسترها غطاء ، تتأجج فى كل منها نار تلتهمه لأن صاحبه كان حراً فى رأيه يعلنه كيف شاء ، فحقت عليهم جميعاً هذه الفضيحة المنكرة لجرأتهم الشنعاء .

و بلغ الراحلان حدود الحلقة السابعة من حلقات الجحيم فهبطاها خلال شق من صخور ممزقة الجوانب ، حتى انتهيا إلى نهر من دماء وقف فى لججه أولئك الحمق الذين كانوا يتورعون فى حياتهم عن اعتراك الأحزاب السياسية ، ويقفون فى ركن هادىء يفكرون ، أو يمضون فى سبيلهم الجاد ينشئون ويعملون .

وكانت الحلقة السابعة ذات شقين ، فدخل الشاعران شقها الثانى ، وأبصرا فريقاً آخر من المغفلين الذين أخذتهم الغيرة فى سبيل الضعفاء والمرضى والمعوزين ، فهؤلاء قد انقلبوا فى الجحيم أشجاراً جافة قصيرة ، تتدلى منها ثمار مسمومة ، وكان كلما انكسر فرع من شجرة تدفق الدم كأنه ينصب من جسم مجروح ، وذلك جزاء ما أحدثوه من قلق فى نفوس كانت آمنة مطمئنة .

وفى الحلقة الثامنة من حلقات الجحيم حشدت طائفة أولئك الذين كانوا لا يراءون ولا ينافقون فى عالم خلقه الله للرياء والنفاق ، فحق على هؤلاء الكفار عقاب شديد ، إذ غمسوا فى حفرة ملئت بقار يغلى ؛ وقد يحدث الفينة بعد الفينة أن يعلو الآثم بظهره فوق سطح القار من لذع الألم ، ثم يختفى فى سرعة أين منها لمحة البرق الخاطف . فكما تقف الضفادع من بركة الماء عند حافتها ، لا يبدو فوق الماء منها غير خياشيمها ، كذلك وقف هؤلاء الآثمون فى لجة القار ، ولكن سرعان ما يأتيهم الحارس فيغوص الجناة تحت الموج .

وقد شهد « دانتى » هنالك مشهداً رهيباً ، إذ شهد أحد الجناة يطفو ويطيل الظهور على سطح القار بعض الشىء ، فجاءه الحارس وأمسك بخصلات شعره وجذبها جذباً شديداً ، ثم ألقى به فى عنف طريحاً حتى بدا له كأنه كلب من كلاب الماء .

وفى الحلقة التاسعة حشر أولئك المجانين الأفدام البلهاء الذين استنصحوا فى حياتهم فنصحوا بالحق ، فكل فرد من هؤلاء قد ألبسوه هنالك قلنسوة ثقيلة من رصاص زخرفوه له بالذهب ، وكلما ثقلت القلنسوة على رأس المذنب حتى مال عنقه إلى صدره ، ألهبه الحارس بسوطه على ظهره ، قائلا له : اعتدل فإن على رأسك طلاء من ذهب هو علامة الصدق فى القول والإخلاص فى العمل .

وفى الحلقة العاشرة والأخيرة من حلقات الجحيم ، شهد الشاعران — ويا هول ما شهدا — شهدا فريقاً من الناس أتوا فى حياتهم أمراً إدًّا ، واقترفوا جريمة هيهات أن تجد لها عند الله غفراناً ، هؤلاء هم الذين لم يتشفعوا بشفيع أو يتوسطوا بوسيط وعملوا فى صمت ، مع أن الله قد أراد لهم أن يصيحوا ويملأوا الدنيا جلبة كلما خطوا خطوة أو نطقوا كلمة . فكان جزاؤهم فى جهنم أن ينزلوا فى قاع الجحيم ، وهو بحر من ثلوج تبدو فيه أشباح المعذبين كأنما هى ذباب يضطرب فى وعاء من البللور ؛ وكتب عليهم هناك أن يقرض بعضهم عظام بعض من الجوع كما تفعل الكلاب الجائعة ؛ فهذا جزاء من يعمل صامتاً معتمداً على نفسه ؛ فلماذا خلق الله للناس آذاناً إذا لم يسمعوا بها صياح الصائحين ، ولماذا خلق لهم قلوباً إذا لم ترق لشفاعة المتشفعين ؟

وكانت الكروب عندئذ قد أضاقت صدر «دانتى» وطلب من دليله أن يسرع به إلى حيث الفردوس ونعيمه . فما هو إلا أن وجد مركبة مغطاة بالزهر ؛ حملته مع زميله بين مروج من الخضرة اليانعة والقصور الشامخة والأكل الطيب وطمأنينة النفس وراحة البال — فهاهنا يقيم من رضى عنهم الله من المنافقين أصحاب الشهوة المسعورة والكذب المبين والخداع والرياء .

وأفاق «دانتى» وهمس لزميله فرحاً مستبشراً ، فقال : ادع لنا الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بهذا النعيم .

خيوط العنكبوت

هذه الصديقة الفاتنة الثائرة لست أدرى كيف أنجو من لحظها الساحر، فإنى حيالها لـكالصيد الذى يمرح فى حبائل صائده . . . عيناها اللامعتان الصافيتان هما البحر السحيق العميق يغرى ضحيته بهدوئه الساكن ، فيغوص وراء اللآلىء والأصداف ، و إذا هو فى لحظة قصيرة بين المغرقين . . . فمن هاتين العينين تفيض خيوط رفيعـة من الضوء ، غزّلتها ملائـكة أو شياطين ، وتظل الخيوط الرفيعة اللألاءة فياضة تتمرق هنا وهنا وهناك ، فما هو إلا أن أرانى بين يديها مغلولا مسحوراً فلا اختيار ولا إرادة .

إنه لولا حبى لهذه الفاتنة لقلت إنها هى بعينها — بل بعينيها — تلك الأفعى التى قالت عنها الأساطير . . . قالت الأساطير إن ثعباناً رقد على بيضة باضها ديك ، فخرجت من البيضة هذه الأفعى المسحورة الساحرة ، خرجت ذات رأسين ، فى كل رأس منها عين ، فإذا هى نظرت ذات اليمين برأسها الأيمن أو ذات اليسار برأسها الأيسر ، فقل سلاماً على من وقعت عليه نظرتها ! إن أسير نظرتها هو إلى الأبد مغلول مشلول مفقود الإرادة ، والويل لمن حدج ناظريها بناظريه . . . وفاتنتى الثائرة هى هذه الساحرة ، غير أن أسيرها ينعم بأسره فى حبائلها المغزولة من ضوء عينيها .

ليت شعري : هل أدركت هذه الفاتنة كم أضعف لجمال العينين ؟ إنه ضعف أعزوه إلى ما في عيني من علة وكلال . . . كان « نيتشه » عليلا هزيلا ، وكان ذات يوم واقفاً ليشهد صفوف الجند تضرب الأرض بأقدام قوية ، وتهز الأذرع هزا عنيفاً ، وتبرز بصدورها بروز الشباب الفتى المتحدى ، فأوحى له هذا المنظر بما أوحى ، وراح منذ تلك الساعة يتغنى « بالإنسان الأعلى » ويحلم بيوم يزول فيه الضعف لتملأ مكانه قوة وفتوة ؛ وكان ذلك كله حسرة على ضعفه وهزاله . . . أفيكون عجباً مني أن أنظر إلى العينين أول ما أنظر ، وأن يأتيني من العينين أول الفتنة ؟ فما بالك والعينان قاتلتان فاتكتان تستحلان سفك الدماء في الأشهر الحرام ؟

ولقد اعتادت صديقتي الثائرة ذات العينين الساحرتين — إذا ما أرادت أمراً — أن تنظر إلى بعينيها هنيهة وهى باسمة صامتة ، ثم تلقى أمرها ، فإذا هو بين جنبي الحافز الذى لا تسكن غمزاته حتى يكون لها ما أمرت به . . . وقد التقينا منذ حين فسألتني :

— لماذا أغمدت القلم في غطائه أشهراً طوالا ، ورقدت رقدة أهل الكهف أو شبهها ؟ لقد تغير وجه الدنيا ودالت دولة وقامت دولة . .

قلت :

— وماذا تريدين ؟

— فنظرت إلى بعينيها الواسعتين لحظة ، ثم قالت : اكتب ، اكتب فى نقلة الناس من حال إلى حال؛ قضيت عنها ، لا أدرى كيف أهمل أمرها ولا كيف أنفذه ، وعدت إلى مكتبي أقلب الصفحات لعلها تلهمنى بما أقول ؛ أو أستلق على الفراش متفكراً متأملا ، لكنك تعلم كيف تكون الحال حين يجف مداد القلم وينضب منه المعين ، فتأمل عندئذ ما شئت ، وفكر ما حلا لك التفكير ، فلن تنبت الأرض الجدباء شيئاً إلا الحسك اليابس هنا وهناك .

قلت لنفسي : أخرج إلى الطبيعة النقية الفسيحة ، فإلا يكن لك منها وحى فعافيةٌ ؛ وكان الوقت أول المساء ، وكان القمر قد أوشك على الاكتمال ؛ وكان الجو طرياً رخياً لا برد فيه ؛ فقصدت إلى حضن الهرم الكبير ، وهنالك جلست وحدى على صخرة عاتية ، أنظر إلى الفضاء الذى غمره الضوء الفضى ، وإلى المدينة العظيمة الواسعة وقد لمست مصابيحها التى تقاربت مع المسافة البعيدة ، حتى اختلطت كلها فى سحابة خفيفة من الوهج الأصفر ؛ ليس السكون شاملا ، فأقدام هنالك أخذت تطقطق على الحصى آنا بعد آن ، وأصوات يعلو صداها على سفح الهرم ، قد حسبها أصحابها همساً خفياً فإذا هى موجات عريضة متتابعة من الصوت يصطدم بالصخر كما تصطدم أمواج البحر على رمال الشاطىء فى ليلة ساكنة الريح ، ثم نق خفيف يقال لى عنه إنه فعل الصراصير ، وخيل إلى أن

بعضه قريب منى ، فنظرت إلى موقع الصخرة من الأرض ، فلم أجد صرصوراً بل وجدت عُنكباً فى خيوطه المنسوجة هادئاً كأنما أسكره ضوء القمر .

دنوت أتأمل نسيج العنكبوت بخيوطه الرفيعة الواهية . . . واهية ؟ ! سل الذبابة المسكينة التى تتعثر أقدامها فى تلك الخيوط أواهية هى ؟ وهل كنت أستطيع أن أتصور حينئذ الفريسة إذا ما وقعت فى تلك الحبائل « الواهية » دون أن أتذكر موقفى إزاء الخيوط النورانية الرفيعة الدقيقة السيالة التى تنبعث لى من عينى صديقتى ، فتوثقنى كأنها أغلظ السلاسل التى صنعت من أصلب الحديد ؟ ! .

لقد نسجت العنكبوت خيوطها « الواهية » هذه فى شكل هندسى بديع لتحيا ، وأقام « خوفو » هذا الهرم الضخم الأشم ليموت ! فأيهما أحكم يا أيها الإنسان المغرور ! .

وعدت إلى جلستى فوق الصخرة الكبيرة ، وشخصت ببصرى إلى القمر ، فامتلأت عينى بخيال عجيب ، حاولت عبثاً أن أصرفه عنى فلم ينصرف ، وظل ماثلا أمامى يحجب الواقع عنى حتى صار هو الواقع الذى عشت فيه ما جلست على تلك الصخرة العاتية فى حضن الهرم . . . رأيت القمر عنكباً ضخما قد تدلت منه وأحاطت به شبكة من خيوط رفيعة دقيقة اتسعت وانتشرت حتى ملأت كل أرجاء الفضاء ؛ وعلى الخيوط الممتدة

هنـا وهناك رأيت ذبابا يمسك بتلك الخيوط صاعدا عليها فى طريقه إلى العنكبوت الضخمة الرابضة فى قمة السماء ؛ والذباب الصاعد متفاوت السرعة ، فهذه تصعد فى سرعة كأنما هى تنزلق هابطة على سطح أملس وهذه مبطئة ، وتلك متعثرة تتقدم حينا وتتأخر حينا . . . وكثيراً ما تلتقى ذبابتان فى طريق واحد ، ولا يكفيهما الخيط الواحد أن يصعدا معاً جنباً إلى جنب ، فتتشابكان بالأطراف ، وتظل كل منهما تدفع الأخرى إلى أسفل ، هذه تنقلب على ظهرها مرة ثم تستقيم على أرجلها لتسرع الخطى حتى تلحق بزميلتها التى ظنت أن قد خلا لها طريق الصعود ، وما تـكاد تمسك بأطرافها الخلفية حتى تشدها شدة عنيفة توشك أن توقعها فى الفضاء لولا مهارة تسعفها فتتعلق بذراعيها وتتأرجح بجسمها فى الهواء ، محاولة أن تثنى بدنها إلى أعلى رافعة أرجلها الخلفية حتى تمسك بالخيط من جديد وتأخذ فى الصعود مرة أخرى .

الذباب كل صاعد على خيوط العنـكبوت ، إن صعوده هذا يكلفه الجهد والمشقة والعناء ، لـكنه مرح فرِح بصعوده ، ليس فى ذلك من شك ، إنه مَرَحٌ واضح فى الذبابة التى تسللت من الزحمة الـكثيفة عند أوائل الخيوط السفلى ، فانفسح الطريق أمامها وحدها ، ولم يعد بينها و بين العنـكبوت حائل ، وهو مرح واضح كذلك فى هذا الذباب المتقاتل المتعارك حين يضيق به الطريق ، وتريد كل واحدة أن يكون طريق الصعود لها قبل زميلاتها .

أنظر إلى الخيوط عند أطرافها السفلى ، حيث أقلها يمس الأرض وأكثرها يرتفع عنها قليلا ؛ من أين جاءت هذه الألوف المؤلفة من الذباب المحتشد المتزاحم ؟ ! لقد كان الهواء صافياً نقياً عند أول قدومي إلى هذا المكان ؟ أأكون يا رباه في حلم عجيب ، أم أنى في عالم مسحور ؟ أم أنا كما أنا واع يقظان ؟ ها أنذا ألمس الصخرة بأصابعي ، وأخبط الأرض بقدمي؛ هذا هو الهرم كما ألفته وعرفته ، وهذه هي القاهرة العظيمة بأضواء مصابيحها كما رأيتها عندما استويت على الصخرة أول مرة ! ألا إن العين إذا توهمت فاللمس لا وهم فيه كما قال شكسبير على لسان ماكبث وهو يتلمس الخنجر.. كلا ، فإنى في وعي ويقظة بشهادة الحواس كلها ؛ وهذه الألوف المؤلفة من الذباب المزدحم المحتشد عند أطراف الخيوط السفلى ، حقيقة واقعة لا شك فيها ؛ وهذه الشبكة التي تملأ أرجاء الفضاء حقيقة لاشك فيها ، والعنكبوت الرابض في قمة السماء ناشراً أطرافه المخيفة حقيقة لا شك فيها . . .

لكن الألوف المتزاحمة من الذباب ساعية إلى الصعود ، ولما كانت الزحمة شديدة كثيفة ، كان يستحيل على ذبابة أن تمسك بأول الخيط — إن كان طرفه مرفوعاً عن الأرض لا يمسها — إلا إذا صعدت على أكداس من الذباب الساقط ؛ فانظر نحو أطراف الخيوط السفلى تجد عجباً ؛ إنه قتال لا ينقضي بين الذباب ؛ والذبابة الظافرة هي التي عرفت

كيف تصرع كذا مائة أو كذا ألفاً من الزميلات ، لتتخذ من أجسادها سلماً ترتفع به إلى أول الخيط ؟ فلو قد أمسكت بطرف الخيط ، زالت من أمامها أعقد الحوائل وأعسر العقبات ، ولا يبقى بعد ذلك إلا ذبابات قليلات يعترضنها فى بعض الطريق . . .

إنه طريق إلى العنكبوت الرابض هنالك فى قمة السماء ، يلتهم ما تتناوله أطرافه الممتدة من الذباب الصاعد ؛ لكن الطريق قد زُين فى أعين الذباب حتى بدا لها كأنه طريق المجد الذى لا طريق إلى مجد سواه .

أمعنتُ النظر فى المعركة الدائرة بين الذباب عند أطراف الخيوط السفلى ، فأخذنى دوار خفيف حين امتلأت أذنى بطنينها الممل القبيح ، فأغمضت عينى بكفى وأدرت رأسى إلى أعلى حتى يخف هذا الطنين البشع القبيح ؛ فارتسمت أمام عقلى صورة واضحة ، أجهدت نفسى بعدئذ لعلنى أتذكر أين رأيتها ، حتى أدركت أنها صورة رسمها شاعر فى قصيدة كنت قرأتها منذ حين بعيد .

هى صورة امرأة تعيش فى كهف صخرى معزولة عن الناس ، فكانت تشعل لنفسها ناراً وتجلس أمامها مستدفئة وهى تغزل غزلها الرفيع الدقيق الذى يشبه خيوط العنكبوت ؛ إنها امرأة عجيبة ولعلها أن تكون ساحرة لأن لها وجه الفتاة الشابة وشعر العجوز الأشيب ؛ وذات مساء طرق بابها

زائر غريب ، فحيته بابتسامة ومضت فى غزلها ، وراحت تغنى وهى تغزل ، فيلمع الخيط فى وهج النار كأنه سلك الذهب ؛ ولولا لمعة الضوء على الخيط لما رأته عينا بشر لأنه رفيع دقيق يشبه خيوط العنكبوت ؛ وجلس الشاب الغريب يرقب الخيط ، ورأت فيه المرأة الساحرة نظرة المتعجب المشدوه ؛ فطلبت إليه أن يلفه حول يديه قائلة إنه خيط ضئيل دقيق رفيع ، لكنه قوى شديد ؛ وشخصت المرأة بعينيها الزرقاوين البراقتين إلى الشاب الغريب وابتسمت له ابتسامة رقيقة لم يلحظ فيها شراً ؛ وتناول الخيط منها وأخذ يلفه حول يديه ؛ ثم ضحكت المرأة الساحرة ضحكة شيطانية فزع لها الشاب الغريب ، وحاول أن يفك الخيط عن يديه ، لكن هيهات ؛ لأن الخيط قد نسجته يدان سحريتان . . وعندئذ قامت المرأة فانتزعت من الشاب خصلة من شعره الفاحم ، وقذفت بها فى النار ، وصاحت والشعر يحترق :

« أختاه ! أختاه ! اسمعى صيحتى !

أختاه ! أختاه ! تعالى واشمتى !

لقد وقع الشاب فى خيطى الرفيع أسيراً » .

* * *

ورفعت كفى عن عينى ، فإذا السماء صافية رائقة ، وإذا القمر ضاحك باسم ، ينقش نوره الفضى فى أحجار الهرم ؛ فأخذنى فزع ونشوة فى آن معاً : فزع لما أوغلت فيه من عالم مسحور ، ونشوة لأنى قد وجدت شيئاً

أكتبه قضاء لما أمرت به الصديقة الفاتنة .

وعدت مسرعاً إلى دارى ، وما أويت إلى مخدعى إلا بعد أن وصفت كل الذى رأيت ، وحملت الوصف مكتوباً إلى صديقتى فى صبيحة اليوم التالى ، مغتبطاً لما عسانى واجد عندها من إعجاب عودتنى إياه كلما كتبت لها شيئاً .

لكنى ما كدت أفرغ من قراءة ما كتبت ، حتى ضحكت فيما يشبه ضحك الساحرة قائلة :

— ما هذا يا رجل ؟ إن حديث العنكبوت والذباب قد سمعته منك منذ زمن طويل ، أما يكون عندك من جديد ؟

— فقلت لها وأنا فى ربكة شديدة من الخجل : أقسم لك بسحر عينيك ، إنى لا أذكر من القصة القديمة شيئاً ، وأن هذا الذى أرويه قد شهدته مساء الأمس رؤية العين .

فقطبت ما بين عينيها وقالت فى صوت حالم :

— ماذا ؟ أيكون الجديد قديماً ؟ أم إنى أنا الأخرى مثلك قد نسيت ؟ ! .

الكراهية الصامتة

عجيبة هذه الكراهية التي قد يحملها الناس أحياناً بعضهم لبعض بغير سبب ظاهر معقول ؛ فترى رجلا وقد اتخذ موقف الكراهية والمعارضة من رجل آخر ، مع أنهما بعد لم تصلهما صلة من حديث أو عمل ؛ لكنه يحس من نفسه استعداداً لرفض ماعسى أن يقوله هذا الآخر قبل أن يقوله ، لأن رفضه في الواقع منصب على شخصه ، فإذا رأيته معارضاً لأقواله مفنداً لآرائه ، فإنما جاء ذلك عن كراهية لاحقة لكراهية سابقة ، إنه قد بدأ برفضه للشخص ذاته ثم عقَّب على ذلك برفضه لأقواله وآرائه كائنة ما كانت ، فإن قال هذا عن شيء إنه أبيض رأى هو أنه أسود ، أو قال هذا عن شيء إنه أسود ، رأى هو أنه أبيض ، لا إخلاصاً في التعبير عما يراه حقاً وصدقاً ، بل رغبة في نبذ هذا الشخص الكريه بكل ما ينطق به من نبأ أو حديث .

وكثيراً ما تكون هذه هي نفسها العلاقة بين جماعة وجماعة أو بين جيل وجيل ، فترى الكراهية بينهما صامتة قائمة متحفزة متأهبة تتحين الفرص والظروف ، حتى إذا ما سنحت لإحداها اللحظة المواتية نفثت سمومها على الخصيمة الكريهة دفعة واحدة ، كأنه

سيل حبيس وجد الثغرة فاندفق ، إنك لتعجب أحياناً كيف تكفى الحادثة التافهة لإثارة حرب طاحنة بين شعبين ، أو لإعلان خصومة حادة بين أسرتين ، والواقع أن قد كانت الكراهية بين الجماعتين قائمة وإن تكن صامتة ، ثم سنحت فرصة إعلانها ، كأنها المرض الخبيث المزمن ، يكمن حينا حتى ليظن بصاحبه الشفاء ، فإذا لفحة خفيفة من البرد تثير كوامنه وتشعل خوامده .

وبين أبناء الجيلين المتعاقبين تقوم مثل هذه الكراهية الصامتة العجيبة ، فأبناء الجيل المقبل — فى أغلب الأحيان — ناقمون ثائرون على أبناء الجيل المدبر ، الأبناء لايعجبهم سلوك آبائهم ، والأدباء لايرضيهم أدب شيوخهم ، والمشتغلين بالسياسة يرون فى القادة قوة رجعية لا بد من زوالها ، وكذلك آباء الجيل المدبر فى أغلب الأحيان مستخفون بأولئك الصغار الناشئين ، حتى ليكاد يستحيل عليهم أن يتصوروا أن من هؤلاء المقبلين أحداً هيأه الله لملء فراغهم ، فلا الوالدون يرون فى أبنائهم ما عهدوه فى أنفسهم من متين الخلق وحميد الخصال ، ولا الأدباء يلمسون فى أدب الناشئين شيئا ذا غناء وبال ، ولا قادة السياسة يطمئنون إلى أن هذا الشباب الغر قادر على تسيير السفينة بمثل ما سيروها ؛ الجيل المقبل والجيل المدبر ، كلاهما

ينظر إلى الرّكب ، فإذا هو عند الأول سائر إلى أمام ، وإذا هو عند الثانى منزلق إلى وراء . . . وهكذا ترى ثورة أولئك على هؤلاء ، واستخفاف هؤلاء بأولئك ، مظهرين للكراهية الصامتة القائمة بينهما — الكراهية التى ترفض القول نتيجة لرفض قائله ، ولا تنتظر حتى تسمع ما يقوله القائل قبل أن تنتهى إلى رفض أو قبول .

هكذا قد تكره شخصاً من الناس ولا تدرى لماذا ، أو لعلك تستطيع أن تدرى لو أخذت فى تحليل الموقف على نحو ما يفعل علماء التحليل النفسى فى أمثال هذه الحالات ، فهم يزعمون أن للكراهية سبباً قد طمرته الأحداث فاختفى عن العين السطحية العابرة ، لكنه لا يخفى على العين الفاحصة التى تنبش حتى تزيح عن العقدة الدفينة ركام الحوادث ، فتخرجها إلى ضوء الشمس من جديد .

وإلا فقل لى بربك ماذا ترى بينى وبين هذه البائعة الصغيرة لأوراق النصيب ؟ إنها بنت فى نحو العاشرة من عمرها ، كثيراً ما تطوف بأوراقها مشارب القاهرة ، أراها مقبلة فكأنما رأيت الحية الخبيثة تسعى ، وأسمعها تنطق فكأن الصوت هو الفحيح الذى تقشعر له الجلود ، إنها فى أغلب الحالات تجىء مصبوغة الشعر فى أصفر فاقع لا يلائم وجهها ، وقد ألبسها ذووها ثوباً ذا بريق عجيب ، شقوه لها — فى أرجح الظن — من ستار نافذة قديم ، وعلى قدميها حذاء أبيض خفيف ، والوجه بين

هذه البقع اللامعة مطل وقد علته غلالة من قذارة لاصقة ببشرته . . .
يا إلهي من هذه البنت الصغيرة حين تقبل ناظرة بعينيها الضئيلتين من ذلك الوجه الكريه ! إذا رأيتها أشحت بوجهي أو أسرعت إلى صحيفة أو كتاب أدس فيه عيني فلا أراها ؛ وكثيراً ما ناديت أقرب خادم لأصب عليه انفعال غضبي أن أذنوا لها بالدخول في مثل هذا المكان ، فتتخلل صفوف موائده ، ولا ترحم حتى هذا الركن المادىء البعيد الذى أحب عادة أن أختبئ في ظلامه . . . إنها مسكينة تسعى إلى رزقها ، وأنا أعلم ذلك ، لكني أعلم ذلك بعقلي ، أما شعوري الذى لا حيلة لى فيه فهو شعور الكراهية الشديدة التى يستحيل أن أجد لها سبباً ظاهراً معقولا ، اللهم إلا أن يكون السبب هو هذا الذوق البشع الفظيع في طريقة لفها وطليها ، لتبدو ــ فى ظن من لفها وطلاها ــ « للذوات » بنتا من « الذوات » أخنى الدهر على أهلها فترحم قلوبهم ، وليتنى ألتقى بذويها يوما ؛ لأنبئهم أن أرحم القلوب قمين أن ينقلب جلموداً من الصخر لهذه الكتلة المتحركة من الكذب والزيف .

إنها الكراهية الصامتة القائمة بين الناس أفراداً وجماعات ؛ وليقل فى تحليلها وتعليلها أصحاب البحوث النفسية ما شاءوا من أسباب دفينة خبيثة ، لأن ذلك لا يغير من الأمر شيئا ، فلا يزال الأمر الواقع هو

أنك قد تحمل لهذا أو لذاك كراهية لغير ما سبب ظاهر ، فتوحى لك الكراهية أن تتخذ الأهبة لرفض ما يقوله الكريه قبل أن ينطق به — وإلى جانب هذه الكراهية التى تحملها لبعض الناس ، حب تحمله لبعضهم الآخر ، يميل بك إلى قبولهم وقبول كلامهم وآرائهم ، كأنها فى أذنك النغم الجميل ، وعلى ذوقك العسل المصفى .

فكأنما تسير بين الناس وفى جعبتك عدة شعورية تقابل بها ما يقولونه وما يفعلونه بالقبول أو بالرفض ، لا لأنها مقبولة لذاتها أو مرفوضة لذاتها ، بل لأنك تكره هنا وتحب هناك ، ان من أقوى اللمحات الفكرية التى قرأتها ، لمحة لنيتشه ، يقول فيها إن منطق الناس لا يسير من المبررات العقلية إلى إرادة أداء الأفعال التى تترتب عليها ، بل يسير على عكس ذلك من إرادة أداء أفعال معينة يشتهيها الفاعل بعاطفته ، ثم يبحث لها بعد ذلك عن مبرراتها العقلية ، أى أنك لا تقول : إن عقلى يرى الصواب من الأمر كذا وكذا ولذلك فإنى فاعل كيت وكيت ، بل تقول : إنى فاعل كيت وكيت ولذلك فإن عقلى سيجد له من المبررات كذا وكذا .

العاطفة من حب وكراهية تأتى عند الناس أولا ، ثم يأتى بعد ذلك قبول الآراء ورفضها فى ظل تلك العاطفة ، وقد تخف هذه العدة الشعورية عند فرد حتى لا تبدو آثارها إلا لماما وفى لمسات رقيقة ، لكنها قد

تشتد عند فرد آخر فتصبح عاطفة جارفة كعاطفة العاشق الولهان أو الوطنى المتحمس أو صاحب العقيدة الذى ملأه الهوس نحو عقيدته ـ وعندئذ تعمى العيون وتصم الآذان ، فلا يرى صاحب العاطفة ولا يسمع إلا ما يغذى فيه عاطفته تلك ، فعين الرضى ـ كما يقول الشاعر ـ عن كل عيب كليلة ، ولكن عين السخط تبدى المساويا .

الملائكة فى عين الكاره أبالسة وشياطين ؛ وعبثاً تحاول إقناع الكاره بتغيير رأيه فيمن يكره ، إلا إذا انتزعت أولا منظاره الأسود من فوق عينيه ، أما أن يظل منظاره ذاك أمام عينيه ، ثم تحاول بعد ذلك أن تريه بياض الأشياء ونقاءها وطهرها ، فأنت عندئذ كمن يحاول أن يضع النقيضين معاً ؛ والظاهر أن الجماعات الإنسانية قد أدركت ذلك منذ زمن بعيد ، فعولت عليه فى تربيتها لأفرادها ؛ فالجماعة المعينة تريد لأبنائها أن يحبوا شيئاً ويكرهوا شيئاً ، فحسبها أن تلبسهم مناظير فوق أنوفهم باللون الذى تريد لهم أن يروه ، وهى بعد ذلك على يقين من أنهم سيساقون لمشيئتها سوق الأغنام للراعى .

ولعلك تلاحظ هنا أن الإنسان لا يرى زجاج منظاره ، وإن يكن ينظر خلاله إلى كل شىء عداه ؛ ومن ثم لا يدرك المتعصب أنه متعصب ، لا يدرك أبداً إلا إذا جاءته رحمة الله فخلع منظاره الملون عن عينيه ؛ فتعدد الآراء فى الشىء الواحد هو فى الحقيقة اختلاف فى ألوان المناظير ، لا فى الشىء

ذاته ، ولا فى العيون التى تستطيع أن ترى الشيء على حقيقته لو مُكن لها أن تراه مباشرة و بغير منظار .

قد أنظر إلى الجماعة من الأصدقاء ، وقد أستمع إليهم يديرون المحاورة حول موضوع ، فيقول الواحد منهم رأيا ليدحضه صديقه ، فأهمس لنفسى عندئذ : ترى كم بين هؤلاء الأصدقاء من كراهية صامتة لا تعلن عن نفسها ؟ إن الحب محمود عند الناس ولذلك فهم يسرعون إلى إعلانه إن كان بينهم منه شيء كثير أو قليل ، أما الكراهية فرذولة ممقوتة ، ولذلك فهى مضطرة إلى التستر فى صمت وراء أقنعة الرياء ؛ ثم أسأل نفسى عندما تجلس جماعة الأصدقاء فى حديثها يدحض بعضهم آراء بعض : ترى إلى أى حد صدر الرافض للرأى عن صدق مخلص ، و إلى أى حد صدر عن كراهيته المكنونة فى صدره ، التى يحرص على إخفائها حرص تاجر المخدر على إخفاء بضاعته ؟

و إنما جاءتنى هذه المقارنة بين الخبيثين ، لأن كليهما قد يثرى صاحبه من وراء الستار ، ولست أدرى كم جمعت تجارة المخدر لأصحابها من ثراء ، لكنى أستطيع أن أدلك على طرف يسير مما جاءت به الكراهية الدفينة على الكارهين من ربح نفسى موفور ! فبمقدار كراهيتك للناس والأشياء والأوضاع من حولك ، تكون مقاومتك لها ومحاربتك إياها ، ثم بمقدار هذه المقاومة والمحاربة يكون التقدم بالحياة من حال إلى حال : كره الناس

حكامهم الطغاة فقاتلوهم حتى ظفروا بحريتهم من سياط طغيانهم ، وكره الفقراء أن يتمتع الأغنياء بكل شيء من دونهم فطالبوا بالإصلاح حتى رأينا الضرائب تجبى بكثرة على الأغنياء ليعيش الفقراء . . . فهذه وأمثالها كراهيات منتجة ، لكنها أنتجت حين أعلنت عن نفسها ، ولو لبثت على صمتها كامنة فى النفوس لظلت على عقمها .

آه لو شُقّت الصدور وفُتحت القلوب ، لترى كم اختبأ فيها من عناقيد الحصرم المر — حصرم الكراهية التى يحملها الناس بعضهم لبعض ، ثم لا يكشفون ! ورحمك الله يا « فرويد » حين وضعت أصابع الناس على حقيقة هالتهم وأفزعتهم ، وهى هذا العداء المستحكم بين الابن وأبيه منذ الطفولة ، ولو أدرك الآباء هذه الحقيقة على هولها كله ، لساسوا أبناءهم بما يخفف حدة هذه الطبيعة البشعة بدل أن يزيدوا النار لهباً وسعيراً . . . هل تصدق أن هذه البسمات التى يتبادلها الزوجان لا تخفى وراءها كراهية وضيقاً ؟ هل تصدق أن هذا الود يتقارضه الصديقان لا يطوى فى أحشائه غلا وحسداً ؟ . . . إنه البشر وإنها طبيعته .

وما كل طبيعى مقبول ، فالطبيعى لماء النيل أن يأتى ممزوجاً بالطين . لكننا ننقيه ونصفيه فى المواسير والصنابير قبل شربه ، والطبيعى للطرقات أن تكون رمالا وأحجاراً ، لكننا نمهدها ونرصفها ليسهل السير فيها ... فإن كان من الطبيعى للبشر أن تعكر الكراهية قلوب الناس ونفوسهم ،

فلابد من التنقية والتصفية والتمهيد والرصف حتى يتم التعامل بين إنسان وإنسان .

فلنعلن من الكراهية التى نحملها فى صدورنا عما عساه أن ينتج خيراً بإعلانه ، كهذه الكراهية التى أعلنتها الشعوب ضد حكامها الطغاة ، والتى أعلنها الفقراء على الأغنياء ؟ أما ما عدا ذلك فالخير فى حبسه فى الصدور ، حيث تظل الكراهية هناك بين جدرانها صامتة . لا أثر لها ولا خطر ، اللهم إلا ضيق الصدور الحابسة وكتمة النفوس الكارهة .

عروس المولد

أرسلتْ إليّ قائلة : « لقد أعجبنى كثيراً وصفك للكراهية الصامتة ، حتى تمنيت لو استطاع « الحب الصامت » أن يحظى من قلمك بمثل هذه اللفتة . . . » وتمنيت بدورى لو استطاع قلمى أن يجيب الصديقة الأديبة إلى طلبها ؛ لكنى أحسست فى أعماق نفسى بأنى إذا ما أجريت قلمى فى هذا الميدان ، تعثر وكبا ، فلا أكون جديراً منها بإعجاب آخر .

ترى أين عساى أن أوجه النظر ، لأبصر بالحب صامتاً لا يفصح عن نفسه ولا يبين ؟ إن الناس إذا ما أحس أحد لأحد حباً ، أسرع إلى إعلانه فرحاً فخوراً ، كأنما وقع فى ثنايا الطبيعة الإنسانية على كنز نادر نفيس ؛ إنهم إذا ما أثنى أحد منهم على أحد فى غيبته ، تمنى لو بلغ هذا الثناء صاحبه ، لأنه يعلم أن الفطرة البشرية قلما تجود بهذه اللحظات التى يثنى فيها إنسان على إنسان ، ثناء صادقاً مخلصاً لا ملق فيه ولا رياء .

أتذكر يوم جاء أبوك إلى غرفتك ساعة الفجر يصلى — فما رأيته مقصراً قط عن أداء الصلاة منذ شببت فوعيت حتى مات — أتذكر وقد أخذ يدعو لك الله فى صوت جهير ، وكنت عندئذ مستيقظاً فى فراشك ، لكنك ظللت مغمض العينين ؟ أتذكره وهو ينبئك على مائدة الإفطار

كيف دعا لك و بماذا دعا ؟ فلما قلت له إنك قد سمعت دعاءه ، لأنك كنت بين اليقظة والنعاس ، تهلل وجهه وانتشى نشوة لم تفارقه طيلة يومه ؟ إنه والد أحب ولده حباً خالصاً ، لكنه لم يطق أن يظل حبه خبيئاً صامتاً ؛ وانظر — إن شئت — كيف يفرح الآباء إذا ما جاءوا لصغارهم بالحلوى ، أنظر كيف يفرحون فرحة مضاعفة إذا كانت الأمهات على مرأى منهم أو مسمع ! إن الوالد حين يعطى صغاره الحلوى ، إنما يعطى أبناءه الذين يمحضهم الحب نقياً خالصاً لوجه الله ، لا شبهة فيه ولا شائبة ؛ لكنه مع ذلك يود لو رأت أمهم علائم حبه لهم ، لأنه لا يريد للحب أن يمضى خفياً صامتاً ، غير مرئى ولا مسموع .

كلا ، لست أجد المكان الذى أقف فيه لأنظر فأرى الحب صامتاً ، وإذاً فلا يجمل بى أن أجيب الصديقة الأديبة إلى طلبها ، فليس المهم أن يكتب الكاتب ليملأ الصفحات ، إنما المهم أن يكون صادقاً فيما يكتب وليقل بعد ذلك من شاء ما شاء .

إنهم يقولون إن الأدب خيال ، وإنهم لصادقون ، فلماذا لا تنسج بخيالك نسيجاً ترضى به الأديبة فيما طلبت ، وترضى به غرور الناس فى آن معا ، حين تنبئهم بأن قلوبهم مفعمة بالحب ، بعضٌ إزاء بعض ؟ ماذا عليك أن تتخيل زيداً وقد أحب عمراً حباً لم يعلنه بإشارة أو عبارة ؟ . . . لا ؛ إن خيال الأديب ليس معناه أن يطير فى الهواء

بلا جناح ؛ والجناح الذى يطير به هو الواقع الذى يلمسه و يراه .

إن «سرفانتيز» لم ينظر بعينيه إلى فارس بين من رأى من الفرسان ، اسمه « دون كيشوت » فرآه يصنع لنفسه خوذة من ورق ، ثم يضرب الخوذة بسيفه فتمزقها ضربة السيف ، فيعود إلى صنع خوذة أخرى من الورق ، و يأبى هذه المرة أن يضربها بسيفه خشية أن يمزقها ، حتى يظل رافلا فى خياله الجميل ، بأنه — كسائر الفرسان — يغطى رأسه بخوذة تحميه من ضربات الأعداء إذا ما التقى بالأعداء فى قتال . . . إن « سرفانتيز » لم ير شيئاً من هذا رأى العين ، لكنه خلقه بخياله ، وكان معنى الخيال هنا أن العين يجوز أن ترى أشباهه فى الحياة الواقعة ؛ ولا أحسبنا — نحن المصريين — بحاجة إلى غوص عميق فى لجة الحياة الواقعة لنستخرج منها أمثلة شبيهة بهذا الذى وقى رأسه بخوذة من الورق ، موهما نفسه بأنه قد أصبح كسائر الناس الذين يضعون الخوذات الصلبة فوق رءوسهم لتحميها .

ولم يكن « لير » ملكاً حقيقياً من أصحاب العروش الذين عرفهم التاريخ وسجلهم فى كتابه ، بل خلقه شكسبير بخياله ليصور ما يمكن أن تكون عليه حالة الوالد إذا ما قسم ملكه بين أبنائه أو بناته قبل موته ، معتمداً على حب الولد لوالده ؛ فهذا « لير » قد قسم ملكه بين ابنتين من بناته الثلاث ، حتى إذا ما طرق باب الواحدة منهما بعد ذلك ليعيش

فى كنفها ، ضاقت به أولاً ، ثم نهرته ثانياً ، ثم طردته ثالثاً ؛ فراح المسكين — من هول الصدمة — فى الأرض العراء يهذى ، وما لبث هذيانه أن أصبح جنوناً صريحاً . . . إن شيكسبير لم ير ذلك بعينيه ، لكنه خلقه بخياله خلقاً ، وكان معنى الخيال هنا أيضاً أن العين يجوز أن ترى أشباهه فى أى زمان أو مكان .

فلئن كان الأدب خيالاً ، فهو هذا الخيال الذى يستمد من الواقع جناحه ، فلا بد لى — إذاً — قبل أن أكتب فى « الحب الصامت » أن أراه ... ...

يا لسعدى ! وقلما شاءت لى الأيام سعداً ! لقد وقعت عيناى ليلة المولد على مثل عجيب من الحب الصامت ، وإذاً فسأكتب للصديقة الأديبة ما أرادت !

هذا صبى فى العاشرة وقف أمام بائع العرائس — عرائس المولد — وقفة تفيض بالمعانى ؛ وقف على بعد ثلاثة أمتار أو نحوها ، مثبتاً ناظريه فى عروس كبيرة ، والأعجب من هذا أن راحت العروس « الحلوة » بدورها تنظر إليه لا تزيح عنه البصر ! . . . والله لن أمضى فى طريقى حتى أتبين حقيقة هذا الغزل النادر ؛ إن الصبى ينظر إلى معشوقته وعلى فمه ابتسامة خفيفة كلها هيام ، والأعجب من ذلك أن راحت العروس « الحلوة » بدورها تبتسم له فى حنان ظاهر ! من ذا يرتاب فى أن العروس قد وقعت

هنالك على شرفتها العالية من دكان البائع تصوب نحو الصبي نظراتها وتبعث إليه ابتسامها ؟ ألا إنهما عاشقان صامتان ، لولا أن حبه هو قد كان ممتزجاً باشتهاء الحبيبة ، وأما حبها هي فصادر منها عن عطف وإشفاق ، ترى شهوته في عينيه ولعاب شفتيه ، ويرى عطفها في ابتسامتها ...

لـكن أوجه الخلاف بين العاشقين الصامتين بعد ذلك فسيحة المدى ؛ إنه صبي فقير وقف هنالك في هلاهيله رغم البرد الشديد ؛ وقف مرتعش الأطراف تريد عضلاته الصغيرة أن يزحم بعضها بعضاً ليدفىء بعضها بعضاً ! ورأيته يرفع إحدى قدميه فيقف بها على أطراف أصابعها ، ونظرت إلى القدم المرفوعة فإذا آثار جرح كبير في عقبها ، تعرفه جرحاً بحواشيه القرمزية المتنفخة ، وأما فجوة الجرح نفسه فقد ملئت بالطين الجاف ، كأنه بركان ثار وأرسل الحمم ثم خمد مؤقتاً ليثور من جديد بعد حين ؛ لـكن الصبي الولهان ظل واقفاً هنالك يرتعش ويرقب معشوقته المشتهاة في شرفتها العالية ، إنها بادية الثراء ، لبست ثوباً نظيفاً جديداً لامعاً ، عليه «الترتر» اللامع الساطع .

شعر الصبي ملبد فوق رأسه خشن بأوساخه غليظ ، وشعر العروس ممشط ناعم مرسل ؛ وجسد الصبي ملطع ببقع بيضاء من ملح ، وجسد العروس كله في حلاوة السكر وأشهى ؛ شتان ما كان من فرق بين العاشق الفقير ومعشوقته الثرية : إنه بقعة سوداء في محيط لامع من الأضواء المختلفة

الألوان والبريق ؛ كان المكان كله يتوهج بالنور ليلة المولد ، وكان الهواء كتلة من الصوت ، فاختلط الصوت بالضوء اختلاطاً يكاد يخيل لك معه أنك ترى الضوء بأذنيك وتسمع الصوت بعينيك — إلا هذا الصبي العاشق الولهان ، فقد وقف وسط الضوء اللامع بقعة سوداء من فقر ، ووقف وسط الصوت المدوى قطعة ساكنة من ذل ، ترتعش أطرافه من برد ديسمبر . وترتفع قدمه الجريحة تخفيفاً للألم ، وذراعاه ضاغطتان على بطنه ، إما طلبا لدفء أو دفعاً لجوع ، وقف هنالك بقعة سوداء ساكنة ، رافعاً رأسه قليلا إلى أعلى ، شاخصاً ببصره إلى عروسه لا يتحول عنها يميناً أو يساراً ولا يتقدم خطوة ولا يتأخر .

فأين ذلك كله من عروسه اللامعة مع محيطها اللامع ، المزدانة في اتساق مع ما حولها من زينة ؟ إنها وقفت هنالك تنظر إليه وتبتسم ، لماذا لاتنزل الدرج ساعية إليه ؟ إن الفقير والغنية إذا تحابا ، كان على الطبيعة أن تغير مجراها ، فتخطب الأنثى ود الذكر . لأن الذكر هنا عاجز مهيض الجناح منتوف الريش ! لقد كان محالا على الصبي أن يتصور أن عروسه تلك المزدانة ، قد وقفت هنالك في بهرجها ، أمةً رقيقة معروضة في السوق للبيع ، ولا تتحرك إلا بإذن صاحبها الذى يتقدم لشرائها ، كان محالا أن يطوف بباله أن هذه « الحلاوة » كلها تباع بمال ، وأكثر من ذلك استحالة على تصوره أن يكون بين الناس من يملك المال الذى يستطيع به الشراء !

كيف كان يمكن لصبي فى فقره وخبرته أن يتصور أن عروسه تلك مما يؤكل ؟ كيف يأكلها آكلوها ، هل يبدءون بالرأس أم يبدءون بالقدم ؟ وهذا الشعر المنساب الناعم على رأسها ، وهذا الثوب المزخرف الجميل اللامع . . .

طاخ ! نزلت صفعة الشرطى على الصبي إذ هو شاخص ببصره إلى عروسه يحلم ؛ والشرطى معذور ، لأنه مطالب بحفظ النظام ، وليس من النظام فى شىء أن يشتهى مثل هذا الصبي مثل تلك العروس ؛ إن فى ذلك خلطاً كريها لطبقات الأمة غنيها وفقيرها ، وقد كان العشق منذ أقدم العصور مقيداً بقيود الطبقات ، فلا يكون عاشق من طبقة ومعشوقة من أخرى . . . طاخ ! صدمت ركلة الشرطى قدم الصبي الجريحة ، فجرى المسكين صارخاً من الألم فى صوت يشبه عواء الكلب الجريح ، وظل يحجل على قدم واحدة وهو يصيح ، حتى أوى إلى فجوة باب مغلق خلف حظيرة الحلوى التى عرضت فيها عروسه ، وجلس هناك فى الظلام باكياً ، يهز جذعه إلى خلف وإلى أمام ، ممسكا بقدمه الجريحة بين كفيه .

ونظرتُ إلى الصبي فى ظلامه نظرة أخيرة ، ثم نظرتُ إلى عروسه فى زينتها وضوئها ؟ نظرت إليهما بعد أن فرق قانون الدولة بينهما إلى الأبد ، فإلى الأبد سيظل حب الصبي لحبيبته مكتوماً فى قلبه ، وسيظل حب العروس لفتاها حباً صامتاً ؛ لكن ابتسامة الصبي قد حولها قانون

الهولة بكاء وأسالها على وجه البائس دموعاً ، وأما ابتسامة العروس فستبقى ابتسامة — وإن تبدل معناها من عطف إلى سخرية — ستبقى لها ابتسامتها لأنها في السوق لا تباع بغير ابتسامة .

ومضيت في طريق وأنا أحمل بين جنبي قلبا من حجر ؛ وهل أدعى غير ذلك ما دمت قد رأيت وسمعت ، ثم مضيت في طريق ؟ وما هو إلا أن رأيت قوماً تحلقوا يذكرون الله في ورع وتقوى ، فهل كان يسعني عندئذ إلا أن أتذكر « فيفيكا نائدا » — من رسل الإصلاح الديني في الهند — إذ يقول : « أسمى الحقائق هي هذه : الله كائن في الأشياء كلها ؛ إنها صوره الكثيرة . . . إننا نريد عقيدة دينية تعمل على تكوين الإنسان ... اطرح هذه التصوفات المنهكة للقوى وكن قوياً ... ولنمح من صفحات أذهاننا — في الخمسين عاماً المقبلة — كل ما عدا ذلك من آلهة ؛ جنسنا البشرى هو الإله الوحيد اليقظان ، يداه في كل مكان ، قدماه في كل مكان ، أذناه في كل مكان ، إنه يشمل كل شيء . . . إن أولى العبادات كلها هي عبادة من حولنا . ليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعاً » .

لم يكن يسعني وقد رأيت الذاكرين يذكرون الله بعد رؤيتي لذلك الصبي يتألم ويعوى ، بكل ما فيه : بقدمه الجريحة وبطنه الجائع ، وجسمه المرتعش ، وقلبه الولهان ! لم يكن يسعني وقد رأيت أولئك بعد هذا ، إلا

أن أذكر قول « فيفيكا ناندا » على نحو ما يتوارد الضدان فى الذهن ؛ والحق أنى ظللت أذكر ذلك الصبى المتألم الولهان ، كلما طالعت الصحف ووجدت قصائد « الشعراء » تترى فى ذكرى المولد النبوى الكريم : ترى هل لهؤلاء « الشعراء » قلوب حساسة حقـــاً كما يتوهمون ويوهمون ، أم أن قلوبهم — مثل قلبي — قدت من حجر ، فيرون أمثال هذا الصبى المسكين ليلة المولد ، ثم يمضون إلى مكاتبهم الدافئة ينظمون و « يشعرون » ؟ ! !

ولكن مالى الآن ولهذا كله ؟ لقد كتبت إلىّ صديقتى الأديبة متمنية لو استطعت أن أكتب عن « الحب الصامت » كما كتبت عن « الكراهية الصامتة » وتمنيت بدورى لو استطاع قلمى أن يجيب . وحسبت تحقيق أمنيتى هذه — فى أول الأمر — محالا لاستحالة أن يكون فى العالم حب صامت يقع عليه البصر فيجرى به القلم ؛ ثم شاءت لى الأيام سعداً وقلما تشاء ، فأطلعتنى ليلة المولد النبوى على حب صامت عجيب ، سيظل إلى الأبد قائماً بين صبى فقير عاشق وعروس من الحلوى .

إلى سادتي الحكام

إلى السادة من أصحاب السلطان فى هذا البلد أوجّه الحديث .. لكن عفواً سادتى ، فما قصدت بهذا إلى الإساءة عامداً ، فأنا عالم أتم العلم بأن سادتى لا يقرءون لأصحاب الفكر النظرى ما يكتبون ، ومن ثم نجاح الأولين و إخفاق الآخرين ؛ فهؤلاء قد أوصدوا من دونهم أبواب أبراجهم وقطّعوا الأسلاك التى تصلهم بالعالم الخارجى ، وعاشوا فى عزلة موحشة يقرءون ويكتبون ؛ أما أولئك السادة فقد خرجوا إلى حيث يضطرب الناس وتصطخب الحياة ، ليحكموا الناس ويمسكوا بزمام الحياة ، فليس بهم حاجة إلى كاتب يوجه إليهم حديث النصح والهداية ، وحسبهم فى باب القراءة ما قد طالعوه أيام الطلب فى مدارسهم وكلياتهم فى عهد الطفولة والصبا .

لم أقصد يا سادتى إلى الإساءة عامداً ، حين زعمت أنى أوجه إليكم حديثى هذا ، فلست جاداً فى استعمال هذه الكلمات ، وإنما الأمر كله أحلام وأوهام ؛ فالخيال والغرور كلاهما يصوران لى أحياناً أنى أكتب لقارىء ، ثم سرعان ما يولّى بى الخيال ويشتط الغرور حتى أتوهم أن هذا القارىء قد يكون من أصحاب السلطان ، فأخاطبه كأنما أخاطب رجلاً

سميعاً بصيراً من لحم ودم ، والأمر كله لا يعدو تخليط واهم وأضغاث حالم ، وكما يقول « جولد سمث » : إذا كانت أحلام الحالم لا تضر الناس فاتركوه يحلم كيف شاء .

أردت أن أقول يا سادتى إنى كنت أقرأ لأفلاطون قراءات مبعثرة هنا وهناك ، فاستوقف نظرى حرص شديد من ذلك الشيخ القديم على أن ينبه قارئه على مر الأجيال إلى علاقة قوية شديدة بين الخير والجمال ، فقد أخذ يكرر فى مواضع كثيرة أن الخيّر والجميل شىء واحد ... وفكرت لنفسى : تُرى ماذا يعنى كبير الفلاسفة اليونان بقوله هذا ؟ وانتهيت إلى تحليل أرضانى ، تترتب عليه نتيجة هى التى أردت أن أسوقها إلى سادتى الحكام فى هذا البلد ، وهى أن كل ما فى هذا البلد المسكين قبيح ذميم بفعل هؤلاء السادة أنفسهم ، وعجبت أن يُعنى السادة بالجمال فى مساكنهم الخاصة وفى ملابسهم ومآكلهم وشتى جوانب حياتهم الشخصية ، ثم لا تمتد هذه العناية قليلاً لتشمل شئون الشعب الذى ألقى إلى أيديهم بزمامه . . .

فماذا يعنى فيلسوفنا بأن الخير هو نفسه الجمال ؟ سأقص على القارىء خواطرى كما وردت حين أردت توضيح الفكرة لنفسى ؛ قلت : اختر لنفسك مثلا أو مثلين مما يستحيل أن يختلف الناس فى أنه خير ، فالصحة خير من المرض بغير شك ، والغنى خير من الفقر بلا ريب ، وإذاً فلنمعن

النظر فى هذين : الصحة والغنى ، فهذان مثلان للخير يرضاها الناس جميعاً وعلى رأسهم السادة أصحاب السلطان ؛ فكيف تكون العافية جمالا ، وكيف يكون المال جمالا ، وقد عهدنا الجمال على ألسنة الشعراء لا يكون إلا للزهرة والجدول والمرأة الفاتنة والقمر الوضاء والشمس وهى غاربة وما إلى ذلك من ألوان الجمال ؟

ثم سألت نفسى قائلا : ألا يحسن بك أن تنتقل بنظرك إلى الأشياء الجميلة أولاً ، لعلك مدرك عنصراً مشتركاً بينها ، هو الذى يجعلها جميلة ، بحيث تزداد جمالاً أو تنقص بزيادة ذلك العنصر فيها أو نقصه ؟ وسرعان ما وقعت على الجواب الذى لست أشك فى أنه كان ماثلاً فى ذهن أفلاطون وهو يفكر فى هذا الصدد ، لأنه جواب أعتقد أن كل مفكر يونانى لم يكن يتردد فى قوله لو سئل : ما الجمال ؟ وذلك هو احتفاظ الجسم بنسب معينة بين أجزائه ؛ ففكرة تناسب الأجزاء والوقوف بالشىء عند حد يرضاه الذوق والعقل معاً ، فى غير إسراف فى هذا الطرف أو ذاك ، هذه الفكرة كانت تشغل الفكر اليونانى حتى لتصادفك كلما قرأت لليونان شيئاً .

جمال المرأة الجميلة هو احتفاظ أجزاء جسمها بنسب معينة ، يعرفها فى عصرنا هذا القائمون على مسابقات الجمال ، فللذراع طول وللساق طول ولكل جزء من أجزاء الجسد مقياس معين ، ويكون جمال المرأة بمقدار

قربها من تلك المقاييس فى أجزاء جسمها ؛ ولـكن من الذى يقرر هذه الأطوال والمقاييس ؟ تقررها التجربة والخبرة والملاحظة ، فأنسب طول الذراع هو نفسه الطول الذى يجعل الذراع فى أحسن حالة تمكنها من الحركة السهلة ، وأنسب طول للساق هو نفسه الطول الذى يجعل الساق فى أحسن حالة تمكنها من الحركة السهلة ، وهكذا ؛ فكأنما الذى يقرر لنا تلك الأطوال والمقاييس هو مدى قدرة الأعضاء على أن تحتفظ لنا بالحياة والبقاء القوى السليم .

وبعد أن يتقرر لنا شرط الجمال البشرى ، يتقرر تبعاً له شرط الجمال فى كل شىء آخر ، لأن الإنسان بعدئذ يخلع نظرته الذاتية على الأشياء ، فما دام الإنسان حين تتوافر لأعضاء جسده النِّسب التى تجعلها أقدر على الحركة والاحتفاظ بالحياة ، يكون فى الوقت نفسه قد توفرت له صفة أخرى هى التماثل (السيمترية) ، إذاً فليجعل التماثل مقياساً يقيس به جمال الزهرة وجمال البناء وجمال الشِّعر وجمال الصفوف المنظمة من الجنود وما إلى ذلك .

وما دام الإنسان يتوافر لجسده شرط الجمال حين تتوافر له سهولة الحركة ويُسْرها ، إذاً فليجعل من الحركة للنسابة مقياساً يقيس به جمال الجدول الجارى وانطلاق الصوت وكل ما يذكّره بحركة الحياة النامية فى جسده هو ؛ كاحمرار الشفق عند غروب الشمس وميوسة الأغصان

وميلانها السهل مع هبوب الريح ، وصوت حفيفها الذى يذكر بهمس العاشقين .

والخلاصة هى أن رأى الإنسان فى جمال الأشياء مستمد فى النهاية من رأيه فى جمال جسمه ، وجمال جسمه مستمد من خبرته التى دلته على أن الحياة تكون أضمن بقاء حين تتوفر للجسم نسب معينة بين أعضائه ، فهذه النِّسب — إذاً — هى عنده المرجع الأخير .

* * *

و بعد أن قررت لنفسى ذلك فى الأحكام الجمالية ، عدت إلى المثلين اللذين أردت بحثهما من أمثلة الخير المتفق عليه . مَثَل الصحة ومَثَل الغنى ؛ وسألت : متى يكون الجسم صحيحاً معافى ؟ يكون كذلك حين تلتزم عناصره نِسَباً معينة . فإذا زاد أو قل السكر أو الزلال أو الملح أو غير ذلك عما ينبغى ، اعتل الجسم ، وكان شفاؤه فى الحدّ من الزيادة إن كانت زيادة ، أو فى سد النقص إن كانت قلة .

ومزاج الإنسان يختلف من ساعة إلى ساعة ، فهو الآن فى نشوة من نفسه ، وهو الآن فى غم وضيق ، لماذا ؟لأن « مزاج » العناصر يختلف من ساعة إلى أخرى ، فإذا كانت نسبة « المزج » صحيحة كان « المزاج » النفسى صحيحاً كذلك ، و إذا كانت نسبة المزج مضطربة كان المزاج النفسى مضطرباً .

فالصحة البدنية والصحة النفسية على السواء ، هى فى أساسها صحة فى النسبة بين العناصر ؛ لكن الجمال فى الشيء الجميل إن هو — كما أسلفنا — إلا احتفاظ الأجزاء بنسب معينة كذلك ؛ وإذاً فالجسم الصحيح هو كذلك جسم جميل ، لأن الأساس فى الحالتين واحد ؛ ولما كانت الصحة خيراً متفقاً عليه ، كان الخير والجمال شيئاً واحداً ، وكان الخير هو نفسه الجميل .

وننتقل إلى المثل الآخر من أمثلة الخير ، الذى أردنا تحليله لتوضيح ما أردنا توضيحه ، وهو الغنى — فالمال خير متفق على خيريته عند الكثرة الغالبة من الناس ؛ وحتى أولئك الذين يذمونه ويجعلونه شراً ، إنما يذمونه بالكلام ويسعون وراء جمعه بالفعل والعمل .

لكن الناس كذلك متفقون بما بينهم من فهم مشترك للأمور ، على أن هنالك نسبة معينة لابد أن يراعيها صاحب الحاجات لإنفاق مقادير معينة من المال بين كسبه وإنفاقه ، فإذا كسب مالا ولم ينفقه لم يكن عند الناس موضع مدح ، كذلك إذا أنفق مالاً ولم يكسبه ، بل ترى الناس يكادون يحددون أنواعاً معينة من العمل لكسب مقادير معينة من المال ، ثم أنواعاً معينة من المال المكسوب ، ولا يكون صاحب المال عندهم موصوفاً بالخير إلا إذا حافظ على هذه النسب كلها بين نواحى كسبه وأوجه إنفاقه جميعاً ، فرجل يمدح لأن معظم ماله من كسبه عن طريق العمل ، ورجل آخر يذم لأن معظم ماله هو مال زوجته ، وغنى يمدح لأنه يجود

بماله ، وغنى يذم لأنه يبخل ، وهكذا .

وهكذا يتوقف الخير المنسوب إلى المال على نسب مطلوبة فى طريقة كسبه وطريقة إنفاقه على السواء ، وقد أسلفنا أن التناسب هو أيضا أساس الحكم بالجمال على الشىء الجميل ، وإذاً فالخير هنا أيضاً هو نفسه الجميل ، لأن الأصل واحد فى الحكمين .

* * *

وأعود إلى السادة من أصحاب الحكم والسلطان ، الذين أوجه إليهم الحديث فيما أوهمت نفسى ، فأقول :

أيها السادة ، لقد اختل فى أيديكم الميزان فاضطربت النسبة الصحيحة بين الأشياء والأوضاع ، فامتلأت البلاد بالقبح الذميم لأنها امتلأت بصنوف الشر ، وقد أوضحنا لكم أن الشر هو القبح ، وأن الخير هو الجمال .

إنكم — فيما أرى — عشاق للجمال فى كثير من صوره ، تعشقونه فى جميلات النساء ، شأنكم فى ذلك شأن سائر الناس منذ كان على الأرض إنسان ، وتعشقونه فى الطعام الجيد ، فقد ظهر لنا فيما أسلفناه من تحليل أن الجودة فى الشىء هى جماله ، وإذاً فالطعام الجيد هو كذلك طعام جميل ، وقد حباكم الله فى هذه الناحية بحاسة حادة تميزون بها الجيد من الردىء ، أعنى الجميل من القبيح ، وتعشقون الجمال فى الجبال الشم المعشوشبة السفوح المثلوجة القمم ، وإلا لما تجشمتم هذا العناء المضنى كل صيف فى ارتياد سويسرا وغير

سو يسرا من بلاد الجبال ، وتعشقونه فى البحر وشواطئه ؛ وتعشقونه فى أثاث منازلكم وفى ملابسكم . . . وبقى يا سادتى شىء واحد لو عشقتم فيه جماله صلح الأمر كله من أوله إلى آخره — ذلك هو العدل .

كان العدل أقوى مثل وأضخم مثل ساقه لنا أفلاطون — صاحب فكرة اتحاد الخير والجمال — ليوضح به كيف يكون الاحتفاظ بالنسبة الصحيحة بين الأشياء جميلاً ، وما العدل عنده إلا هذا الاحتفاظ بالنسبة الصحيحة بين الأشياء ، فهلا أضفتم ياسادتى هذا الخير إلى سائر خيراتكم ، فتضيفوا بذلك جميلاً آخر إلى قائمة الجمال الذى تعبدونه فى كثير من صوره ؟

الظلم — أيها السادة — يملأ حولكم أركان البلاد ؛ الظلم بمعناه التميم ، وهو اضطراب النسبة بين الأشياء والأحياء ، و بالتالى يملأ القبح جنبات هذا الوادى المبارك الذى أراد له الله أن يكون جميلا ؛ إنه لاتناسب ياسادتى بين المناصب وشاغليها ، فصغير عندكم يملأ منصباً كبيراً ، وكبير يشغل صغيراً ، ولاتناسب بين المرتبات والعاملين ؛ فعامل منتج ضئيل الكسب ، وخامل لا ينتج عظيم الكسب ، يستمتع بما لم يرد له الله ولا طبائع الأشياء أن يستمتع به من طيبات .

العدل ، العدل ياسادتى الحكام ، فالعدل خير ، ولذلك فهو جميل . وأنتم من عشاق الجمال .

أبناء الظلام

ينقسم العصر فى تاريخ الأمة جيلان : جيل صاعد وجيل هابط ؛ أما الصاعدون فهم أولئك الذين مايزلوان من أعمارهم دون الأربعين أو نحوها ، لا تزال خطاهم ترق بهم — فى حساب الحياة — من درجة أسفل إلى درجة أعلى ؛ وماتزال أبصارهم أثناء السير شاخصة إلى قمة تحجب عنهم نهاية الطريق ، فيحسبون أن ليست للطريق نهاية ؛ كنت أتحدث إلى شاب فى الخامسة والعشرين ، جاءنى يستشير فى أمر مستقبله ، فقلت له إن الطريق الفلانية أضمن لك حين تبلغ الستين . فابتسم قائلا: إن هذه الستين لا تطوف لى ببال ، كأنما خلقت الشيخوخة لغيرى من الناس ، وكأنما يخيل إلى أنى سأعيش أبداً فى شباب يتجدد له إهاب كلما أبليت منه إهاباً .

قال لى ذلك ، فذكرت من فورى كيف كانت حالى أيام الصعود ، من عمل متصل فيه الجد والحرمان ، لا أبالى بنتائج عملى كيف تجىء ، أتكون كسباً أم و بالا ؛ فكنت أبذل من عافيتى وجهدى بذل المسرف المتلاف ، الذى ينفق الألوف بغير حساب ، مستنداً إلى رصيد لا يفنيه تبذير ، كنت أعمل الليل والنهار ثم النهار والليل ، حتى لقد سألنى أستاذ كبير كريم ذات يوم ، حين رأى ما أكتبه أكداساً تتلاحق حملا بعد

حمل ، على الرغم من عمل مضن لكسب العيش يطول ما طال النهار ، سألنى. من ذا يعاونك فى هذا كله من جماعة الجن ؟ . . . فوا أسفا ، كأنما كنت أصب الماء فى إناء مثقوب ، أو أبذر البذور فى حقل يثمر الحنظل ؛ لقد أكلت من عمرى سبعة وأربعين عاماً ، تركتنى كالأسطوانة الجوفاء ، فزرع ولا حصاد ، وحركة ولا سير ، وشيخوخة ولا نمو . . .

وأما الهابطون فهم أولئك الذين قد جاوزوا قمة الأربعين وأخذوا ينحدرون على السفح خطوة خطوة فى سير وئيد ، يرون النهاية بأعينهم هنالك فى أسفل ؛ لم تعد فى الطريق قمة تحجبها ، كانت الأبصار إبان الصعود شاخصة إلى السماء ، وهى الآن منحدرة إلى الأرض تتبين مواضع القدم ، إنه لم يعد فى الرصيد المخزون ما يحتمل إتلافاً وإسرافاً ، إن شمعة الضوء قد ذهب أكثر من نصفها ، فينبغى أن يحيطوا شعلتها بالحواجز الواقية حتى لا تتعرض للأنواء والعواصف ، ذهب زمان المخاطرة وجاء وقت الحذر ، لم يعد فى طريق الحياة غيب مجهول يستحق المقامرة والمغامرة ، فكل شىء قد وضح وانجلى عنه الدخان والقتام ، ستكون كيت وكيت بعد كذا وكذا من السنين إن طال بك أمد السنين . . .

والعادة — إذا كانت حياة الأمة قوية سليمة — أن يسلم الجيل الدابر مصابيحه إلى الجيل التالى عند قمة الجبل التى تفصل بين الصعود والهبوط. فتظل المشاعل الهادية عند القمة العالية يتسلمها جيل بعد جيل ؛ فتزيدها

الأجيال المتعاقبة وهجاً ونوراً ؛ وبهذا وحده يصعد الصاعدون على ضوء فلا تزل لهم قدم فى شعاب المرتقى ، ويهبط الهابطون وقد خلفوا وراءهم مشاعل الطريق ، تطرح أمامهم الظلال التى تزداد طولا كلما أمعنوا فى الهبوط ، فيزدادون بطول ظلالهم ثقة واطمئناناً بما صنعوا لمن جاء بعدهم فى مراحل الطريق .

وإنى لأستثنى حياتنا السياسية وحدها ، وأسأل بعد ذلك : هل حمل جيلنا الدابر فى أيديه المشاعل ليهتدى بضوئها الجيل الصاعد ، أم أن أبناء هذا الجيل الصاعد يشرئبون بأعناقهم عبثاً ، ويشخصون بأبصارهم سدى فلا يجدون أمامهم إلا ظلاماً يتخبطون فيه على غير هدى ؟ — بعبارة أخرى : هل رسم الجيل الدابر لخلفه المثل العليا التى يترسمها فى شتى جوانب حياته ؟ وقد استثنيت الحياة السياسية ، لا لأنى راض عنها كل الرضا ، بل لأن رجال السياسة — إلى جانب نقائصهم الفادحة وعيوبهم البشعة — قد رسموا المثل الذى نترسمه : وهو أن نعمل فى سبيل تحرير أنفسنا من الغاصب ، وها نحن أولاء ماضون فيما دعونا إليه ، وكأنما ينظر شبابنا فلا يرون أمامهم أفكاراً تنتظر التحقيق ، إلا الأفكار التى يدعوهم الساسة إليها ، فينصرفون بكل جهدهم نحو هذه الغاية وحدها ، ولا عجب ، فلم يقم غير رجال السياسة بوضع غايات أخرى أمام الشباب إلى جانب تلك الغاية ؛ فيستحيل أن يقع اللوم كله على الشباب ، إذا رأيناهم قد

ذابوا فى مجرى الحياة السياسية ذوباناً يختل معه توازن الحياة .

* * *

إننى رجل قد أصيب فى عقله بمرض اسمه « تحديد المعانى » ؛ فماذا يراد بعبارة « المثل الأعلى » ؟ لأنه من الخير — قبل المضى فى حديثنا — أن نعلم فى أى شىء يقوم الحديث .

المثل الأعلى فكرة يؤمن بها صاحبها وتشتد به الرغبة فى تحقيقها ، لكنها رغبة تختلف عن رغبته فى تحقيق راحته الشخصية ومتعته ؛ فقد تكون لدىّ فكرة أن يكون لى منزل أملكه فى نهاية مراحل عمرى لأتخذ منه مأواى المادىء عندئذ ، وقد تشتد بى الرغبة فى تحقيق هذه الفكرة ، لكنها مع ذلك لا تكون « مثلا أعلى » ؛ وقد تكون لدىّ فكرة أن أبلغ منصب الوزارة ، وقد تشتد بى الرغبة فى تحقيق هذه الفكرة ، لكنها أيضاً لا تكون « مثلا أعلى » — لماذا ؟ لأن المثل العليا أفكار نؤمن بها ونرغب فى تحقيقها ، ثم يشترط فيها إلى جانب ذلك ألاّ تكون قاصرة على العنصر الشخصى ، بحيث تصلح أن تكون موضع اشتهاء أبناء المجتمع جميعاً ؛ « فالمثل الأعلى » فكرة مرغوب فى تحقيقها ، لكنها لا تتصل بذات الراغب اتصالا يحصرها فى مصلحة تلك الذات وحدها ، بل تصلح إلى جانب ذلك أن تكون هدفاً للجميع على السواء .

فإذا رغبت فى أن يكون لدى ما يكفينى من الطعام ، فليس ذلك

« مثلا أعلى » أما إذا رغبت فى أن يكون لدى كل إنسان ما يكفيه من الطعام ، ثم عملت على تحقيق تلك الرغبة بأية وسيلة مؤدية ، كان ذلك « مثلا أعلى » ؛ وإذا رغبت فى أن يعاملنى الناس بالحسنى ، لم يكن ذلك « مثلا أعلى » ، وإنما يكون كذلك لو رغبت فى أن يعامل الناس جميعاً بعضهم بعضاً بالحسنى ، ثم عملت على تحقيق هذه الرغبة ؛ وإذا رغبت فى أن أكون عالماً يتقصى فى الطبيعة حقائقها ، فليس ذلك « بالمثل الأعلى » وإنما يكون كذلك لو رغبت فى أن يكون العلم هو الأساس السائد فى حياة الناس بحثاً وكشفا ، أو عملا وتطبيقاً ؛ وإذا رغبت فى أن أستمتع بنحو معين من ألوان الفن ، كائن ما كان ، عمارة أو نحتاً أو تصويراً أو موسيقى أو ضرباً من ضروب الكلام ، فليس ذلك وحده « بالمثل الأعلى » ، ولا يكون كذلك إلا إذا تمنيت لهذا اللون المعين من الجمال أن يشيع تذوقه بين الناس أجمعين .

ولا بد لى أن ألاحظ هنا ، أن الأمر كله قائم على « الرغبة الشخصية » فى نهاية الأمر ، لكن هذه الرغبة الشخصية لا تكون مثلا أعلى إلا إذا جاوزت حدود صاحبها بحيث تمناها صاحبها للناس جميعاً ، ومن ثم تختلف « المثل العليا » فى العصور المختلفة ، لاختلاف أهل تلك العصور فى رغباتهم التى يسعون إلى تحقيقها تحقيقاً شاملا ، فيصح أن نقول عن عصرنا هذا إن الحرية الفردية من بين مثله العليا لأن هناك من أبنائه

من أرادوا لأنفسهم هذه الحرية الفردية ثم أرادوها للناس أجمعين ، لـكن هذه الحرية الفردية لم تـكن هى المثل الأعلى فى كثير جداً من العصور السابقة ، حين كانت عضوية الفرد فى جماعة ، وانطماسه فى أسرته أو فى قبيلته ، هى المثل الأعلى المنشود — ولعل هذا المثل الأعلى الذى ينشد الحرية الفردية ، هو نفسه الذى انبثق منه مثل أعلى آخر لعصرنا ، وهو أن تنمحى الحواجز التى تفصل بين الأمم ، لتعيش الدنيا كلها مجتمعاً واحداً ، لأن الفرد لا يتحرر حقاً باعتباره فرداً قائماً بذاته ، إلا إذا أزيلت عن عاتقه الروابط المـكانية التى تجعله تابعاً بالضرورة لهذا الوطن أو ذاك .

ثم تتغير المثل العليا من عصر إلى عصر ، فجمهورية أفلاطون كانت صورة للمثل الأعلى كما أراده للناس فى حياتهم الاجتماعية . وفى رأيى أنه يستحيل على كاتب معاصر أن يتمنى للناس مثل هذا النظام ، الذى لا يعنيهم إلا بالانتصار فى الحروب الخارجية ، وبتوفير الطعام فى الداخل ؛ إنه مجتمع يخلو من البحث العلمى ومن الفنون ، فأين هذا المفـكر اليوم الذى يرسم لنا مثلا أعلى لتحقيقه ، فيرسم لنا حياة لا علم فيها ولا فن ؟ الحقيقة أن هذه الجمهورية الأفلاطونية قد أزاغت الأبصار عن حقيقتها قرونا طويلة ، وحسبوها نموذجا لزمانها وغير زمانها ، ولو أمدنى الله بقوة أحقق بها مشروعات كثيرة أتمنى أداءها ، فسيكون من بينها تحليل هذه الجمهورية تحليلاً يبين مواضع النقص فيها باعتبارها مثلا أعلى يصلح لزماننا ، كما يقع فى وهم كثير

جداً من شبابنا الذين يتاح لهم أن يلموا بطرف منها — لـكن ذلك لا ينفى إمكان صلاحيتها مثلا أعلى لزمانها .

* * *

ولنا فى ضوء هذا التحليل أن نسأل : هل طافت برءوس الجيل الدابر أفـكار ، اشتدت بهم الرغبة فى تحقيقها ، بحيث تصلح كذلك أن تـكون موضع الرغبة عند الناس جميعاً ؟

هل بينهم مثلا من أخذ ينادى بفـكرة فى النظام الاقتصادى على نحو مفصل بحيث تحمس لها وراح ينشرها بكل وسيلة ممـكنة ؟ فإذا شخص الجيل الصاعد بأبصاره ليهتدى فى هذه الناحية من حياته ، أفتراه واجداً عند الجيل السابق ما يهتدى به ، بحيث يتحمس بدوره لهذا المذهب الاقتصادى أو ذاك تحمساً بصيراً مستنيراً ؟

هل بينهم من جعل ينادى بطريقة معينة فى المعيشة الفردية ، يحياها هو أولاً ، وينشرها بكل وسيلة ممكنة حتى يجد الجيل المقبل نماذج يتخير منها ما يشتهى ؟ إن غاندى بطريقة عيشه كان ينشر « مثلا أعلى » لأنه تمنى لنفسه وللناس . و « سارتر » برأيه فى الوجودية ينشر « مثلاً أعلى » لأنه كذلك يتمنى لنفسه وللناس ؛ وقد تعمدت أن أضرب هذا المثل الأخير ، لأنى أعلم أن كثيرين ممن يسيئون فهم وجودية سارتر ، سيقولون : أين « العلو » فى هذا المثل ؟ فأجيبهم بأن أية فـكرة كائنة

ما كانت ، تصلح أن تكون « مثلاً أعلى » ما دام صاحبها « يعيشها » ويحاول أن يشرك معه الناس فيها — والفرض هو بالطبع ألا يتمنى الإنسان لنفسه إلا ما يراه مؤدياً إلى الحياة السعيدة .

أين بيننا « المدارس » الفكرية على النحو الذى نراه فى الأمم الحية ؟ ضع أمامك قائمة بعشرة من أئمة الفكر فى جيلنا الدابر ، وحاول أن تصنفهم شيعاً مختلفة من فلسفات أو مذاهب فى طرائق العيش ، فلن تستطيع ؛ ذلك لأن تفكيرهم لم يقم على أساس المذهبية التى تصدر عن عقيدة وإيمان ، وبالتالى لم يكن لديهم « مثل عليا » بالمعنى الذى حددناه .

إننا أمة بغير مثل عليا ، إن قادة الجيل الماضى — من غير رجال السياسة — لم يحملوا لمن يجىء بعدهم المشاعل ، فجاء هؤلاء وهم يتخبطون فى الظلام .

عالم قلق

ترى هل شهد التاريخ كله فترة اشتد فيها القلق كما يشتد فى هذه الفترة التى يجتازها العالم اليوم ؟ لست أدرى ، فليس يعيش الآن على وجه الأرض إنسان واحد قرير العين مطمئن النفس هادىء البال .

إنها فترة كفاح وجهاد وحرب وقتال ؛ فالشعوب المغلوبة تحاول أن تقف على أقدامها ، والشعوب الغالبة تريد الثبات فى مواقفها ، والدول القوية بعضها مع بعض تصطرع ابتغاء السلطان والسيادة . . . والغالب والمغلوب والسيد والمسود جميعاً قد ضاقت نفوسهم ، واكفهرت الدنيا من حولهم ، فاشتدت بهم الرغبة فى شىء يؤمنون به — أىّ شىء كائن ما كان ، لذلك كثرت بيننا المذاهب الفكرية ، والمعتقدات السياسية ، كثرة لا تحسب أن قد سبق لها نظير فى عصور التاريخ الماضية .

فقد يحس الفرد منا إزاء ماشمل العالم من قلق واضطراب انه لاينبغى له أن يجلس أمام مسرح الحوادث رائياً سامعاً لا يعمل شيئاً ، وأن نفسه لا تستريح وضميره لن يرضى إلا إذا قام بنصيب — مهما يكن ضئيلا — فى إعادة البناء المنهار ، لكنه إذا ماهمّ بالعمل أدرك من فوره أنه لا بد له من جماعة ينضم إليها ، لأن مجهود الفرد الواحد هباءة لا تغنى ولا تسمن ،

ولا يبعد أن يقع على أقرب جماعة منه دون أن يفكر طويلاً فى هل تعمل هذه الجماعة التى ينضم إليها فى سبيل ما ينشده هو لنفسه ولسائر الناس ، أم أنها تعمل فى طريق يعكس له أهدافه المنشودة . . . لكنه قلق يريد أن يعمل شيئاً وحسبه ذلك ، لأن النار قد أوشكت أن تأتى على الحياة كلها ، أخضرها ويابسها على السواء ، فكثرت الأحزاب والهيئات والجماعات فى أنحاء العالم ، كثرة — كما أسلفت — منقطعة النظير .

إن النفوس القلقة تدفع أصحابها إلى العمل ، تدفعهم إلى العمل السريع ، فتراهم يغذون السير ويحثون الخطى ، لأن السير المتمهل لا يكفى ، والخطو البطىء مضيعة للفرص ، ولذلك امتلأت أركان الدنيا بالنظريات المتطرفة والمشروعات الجريئة ، والانقلابات السريعة ... قل ذلك فى الأمم وفى الأفراد على السواء ، إن الربح البطىء المطرد الثابت لم يعد يرضى النفوس المتعطشة العَجْلى . انظر إلى عالم التجارة والأعمال تجد ألوفاً من الناس ينزلقون على السفوح المثلوجة انزلاقاً سريعاً ، إنهم لا يقنعون بالخطوات الوئيدة على الأرض الصلبة الثابتة ، فالحياة قصيرة المدى والجو مكهرب من حولهم ، ففيم الوقوف والتمهل والانتظار ؟ إن السلامة لم تعد فى التأنى ، فإلى الغاية المنشودة انزلاقاً ، ولئن سقط فى المضمار رجل فإلى جانبه ألف رجل بالغون المدى .

إن العالم اليوم فى لهفة عجيبة يكتنفه الظلام ، فينشد الضوء مهما يكن مصدره ، فلكل صائح أتباع أيًا ما كانت صيحته ، ولكل داع مستجيبون مهما تكن دعوته ، لقد تقسمت الدعوات الكثيرة سكان الأرض بصفة عامة ، وأهل أوربا المعاصرة لنا اليوم بصفة خاصة ، فيها الآن مائة مذهب ومذهب ، هذا داع يدعو إلى الرجوع إلى حظيرة الدين فيستمع إلى دعوته فريق ، وذلك داع يدعو إلى طرح الإيمان الساذج والاستمساك بالعقل وحده فيستمع إليه فريق آخر ، وذلك ثالث يهيب بالناس أن عودوا إلى غرائزكم فأشبعوها ، لأن الحياة الطبيعية هى أسلم الحياة ، فيستجيب له فريق ثالث ، ثم هذه ديمقراطية وتلك اشتراكية ، وهذه شيوعية وتلك دكتاتورية عسكرية ، وهلم جراً . . . ذلك كله لأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بما هم فيه ، ويريدون التغيير — أى تغيير .

وكان مما زاد مرارة طعم الحياة فى أفواه الناس ، أنهم فتحوا أعينهم على الواقع ، بعد أن كانت أعينهم مغمضة لسبب أو لآخر ، أقول لسبب أو لآخر ، لأن السبب لم يكن واحداً بالنسبة للناس أجمعين ، إذ كان العالم حتى عهد قريب ينقسم قسمين رئيسيين ، فإما أغنياء قد طفحت بيوتهم بأسباب النعمة والرخاء ، وإما فقراء يكدحون فى سبيل لقمة العيش وخرقة الثياب ، فأما الأغنياء فقد ألهاهم التكاثر وأعماهم الغنى ، فلم يروا من

الحياة إلاّ مطاعم تفوح وصالونات تتألق ، وأما الفقراء فقد أشقاهم الكدح المتصل عن التفكير فى أنفسهم أو فى غير أنفسهم ، فالدنيا كلها فى أعينهم فأس تضرب الأرض بياض النهار ، وكوخ معتم سواد الليل ؛ ومن ثم استقرت الحياة بهؤلاء وأولئك ، وبدا عليهم الرضى ؛ أما اليوم ، فمعظم الناس — فى أغلب أنحاء الدنيا — طبقة متوسطة ، ليس لديها الثراء الذى يُلهى ويُعمى ، ولا الفقر الذى يهلك ويحطم ، فوقفوا بين بين ، يسملون ساعة وينظرون إلى ما حولهم ساعة ، فتفتحت عيونهم على الواقع كما هو ، فإذا الواقع علقم وحنظل ، وإذا الضرورة الملحّة تقضى بتغيير ذلك الواقع المرير فى أسرع وقت مستطاع . . . فنشأت بذلك عند الناس لهفة نحو انقلاب الأوضاع ، ومن ثم كثرت الأحزاب والجماعات وتنوعت الآراء والمذاهب .

ألا تسمعهم يصفون لك هذا العصر بأنه عصر السرعة ؟ إنها ليست سرعة القطارات والطائرات وكفى ، بل هى السرعة التى انتابت النفوس فى لهفتها على تغيير حالها ، ولذلك تراه عصراً يتميز بكثرة المعايير الخلقية والجمالية ، إنه لا يستقر على معيار واحد يرضى الناس جميعاً ، لأنه عصر قلق وتغيير ، فهذا يأخذ بمعيار جديد ، وذلك يظل مستمسكا بمعيار قديم ، وثالث يأخذ بالقديم تارة وبالجديد طوراً ، وكلهم مخلص فيما يأخذ به ،

فهم جميعاً متفقون على شيء واحد ، هو ضرورة تغيير الأوضاع الراهنة لأنها لا ترضى أحداً .

إننا نعيش فى عالم قَلِقٍ ، يفزع أهله أن تضيع من وقتهم لحظة سُدى ، لأنهم مسرعون ، متلهفون ، يغذون السير ويحثون الخطى ؛ وكان حتماً أن يساير التفكير هذه السرعة ويماشيها ، فلم يعد الوقت يتسع عند الكثيرين لقصة طويلة يكتبها لهم أديب هادىء الفكر طويل البال ، لأن الأمر لم يعد تسلية ولهواً ، بل هو جدٌّ وعزم وصرامة ؛ وإذاً فأجدى على أصحاب الفكر أن يتجهوا بفكرهم نحو شيء آخر غير الأدب الذى خلق للفراغ والمتعة . فإن كان حتماً أن يكتب لنا أديب ، فلتكن كتابته أقصوصة قصيرة للترام أو القطار ، فإن أطال فليتجه بإنتاجه نحو السينما ، لنرى قصته ساعة استرخاء ، بأقل مجهود ممكن . . . لكن الله قد أراد لنفر من الناس أن يكونوا أدباء على رغم هذا الصراخ كله وهذه العجلة كلها ، فماذا عساهم يكتبون ليرضوا أنفسهم ؟ إن العالم من حولهم قلق مضطرب فوار ، فإما أن يندفعوا فى تيار الحوادث الدافق ، فيكونوا من رجال الصحافة لا من رجال الأدب بمعناه الصحيح ، وإما أن يلتمسوا مرحلة أخرى من مراحل حياتهم ، كانت أنعم روحاً وأهدأ محيطاً ؛ فلا عجب — إذاً — أن نسمع أن كثيرين من أدباء أوربا اليوم قد

انصرفوا نحو ماضيهم يؤرخونه ويسجلونه ، لأنهم يجدون فى ذلك الماضى حياة مستقرة هادئة بعض الشىء ، تصلح للتصوير الذى يرضى عشاق الجمال .

عالم قلق هذا الذى نعيش فيه ، ينهار فيه بناء ليقوم مكانه بناء ، ويندك فيه نظام ليحل محله نظام ، والدعوات فيه متلاحقة متتابعة ، لا تكاد الدعوة منها تبلغ الأسماع حتى تنسخها دعوة . . . هل رأيت حركة الهدم والبناء من حولك فى بلد كالقاهرة — مثلاً ؟ فقد تغيب شهرين عن حى من أحيائها ثم تعود لتجد عمارة شامخة أقيمت ، أو لتجد بناء مألوفاً لك قد أبيد ؛ ففى كل حى ، بل فى كل شارع ، بل فى كل ركن هدم وبناء ؛ والسمة التى تسم الحركة كلها هى السرعة اللاهثة ، و « المرجلة » التى لا تعبأ بشىء من ترتيب أو تنسيق . . وهكذا العالم كله الذى نعيش فيه اليوم ، ففيه الهدم والبناء ، ثم الهدم وإعادة البناء ، يتلاحقان فى مثل هذه السرعة اللاهثة المحمومة ، وهذه « المرجلة » التى لا تجد الفراغ للروية والتأنى لعلها توفق إلى شىء من ترتيب يدوم أو تنسيق يرضى .

لكن هذا العصر القلق الثائر الفائر المتغير المتحول ، هو عصرنا الذى خلقنا له لنعيش فيه ، فلنضرب على نفس الأوتار التى يضرب عليها

سائر السازفين ، لتأخذنا حمى القلق التى أخذت بسائر أنحاء العالم المتحضر ، ولتهتز أعصابنا بما اهتزت به أعصابه من دعوات ومذاهب ، وأفكار ونظم ، إن كان عالماً مدججاً بسلاحه فلنأخذ فى التسلح ، أو كان عالماً جشعاً فَلْنَدْعُ الناس إلى النهم الذى لا يشبع . . .

حرام يا أصحاب الأقلام أن تهدهدوا الناس بأناشيد المخَادِع التى تجلب النعاس ، بل أوقدوها تحت الجنوب جمرات حتى تستيقظ العيون وتأرق القلوب ، فى هذا العصر القلق المضطرب اليقظان .

نفوس فقيرة

الفقر صُوَرَه شتى . . .

فنها اليباب القفر الذى تلتهب رماله بوقدة الشمس ، حتى لتنقلب حبات الرمل على سطحه جمرات من نار ، وتهب عليه الريح السموم فإذا هى ألسنة من اللهب تنفثها جهنم ؛ هذا اليباب إذا ما شاء له القدر يوماً أن يصيبه شيء من المطر ، غاص المطر فى جوفه وغاب كأن لم يكن ؛ فهو قفر كما كان ، لا زرع فيه ولا ضرع ، إلا أشواكا تنشب على وجهه هنا وهناك فتزيده فقراً على فقره .

ومنها الصخر الأجرد الذى صَلُدَ صدره وتصلبت أطرافه ، فلا يتفجر جوفه عن قطرة أو نبتة ؛ إذا سال عليه الماء انحسر عنه لأنه مغلق أصم عبوس مخيف ؛ فلا هو يخرج من جوفه شيئاً ، ولا هو يفتح مغاليقه ليتقبل مما حوله شيئاً ؛ لا أمل فيه لمسافر ولا رجاء عنده لضال .

ومنها السماء لا تجود بالغيث ، تيبس الأرض من تحتها وتتشقق ، ويجف الزرع و يموت ، وتشخص الأبصار إليها ضارعة ، وتصعد الدعوات إليها مسترحمة ، لكنها كالحة مصفرة الوجه لا تجود .

ومنها الوردة تذبل وتذوى ، طار عنها الشذى وجف من عرقها الماء ،

تفركها بين إصبعيك فإذا هي رماد تذروه الريح مع التراب والعفر ؛ ومنها الجدول غيض ماؤه ، تعبره ماشياً على قدميك ، فترن أصداء خطاك بين صخوره لخلائه وفراغه .

ومنها الجيوب تخلو من المال ، فيمضي صاحبها بين أكداس الطعام في الدكاكين وهو جائع ، لأنه لا يملك أن يستجيب للمعدة تناديه ولبائع الطعام يغريه .

لكن لا اليباب القفر الذي تلتهب رماله بوقدة الشمس ، ولا الصخر الأجرد الذي صلد صدره وتصلبت أطرافه ، ولا السماء اليابسة ولا الوردة الذابلة ولا الجدول غيض ماؤه ولا الجيوب الخالية من المال ، يستطيعة أن تعبر عن الفقر بأبلغ مما تعبر عنه النفوس الفقيرة !

فقيرة هي تلك النفوس التي يعيش أصحابها فيما نعيش فيه ولا تتأثر كأنما تنظر العين ولا ترى ، وتسمع الأذن ولا تعي ، وكأنما قُدَّ القلب من صوّان ، فتجري في شعابه « مجاري » الدماء ، لا تترك وراءها ثمراً ولا أثراً ، كالماء يهبط على رمال اليباب البلقع فيغيض فيه بغير زرع ، أو يسيل على الصخر الأصلع فينحسر عنه ولا حياة ! إن القلب الفقير عضلة تصلح لمبضع التشريح ولا تصلح لريشة الشاعر ؛ وصاحب النفس الفقيرة كالمذياع التالف ، فيه المفاتيح والصمامات والأسلاك ، لكن الهواء من حوله يعج بموجات الصوت وهو أبكم ، لا يلتقط ولا يذيع .

فقيرة هى النفس التى تنظر إلى باطنها فتجد خواء ، فتمتد إلى خارجها لتقتنى ما يسد لها ذلك الخواء ؛ وماذا تقتنى ؟ تتصيد أناساً آخرين ذوى نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها ! إنها علامة لا تخطىء فى تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم ، فحيثما وجدت طاغية — صغيراً كان أو كبيراً — فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه ؛ إن المكتفى بنفسه لا يطغى ؛ إن من يشعر فى نفسه بثقة واطمئنان ليس فى حاجة إلى دعامة من سواه ؛ و إذاً فماذا أقول ؟ أأقول إن الطغيان قد امتد بجذوره فى ربوع الشرق لجدب نفوس أهله ؟ .

أى والله ، لقد ضرب الطغيان بجذوره فى ربوع الشرق منذ آماد بعيـدة سحيقة ، حتى أصبحت لفظتا الشرق والطغيان مترادفتين أو كالمترادفتين ، فهما تصادفانك متجاورتين متلاصقتين فى كثير من الآداب الأوربية ؛ لا ! إنى أرى الكلمة على شفتيك فلا تقلها ! لا تقل دهشاً : أى طغيان ؟ لا تقل إن لنا دستوراً يجعل الناس سواسية ويحرم الطغيان ، فالطغيان فى دمائنا : الحاكم الشرقى طاغية ، والرئيس الشرقى طاغية ، والوالد الشرقى طاغية ، والزوج الشرقى طاغية ، والموسر الشرقى طاغية — طغاة هؤلاء جميعاً ، لأن فى نفوسهم هزالاً يعوضونه بمظاهر الاستبداد بسواهم . . . قال أمامى وزير مصرى لست فى حل من ذكر اسمه ، قال ذات يوم وكنا فى لندن ، وكان مؤتمر سياسى منعقداً هناك ،

وجاء مستر بيفن — وزير خارجية انجلترا إذ ذاك — جاء إلى المؤتمر السياسي يمثل بلاده ، مشياً على قدميه ، وليس وراءه ولا أمامه « زفة » تطبل وتزمر ؛ فقال الوزير المصرى على مسمع منى : كنت أتصور فى الديمقراطية الإنجليزية شيئاً كثيراً ، ولكنى لم أكن مع ذلك أتصور أن يبلغ بها المدى هذا الحد البعيد ، أوزير خارجيتها يجىء إلى مؤتمر كهذا وسط الزحام راجلا ؟ فكدت عندئذ أصيح فى وجه الوزير المصرى قائلاً : أستحلفك الأهل والولد يا معالى الوزير أن تذكر ذلك عند عودتك إلى بلادنا ، أن تذكر لأصحاب المعالى الوزراء ، حتى يتذكروا شيئاً منه وهم راحلون إلى حمامات الاستشفاء للمتعة والتنزه ، وحتى يتذكروا شيئاً منه وهم عائدون من شطئان البحر وجنات الأرض إلى بلادهم ليستأنفوا « العمل » .

العظمة فى الشرق معناها الطغيان ، والطغيان من معانيه كسر القوانين ، فيستحيل أن يكون العظيم عظيماً عندنا إن أطاع القانون ، حتى لو كان هذا القانون من وضعه هو ، لأن العبث بالقيود هى عندنا الحد الفاصل بين السيد والمسود ؛ فقل لى إلى أى حد تستطيع فى الشرق أن تعبث بالقانون والنظام ، أقل لك فى أى مرتبة أنت من مراتب المجتمع ، فأعلاها منزلة أكثرها عبثاً ، وأدناها أقلها .

وأمل هذه الفكرة قد بلغت أقصاها تطرفاً ، حين أرادوا أن يتصوروا

كال الله ومطلق سلطانه وسيادته ، فتصوروه فاعلاً للمعجزات ، والمعجزة هى إيقاف قانون من قوانين الطبيعة وتعطيله ؛ فلما كان الله أكمل ما يكون الكائن جبروتاً وسلطاناً ، فلا بد أن يكون أقدر ما يكون الكائن على تعطيل القوانين الطبيعية كيف شاء وحيث شاء ؛ أما أن يكون كال الله — كما تصوره سبينوزا — هو أن تظل قوانين الكون قائمة مطردة ، فذلك تصور بعيد جداً عن تصورهم لمعنى العظمة والجلال .

فقيرة هى النفس التى لا تستطيع أن تقف موقف سواها ، لترى ما ترى وتحس كما تحس ؛ وهيهات عندنا أن تجد صاحب النفس الغنية بخيالها الخصبة بشعورها ، ذلك الذى فى مقدوره أن يحس الألم مع من يحسه ، وينظر إلى الناس فى ظروفهم ؛ هل رأيت الأطفال فى القرى كيف يجرُّون الجراء مشدودة من أعناقها بالحبال ، وكيف يمسكون الهررة من أذنابها ثم يجذبونها جذباً ويديرونها فى قسوة وعنف ، والجراء تئن والهررة تموء مواء المتألم المستغيث ، والأطفال يضحكون لأنين الجراء ومواء الهررة ، والآباء والأمهات يقهقهون لضحكات أطفالهم ؟ إذاً فاعلم يا سيدى أن هذه هى المدرسة التى نتلقى فيها أول دروسنا فى التعاطف والمشاركة الوجدانية بعضنا مع بعض ؛ اعلم يا سيدى حق العلم أن قصة الجراء والهررة المسكينة تتكرر حولك مائة مرة فى اليوم الواحد ؛ لكنها ليست هذه المرة بين الأطفال من ناحية والجراء والهررة من ناحية أخرى ،

فيشد الأطفال الجراء من أعناقها ويجذبون الهررة من أذنابها ، بل هى الآن بين أصحاب النفوذ — أياً كان نوع النفوذ — وبين العاجزين وأرزاقهم ! !

إننا يا سيدى أمة تحيا وفق الحكمة التى استنها لها شاعر من شعرائها الأقدمين ، وهى « إنما العاجز من لا يستبد » ؛ بل إن الشاعر لم يخلق من عنده شيئاً ، إنما لاحظ أخلاقنا وسجل ؛ فكم ألف سنة لا بد أن تمضى قبل أن يجىء شاعر آخر يلاحظ أخلاقنا ويسجل ، فإذا ما يسجله هو : « إنما القادر من لا يستبد » ؟ .

كم ألف عام لا بد أن تمضى قبل أن يجد الطفل فى القرية أبوين يربيانه على أنه لا ينبغى أن يعبث بآلام الكلاب والقطط ؟ لو بدأنا هذه البداية ، جاز لنا أن ننتهى إلى أن يعطف الإنسان منا على الإنسان .

لقد تفضل أستاذنا الدكتور أحمد أمين بك فوجه إلىّ الحديث قائلاً : « إن كل مدنية فيها مزاياها وفيها عيوبها ، ومزية المدنية الغربية بناء الحياة على العلم ، ومن عيوبها خلوها من الإنسانية » .. أحقاً يا سيدى أن المدنية الغربية قد خلت من الإنسانية ، تلك المدنية التى لا يستطيع الإنسان فى ظلها أن يفرك زهرة بين أصابعه على مرأى من الناس ، ولا أن ينزع البذور عن أمها لأنها بمثابة الأجنّة التى تضمن استمرار الحياة ؟

تلك المدنية التى يستحيل على إنسان فى ظلها أن يوقع الأذى بقط أو كلب ، حتى لقد أصبح ذلك « الضعف » فيهم مصدر كثير من تندرنا وفكاهتنا ؟

سيقول القائل : لكنهم أقوام ترعى القطط والكلاب والإوز وتبطش بالأمم . فأقول رداً على ذلك : إن الفعل الأول صواب والفعل الثانى خطأ ، ولاتذهب السيئة بالحسنة ، وقد شاركناهم فى البطش السياسى ، ولم نشاركهم فى العطف على الأحياء .

هل كان يمكن ياسيدى لهذا الغرب أن ينتج ما أنتجه من فنون وآداب لو كان خلواً من الشعور الإنسانى ؟ كم عالماً وكم عاملاً وكم معملاً فى ربوع الغرب تقوم النهار والليل ، لتخرج لنا ما نخفف به البلاء عن مرضانا ؟ أنصف الشرب ياسيدى ، فهو نفسه الغرب قد تركز فى قنينة الدواء التى نبعث إلى الصيدلى فى لهفة أن يسعفنا بها دفعاً للألم .

فقيرة هى تلك النفوس التى لا يستطيع أصحابها أن ينظروا من وراء الأشخاص إلى حيث ظروفهم ، ولو قد فعلوا لاشتد بهم التسامح وشاع فيهم العفو والمغفرة ؛ إنك — كما يقول الشاعر الانجليزى — لو عرفت كل شىء عفوت عن كل شىء ؛ وهو يعنى بذلك أنك لو ألممت بكل الظروف التى تحيط بمن تعدّه آثماً ، أدركت موقفه على حقيقته بما فيه من مثيرات ودوافع ، وعندئذ ستراك أميل إلى المغفرة والتسامح . والإثم

— كما يقول شاعر انجليزى أيضاً — من طبيعة البشر ، أما الغفران فمن صفات الله . لكن أنى لنا العين التى تنظر إلى الظروف خلال الشخص الماثل أمامنا بجسده ؟ أنى لنا العين التى تنظر إلى « ع » — مثلا — فترى وراءه داراً ملئت أركانها وجحورها بالأنفس البشرية المقعدة العاجزة ، كلها تريد منه الطعام والدواء ؟ إن « ع » موظف صغير ، قد يعبس حيناً وقد يبتسم حيناً ، فإذا ابتسم ابتسمنا معه ، وإذا عبس زجرناه على عبوسه ، لأننا خلو من النفوس العاطفة التى فى مقدورها أن تنظر إلى العابس القانط ، فتقول : لعل وراء ذلك ما يغفر .

قصيرة هى تلك النفوس التى تبطش بالأشياء والأحياء بطش الصبيان قصيرة — يا أبا العلاء — هى تلك النفوس التى لا تخفف الوطء ، لأنها لاتدرى أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد .

مصباح علاء الدين

ما أشقانى بهذه الذاكرة الضعيفة العاجزة التى توشك أن تبدّد لى كل ما قد وعيتُ وخبرتُ فى أعوامى السوالف ، فلا تُبقى لى من ذلك شيئاً ؛ وإنى لأعلم عن ذاكرتى هذا الضعف الشديد وهذا الإسراف فى تبديد الودائع ، حتى لترانى أتحوط لها بكل ما يشير به علماء النفس من وسائل ، فأشدد الروابط بين أجزاء الشىء المحفوظ ، وأضع تحته الخطوط ، وأوضحه فى هوامش الكتب برموز وعلامات وملخصات ؛ لكن هيهات للغربال أن يحفظ فى جوفه ماء . ترانى أقرأ الكتاب ، فلا تمضى أيام قليلة بعد الفراغ منه ، حتى يذهب عنى وتذهب كل آثاره ، فلا عنوانه هناك ولا اسم كاتبه ولا شىء من مكنونه ؛ فالرأس بعده خلاء خواء كما كان قبله ، فلا زيادة به إن لم يكن نقصان .

فكيف نرجو من مثل هذه الذاكرة المنكودة أن تستعيد ما أردتها أمس على استعادته مما قد قرأته منذ ثلاثين عاماً ؟ أردتها أمس على أن تعيد لى قصة علاء الدين ومصباحه ، وكنت قد قرأتها منذ ثلاثين عاماً ، حين أخذنا — وكنا ثلاثة أشخاص — أخذنا ذات صيف نقرأ ألف ليلة وليلة ، فكنا نجتمع كل يوم فى الصباح والعصر ، فى غرفة ريفية لم يكن يؤثثها غير الحصير على أرض تراب كانت فى منزل صديق لنا أيام الطفولة ،

لم يكن من حظه أن يختلف إلى معاهد التعليم ، لكنه يحب أن يسمع أنباء الصحف وأخبار الكتب يقرؤها له أصدقاؤه « التلاميذ » ، وكنت أنا القارىء لها فى أغلب الأحيان ، ولم أكن بعد قد تبينت كل ما بعينىّ من قِصرَ وضعف ، فكنت أضع الكتاب على الأرض وأنحنى على صفحاته أقرأ لها ، حاسباً أن ذلك الوضع هو أكثر الأوضاع راحة لجسدى ، والحقيقة أن عجز العينين عن النظر الطويل هو الذى أوحى به واستلزمه ؛ كنتُ أقرفص جسدى فى ذلك الوضع المتعب ، وأقرأ بصوت عال كأنما أردت أن أسمع سكان القرية جميعاً ، وقد لازمتنى عادة القراءة العالية دهراً طويلاً ، حتى لقد شكا كثيرون من الجيران إلى أبى هذه الضجة التى أحدثها فى أركان البناء هزيعاً طويلاً من الليل ، وفى كل ليلة ؛ ولعل الزمان لم يكن بعد قد هاضنى حتى دفعنى دفعاً إلى الانزواء والانطواء وخفوت الصوت وخفض البصر .

أردت أمس أن أستعيد ذاكرتى ما استودعتها إياه من قصة علاء الدين ومصباحه ، فلم أذكر أبداً من ذلك شيئاً ، سوى أن علاء الدين كان يمسح مصباحه ، لست أدرى كيف ، فإذا الجنّ خدم له يأتمرون به ، فينجزون له المستحيل ؛ يبنون له القصور فى لمح البصر ويمحونها فى لمح البصر ، ويأتون له بابنة السلطان حبيبة طائعة إذا أرادها ، ويطيرون به فى السماء أو يهبطون به فى فجاج الأرض ، وينشئون له المدن ويملأون له الكنوز

ذهباً ولؤلؤاً ؛ ينجزون له كل ذلك إذا ما أشار لهم إشارة خفيفة بيده أو لسانه .

والحق أنى قد أردت ذاكرتى على أن تعيد لى قصة علاء الدين ومصباحه السحرى ، للتسلية لا للجد ؛ لأنى لمحت فيه وفى قصته رمزاً لطيفاً لمن يظن أن الدنيا يتغير له وجهها بالرغبات تطوف بين جدران رأسه ؛ فحسبي أن أجلس هكذا على مقعدى وفى عقر دارى ، ثم أعبر بالكلام عن رغبتى هذه أو رغبتى تلك ، فإذا سحرة الأرض وعفاريت جوفها وجنّ سمائها كلهم خدم ينجزون لى ما اشتهيت وما تمنيت ؛ ماذا يضطرنى إلى الجهاد الشاق و إلى العمل العنيف إذا كانت لمسة خفيفة للمصباح السحرى تكفينى لتحقيق ما أشتهى وما أتمنى ؟ والمصباح السحرى قادر على الهدم كما هو قادر على البناء ، لأن رغبات الإنسان سالبة وموجبة معاً ، فالإنسان قد يرغب فى أن يَمّحى شىء يضايقه ، كما قد يرغب فى أن يُخلق له شىء يشتهيه ، قد يرغب الإنسان فى زوال نظام كما قد يرغب فى قيام آخر . . ولمثل هذا كله ينفع مصباح علاء الدين .

وأى عجب بعد ذلك فى أن تستهوينا قصته ونحن على عتبة الشباب : حيث الأحلام والآمال والشعر ؟ لئن كانت الرجولة الناضجة عملا منتجاً ، فالشباب الفج عاطفة جياشة ؛ الأمل لا يتحقق إلا بالعمل عند الرجل الناضج ، لكن تكفيه قصيدة من الشعر عند الشباب الغرير ؛

كم كانت لنـا ونحن على عتبة الشباب أمان وأحلام حققناها بمصباحك يا علاء الدين ، أو تذرعنا لتحقيقها بطاقية الإخفاء التي تيسّر كثيراً جداً من الصعاب والعقبات ؛ فسحقاً لهذا النضج العقلي الذي لم يعد يكفيه من ذلك شيء ، و بات محتوماً علينا بمقتضى أحكامه أن نجاهد جهاداً شاقاً ونعمل عملاً عنيفاً إذا ما أردنا للأماني أن تتحقق . . . فهكذا ينتقل الإنسان في مراحل حياته من شعر إلى نثر ومن أحلام حلوة إلى واقع مرير .

* * *

لـكنني إذ التمست من قصة علاء الدين ومصباحه تسلية ، قد وجدت فيها الجد ، لأنني ما كدت ألهو بجانب المزاح منها حتى تبين لي جانب آخر ؛ فلئن أشبع المصباح السحري خيال الشاب الحالم ، فهو كذلك كفيل أن يهدي الرجل الناضج العامل ؛ إن هذا المصباح العجيب رمز إلى إمكان التغيير لمن أراده ؛ ليس في الدنيا بأسرها ما يستحيل على الإرادة الإنسانية إذا صممت ومضى عزمها ، وكأنما قصد علاء الدين إلى إعلان ذلك بقصة مصباحه السحري ؛ إن الفساد ضارب في طول البلاد وعرضها ، لـكنه يزول لصاحب الإرادة الذي لا يرى محالا أن تتغير الحال .

ماذا عسانا أن نصنع وماذا عسانا أن ندع ؟ من أين نبدأ و إلى أين ننتهي ؟ الوحل يملأ الطريق في كل أرجائها فأين نلتمس سبيل النجاة ؟..

هذه وأمثالها أسئلة يلقيها السائلون المهتمون بإصلاح الفساد ، فيقف الناس إزاءها رجلين : رجل يلقى السلاح قنوطا ورجل يحمل العبء لأنه يؤمن بالمصباح السحرى وقدرته على محو الظلام مهما يكن حالكا .

والحديث ذو شجون . . . فقد ذكرتنى قصة علاء الدين ومصباحه بقصة صينية تقع منها موقع النقيض من نقيضه ، إذ يروى أن عالما فى الصين قد صنع عربة تطير فى الهواء كما تطير ذوات الجناح ، وتناقل الناس هذا النبأ العجيب حتى انتهى إلى مسامع الحاكم ، فأمر الحاكم أن يؤتى له بذلك الشيطان البشرى ولعبته ، فجاءه العالم يصطحب العربة الطائرة ، ولم يجد سبيلا إلى شرح أجزائها للحاكم ، لأن هذا لم يكن على كثير ولا قليل من العلم بالآلات وفعلها ، فطلب صاحب العربة الطائرة إلى الحاكم أن يصحبه فى رحلة جوية ليقطع شكه بيقين لا ريبة فيه ، وصعد الرجلان ، فما هى إلا أن طارت بهما العربة العجيبة مع الطير فى أجواز الفضاء ؛ وهذا هو السحاب قد بات دونهم بعد أن كان فوق رءوسهم ، ثم هبطا إلى الأرض ؛ أما العالم فملىء بالزهو والأمل ، وأما الحاكم فرتعش مرتجف من هول ما رأى ؛ الحق أنهما معجزة قد تحققت على يدى هذا الشيطان ، لكنه بعد أن هدأ قليلا التفت إلى صاحبنا العالم ، وقال له : هذا عجيب ! عجيب جداً تحار معه العقول ، لكنه يجاوز بغرابته حدود ما أطلبه لشعبى ! لا . إنى لا أريد لبلادى بدعة كهذه

مهما تكن براعتها وإعجازها لأنها ستكون للناس عاملا من عوامل القلق بحيث تضطرب أوضاعهم اضطراباً تتغير معه الأشياء والقيم ؛ لا ، لا . إنى أريد لنفسى ولشعبى راحة البـــال . . ثم أمر بالعربة الطائرة فتحطمت أوصالها وأجزاؤها ، وأمر ذلك الشيطان البشرى ألا يعود إلى مثل هذا فى غد قريب أو بعيد .

العربة الطائرة ومصباح علاء الدين رمزان يختلفان فيما يشيران إليه : القصة الأولى ترمز إلى الجمود والرغبة فى ألا يتغير من أمر الناس شىء ، والقصة الثانية تشير إلى الإنشاء السريع والمحو السريع ، وترمز إلى إمكان التجديد والتغيير — وكل ماندخله على قصة مصباح علاء الدين من تحوير وتعديل حتى تناسب الرجولة الناضجة العاملة ، بعد أن كانت خيالا يلهو به الشباب الحالم ، هو أن نجعل ذلك المصباح داخل نفوسنا لا خارجها ، فنجعله فى الإرادة الفعالة الماضية ، والعزم المصمم الذى لاينثنى .

إن للإرادة القوية لسحراً ، هو بذاته ما نسبه علاء الدين إلى مصباحه ، لأنها تستطيع أن تغير كل شىء بمثل ماغير علاء الدين بمصباحه كل شىء .

لقد روى عن شاعر إيطالى بعد الحرب الكبرى الأولى أنه قال :

مات الماضى ، قتلناه بأسنة الحراب * وهذا هو الحاضر فلنفتك به فتكا

حتى نقيم للمستقبل قوائم عرش مجيد

فياليت ما قاله الشاعر الإيطالى يتردد فى أرضنا على كل لسان .

مقومات الحياة

كان برناردشو فى زيارة جارٍ له عندما جاءه نبأ اغتيال غاندى ، فقال — وقد تأثر للنبأ — « لقد قلتها مراراً ، إن الرجل الطيب دائماً فى خطر ».

وأذكر أنى لما قرأت ذلك فى حينه ، جعلت أفكر لنفسى : من ذا يكون الرجل الطيب الذى تجىء طيبته خطراً عليه ؟ وأذكر كذلك أنى لم أجد سبيل الجواب عن هذا السؤال مُيسَّرا ، لأننى كلما قلّبت فى رأسى هذه الصفة أو تلك ، مما عساه أن يحدد لى معنى هذه « الطيبة » المشئومة الخطرة على صاحبها ، وجدتها هى بذاتها صفة مطلوبة محمودةً ، ويستحيل — من الوجهة البيولوچية على الأقل — أن تُطلب الصفات التى تودى بأصحابها إلى التهلكة .

لكنه ما من شك فى أن هنالك نوعاً من « الضعف » ينعتونه فى لغة الحديث الجارية « بالطيبة » — ولغة الحديث فى هذا مؤدية للمعنى المراد أبلغ الأداء ، حين يصف لك الناسُ هذا الشخص أو ذاك بأنه « رجل طيب » فى نغمة صوتية خاصة ، تبين لك على الفور بأن المقصود هنا ، هو أن بالشخص الموصوف سذاجة أو بلاهة أو سرعة تصديق ، تجعله فى خطر من الناس ، وتجعل الناس فى مأمن منه . . . لكن غاندى « الطيب »

لم يكن هذا الساذج الأبله ، فأين يكون العنصر المشترك بين الطيبة هنا والطيبة هناك ؟ .

للهنود فى ذلك قصة لطيفة ربما أنارت أمامنا بعض الطريق ؛ فهم يحكون أن ثعباناً راح ينفث سمومه فى الناس هنا وهناك بلا حساب ، فيلدغ من يستحق ومن لا يستحق بغير تمييز ، حتى كانت ساعة تحرك فيها ضميره ، فندم على هذا الشر كله الذى يصيب به الناس أخياراً وأشراراً ، وصمم على التوبة ، فقصد من فوره إلى راهب متعبد يستفتيه نوعَ الحياة التى يحياها ليرضى عنه الله والناس ، فأفتاه الراهب بأن يعيش كما يعيش هو ، أعنى أن ينتبذ من وجه الأرض مكاناً معزولا ، فيكتفى بالقوت اليسير ، بعيداً عن الحياة ومغرياتها ؛ فعاد الثعبان يبحث لنفسه عن ركن مهجور ، ووجد بغيته فى منطقة خلاء من العمران ، وهنالك تحوّى هادىء البال راضى النفس ؛ لكن ذلك لم يدم له طويلا ، إذ جاءت جماعة من الصبيان تلهو ، وأبصر أحدهم بالثعبان متكوّماً فى ركن الخرابة ، فصاح صيحة الذعر وجرى وتبعه الباقون ؛ ثم عادوا فى اليوم التالى ليجدوا الثعبان على حاله هناك ، فأمسك صبى بحجر من بعيد وألقاه وجرى وتبعه بقية الإخوان ، وعادوا فى اليوم الثالث ليجدوا الثعبان على استكانته ، فألقوا عليه بدل الحجر حجرين ، وأخذت القذائف تكثر فى كل يوم عن سابقه ، حتى هان أمر الثعبان فى أعينهم ، واقتربوا منه فى غير خوف ، وراحوا يمطرونه وابلا من حجارة

كل يوم ، فكادوا يرجمونه رجماً يمزقه ويقضي عليه .

فلم يسع الثعبان إلا أن يعود إلى الراهب يستفتيه فى هذا الموقف الجديد ، فها هو ذا قد تاب وأناب ، وانزوى عن الناس واعتكف ، لكن شرار الناس لم يتركوه ، واعتدوا عليه بما لم يعد به احتمال عليه ، فماذا عساه صانع حتى لا يُغضب الله والناس ؟ فقال له الراهب : إنى لم أقصد حين أرشدتك إلى طريق الهدى ، أن تتلقى الاعتداء بغير عدوان يقيك آناً بعد آن ، فلا بدّ لك فى الأسبوع مرة من نفثة تنفثها فى الهواء ، ليعلم هؤلاء الصبيان الأشرار أنك تستطيع — إن أردت — أن تجيبهم إيذاء بإيذاء .

أقول إن هذه القصة الهندية تنير أمامنا بعض الطريق فى التفرقة بين « طيبة » و « طيبة » — بين الطيبة التى ترضى الله والناس فى غير ضعف ولا خطر ، والطيبة التى تستعدى على صاحبها عوامل الضر والأذى ؛ فالطيب من الصنف الأول هو من لايعتدى بادئاً بالاعتداء ، لكنه لايسكت عن رد اعتداء وقع عليه ؛ والطيب من الصنف الثانى هو من لايعتدى ، ثم يسكت عن رد الاعتداء — وإذاً فلغة الحديث الجارية على صواب ، حين تنعت الناس بالطيبة فى نغمتين مختلفتين : نغمة تدل على أن الشخص الموصوف على خلق قويم ، لكنه فى الوقت نفسه ذو لحم مرّ لايسهل أكله التهاماً ، ونغمة أخرى تدل على أنه إلى جانب استقامة

أخلاقه يمكن أن يكون نهباً للطامعين .

إننى لا أحسن دراسة طبائع الحيوان ، فلعلى لا أكون بعيداً عن الصواب إذا زعمت أن الليث والذئب والحمل تمثل ثلاثة ضروب مختلفة من الطبائع فى ميدان العدوان وردّه ، فالليث — فيما أعلم — يردّ الاعتداء إذا وقع لكنه لايبادىء به ، والذئب يصنع الصنيعين معاً ، فيبدأ بالعدوان ويردّ ، والحمل لا يفعل هذا ولا ذاك ، فلا اعتداء ولا رد اعتداء ، ومن ثمّ وداعته التى ذهبت بذكرها الأمثال ؛ فإن كان لنا أن نختار من هذه الطبائع الثلاثة واحداً ، فهو طبع الليث ، لأن الذئب شر والحمل ضعف ؛ فنى الليث « طيبة » بالمعنى القوى — إن صح هذا التعبير — وفى الحمل « طيبة » بالمعنى الضعيف ، وأما الذئب فكله خبيث .

وأساس القوة فى الطيبة القوية ، هو أن مقومات الحياة الصحيحة تتوافر فيها ؛ وأول هذه المقومات للحياة ، بل تعريف الحياة وتحديد معناها — فى رأى هربرت سبنسر — هو استمرار المواءمة بين ما يحدث فى باطن الكائن الحى وما يحدث فى محيطه الخارجى ؛ الحياة — فى صميم معناها — هى أن يستجيب الكائن الحى لما يقع حوله ، والموت هو أن تقف هذه الاستجابة للمؤثرات الآتية من خارج ؛ الكائن الحى يردّ على المنبهات المحيطة به ردوداً ملائمة ليوفق بين داخله وخارجه . والجسم الميت تأتيه المنبهات فلا يتنبه ولا يجيب .

الفرق بين الفاعلية والقابلية هو نفسه الفرق بين الحياة والموت، الحى فاعل والميت قابل ؛ الحى يتلقى عوامل الجو — مثلا — من حرارة وبرودة ، فيتخذ منها موقفاً ملائماً ، وأما قطعة الحجر الملقاة فى الفلاة ، فتتلقى هى كذلك عوامل الجو نفسها من حرارة وبرودة ، فتفعل فيها تلك العوامل فعلها من تفتيت وتحليل وتهديم وبعثرة ، وهى إزاء هذا كله قابلة وكفى ، لا حيلة لها ولا سبيل .

والحياة — بهذا المعنى — تكون درجات يتفاوت بها الأحياء ، فليس كل ما هنالك من فرق هو أن يكون هذا حياً وذلك ميتاً ، بل هنالك فروق فسيحة بين الأحياء أنفسهم فى نصيبهم من الحياة ، لأن هنالك فروقاً فسيحة بينهم فى القدرة على إجابة المنبهات الخارجية بما يلائمها ؛ وها هنا أيضاً نرى فى لغة الحديث الجارية بلاغة فى الأداء ، حين تصف شخصاً بأنه « ملىء بالحياة » ؛ إذ أكواب الأحياء تتفاوت — كما رأينا — فى مقدار ما بها من العصارة الحيوية ؛ فكوب ملىء إلى حافته ، وكوب فيه العصارة إلى نصفه أو ربعه ، وثالث فارغ ، يعدُّ صاحبه بين الأحياء بهتاناً وزوراً ، حين يجىء أوان التعداد وإحصاءُ السكان .

بين اليقظة الواعية فى طرف ، والموت البارد فى طرف آخر ،

هنالك حالات متدرجة من الغيبوبة والنعاس ، التي إن أدركت فيها الحواس شيئاً مما حولها ، فأخلاط مهوشة لا تعني شيئاً من حركة الجسم ونشاط الأعضاء ؛ وسيأخذك العجب حين أزعم لك أن قلة ضئيلة من الناس هي اليقظانة الواعية ، وأما الكثرة الغالبة منهم ففي غيبوبة ونعاس ، في وجوههم أعين مفتوحة ، لكنها تنظر ولا ترى .

والأمم في هذا كله كالأفراد سواء بسواء ، فما الأمة إلا مجموعة أفرادها ، وقد تشيع في هؤلاء الأفراد يقظة للعالم من حولهم ، فتكون أمتهم بذلك أمة حية ، أو قد تشيع فيهم حالة الغيبوبة فتكون أمتهم بذلك نعسانة غافلة ، وفي إيقاظ الأمة النعسانة معنى النهوض ؛ فإذا قلنا إن أوربا قد « نهضت » في القرن السابع عشر ، حين تنبه فيها نفر من أبنائها إلى عالم الأرض والسماء ، كان معنى ذلك اعترافاً منا بغيبوبة سابقة ، شاعت في أبنائها ، فأغمضت أعينهم وأصمّت آذانهم عن مشاهد الدنيا وأصواتها ؛ وإذا قلنا إن مصر قد بدأت « نهضتها » في أول القرن التاسع عشر ، كان المراد بذلك أنها ظلت غافلة عن أحداث العالم الخارجي حتى ذلك الحين ، ثم جاءها من أيقظها ففتح عينيها ؛ وإني لأذكر أستاذنا الجليل « . . . » وهو يحاضرنا أيام الطلب في الحملة الفرنسية على مصر ، بعلمه الغزير وفكاهته البارعة ،

كيف أخــذ يرسم لنا صورة حية للمصريين عندئذ ، وهم فى نعاسهم غارقون ، حتى إذا ما جاءهم « نلسن » بأسطوله باحثاً عن نابليون — لأن نابليون وهو فى طريقه إلى مصر ، قد أخفى عن العالم هدفه المقصود — فسألهم : ألم يمرّ ببلادكم نابليون بمراكبه ؟ فقال له من أجابه : أى نابليون وأية مراكب ؟ إننا لا ندرى من أمر ذلك شيئاً ، نحن بلاد تتبع السلطان . . . إلى آخر الصورة الفكهة البديعة التى رسمها لنا أستاذنا عندئذ . ولم يطل بهؤلاء الراقدين الغافلين زمن الانتظار ، حتى جاءتهم الحملة النابليونية توقظهم ، فعلموا عندئذ أن أوربا قد قامت بالثورة الفرنسية على قدم وساق ؛ واتصلت مصر بذلك العالم الصاخب منذ ذلك الحين ، فقيل — وللقول مغزاه — إن مصر قد « نهضت » فاستيقظت من نعاسها ؛ وهى ما تزال ماضية فى هذا النهوض المبارك ، حتى تستكمل يقظتها ووعيها ، فتستكمل لها بذلك مقومات الحياة

إن هذه الأحداث الدامية التى تقع فى أرضنا اليوم هى من علائم البشرى ، لأننا قد أخذنا نرد على المؤثرات من حولنا بما يلائمها ، فحياتنا القوية المليئة مرهونة بقدرتنا على الاستجابة السريعة للمؤثرات الخارجية ، استجابة نؤقلم بها أنفسنا على نحو يوفق بينها وبين العالم المحيط بنا بكل ما فيه من خير وشر ، إنه لا يجدينا شيئاً أن ننكمش فى قواقعنا الفكرية

والسلوكية ، ظناً منا بأن تلك القواقع قمينة أن تصون لنا شخصية مستقلة متميزة قائمة بذاتها ؛ فلنفتح النوافذ والأبواب على مصاريعها للهواء ، بل للزوابع والعواصف ، حتى تتعادل درجة الحرارة داخل الدار معها فى الخارج ؛ ولا يكفى أن نتلقى ونحن فى قابلية الحجر الأصم ، بل لا بد أن نردّ على العوامل الآتية فى فاعلية تثبت وجودنا وتؤكد للعالم أننا جزء من جسمه متنبه حساس .

عزمات الإرادة

ما أسرع وما أهون أن تسرى الفكرة الخاطئة فى الناس ، فلا يستطيع بعدئذ أن يشير إلى بطلانها إلا فيلسوف كبير أو طفل صغير ! ذلك لأن الحقيقة كثيراً ما تكون واضحة ناصعة جلية ، يراها كل ذى بصر لم يُعْمه الهوى ، لكن إعلانها — مع ذلك — قد يحتاج إلى فيلسوف جرىء أو طفل برىء ! .

إن من أقاصيص « هانس أندرسن » قصة مشهورة معروفة ، خلاصتها أن حاكما كان مولعاً بالملابس الجديدة ، فأقبل ذات يوم على مدينته محتالان زعما له أنهما يحسنان نسج قماش رقيق جميل ، فيه ميزة عجيبة ، وهى أنه يَخْفَى على عيون العاجزين والبلهاء ؛ ففرح الحاكم بما سمع ، وأمرهما أن ينسجا له ثوبا من هذا القماش العجيب ، لأنه عندئذ يستطيع أن يميز فى رجال حكومته بين القادر والعاجز ، وأن يعرف من ذا يكون من الناس عاقلا ومن لا يكون .

وأخذ المحتالان ما طلباه من مال ، ثم أخذا يخبطان بالأنوال نهاراً وليلا ، ليوهما الحاكم أنهما جادان فى العمل ، والحقيقة أنهما لا يعملان شيئاً ؛ وبعد أيام أرسل الحاكم وزيره إلى النساجين ليرى كم نسجا ، فأخذ

هذان يلوحان بأيديهما فى الفضاء ، زاعمين أنهما يشيران إلى قماش منسوج مزخرف ، ولم ير الوزير شيئا ، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك حتى لا يوصم بالعجز والبلاهة ، وراح يؤيد المحتالين فى جمال القماش وجودته .

وسرى نبأ القماش الجديد العجيب بين أهل المدينة ، وأعلن الحاكم أنه سيسير بين شعبه فى موكب رسمى يوم يرتدى حُلّته الجديدة ؛ فلما حان اليوم ذهب الحاكم مع حاشيته إلى مكان النسج ، وخلع ملابسه ليرتدى الثوب الجديد ، وجعل النساجان يحركان أيديهما فى الهواء كأنما يُلبسانه شيئاً ؛ إنه لم ير فى الهواء ثوبا ولا شبه ثوب ، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك فيوصف بالبلاهة والعجز ، مع أنه صاحب جلالة وفخامة ، وراح بدوره يبدى إعجابه بما لبس ، وينظر إلى نفسه فى المرآة مزهواً فخوراً .

وبدأ الموكب الرسمى ، وسار الحاكم بين الناس « عاريا » إلا من أوهامه وأوهام شعبه ، فمن ذا يجرؤ على القول بأنه لا يرى شيئاً ؟ . . . إلا طفلاً صغيراً كان يقف إلى جانب أبيه ، فصاح لأبيه قائلاً : لكن الحاكم لا يرتدى شيئاً ! فنقلها أبوه إلى جاره ، وهذا الجار إلى جاره ، حتى ساد الرأى بأن الحاكم عريان الجسد لا يرتدى شيئاً .

والطفل الذى أخرج الناس من ضلالهم حين رأى الحقيقة الواضحة ببداهته الطبيعية التى لم يفسدها له الناس بأوهامهم ، هو كالفيلسوف الذى يرى للناس رأياً واضحاً يسيراً ، فلا يكون فضله عليهم هو أنه أدرك

ما لا يستطيعون إدراكه ، بل فضله هو جرأته في إعلان مايدركه ويدركونه معه . . . وأي عسر في أن يقال إن الإنسان من حقه أن يعيش حراً في رأيه وعقيدته ؟ لكن إعلان هذا الحق قد تلكأ مئات السنين إن لم نقل ألوفها حتى يعلنه الجريء في وجه الطغاة ؛ أي عسر في أن يقال إن الإنسان من حقه أن يأكل ما يُشبعه ويكتسي بما يقيه ؟ لكن إعلان هذا الحق قد تلكأ وما يزال متلكئا . . . . وهكذا قل في بَدَائه كثيرة يراها كل إنسان ، أو يستطيع أن يراها إذا أراد ، لكنه ينتظر أول ناعق .

وهل تصدق أن الأمر قد احتاج إلى فيلسوف من أضخم الفلاسفة ليقول للناس : « أنا موجود » ! ؟ هل تصدق أن وجود الفرد — على بداهته — قد تلكأ إعلانه حتى جاءه فيلسوف ؟ لا ، بل إننا حتى هذه الساعة بحاجة إلى فيلسوف وفيلسوف وفلاسفة كثيرين ، ليصيحوا في الناس بأن الفرد موجود وجوداً حقيقياً ، وليس هو بالشبح أو الظل ، ولا هو مجرد اسم يكتب بالمداد على شهادة الميلاد ، أو مجرد رقم يسجل في دفاتر هذا أو دفاتر ذاك ؛ نحن إلى هذه الساعة بحاجة إلى فلاسفة كثيرين ليقولوا إن الفرد موجود وجوداً مادياً ، وإنه من لحم ودم ، وإن له بطناً يجوع وجِلْداً يشعر بالبرد ويرتعش . . .

لكن الفكرة قد تكون واضحة ناصعة جلية ، ومع ذلك فلا

يستطيع إعلانها إلا فيلسوف جرىء أو طفل برىء ! .

إنه ليروى عن مدام دى ستايل أنها طلبت من فيلسوف ألمانى أن يلخص لها فلسفته فى عشر دقائق ، فلما أجابها الفيلسوف بأن ذلك مستحيل لصعوبة الفكرة وكثرة تعقيدها قالت فى اعتداد : « إن ما لا أستطيع فهمه فى عشر دقائق لا يكون عندى جديراً بأن يُفهم » — وتلك بالطبع مبالغة منها ، لكنها مبالغة تفيدنا فى لفت أنظارنا إلى أن مجرد إدراك الحقيقة النظرية ليس دائماً هو موضع الصعوبة ، بل الصعوبة فى الانتقال من رؤية الحقيقة إلى إعلانها ، أو بعبارة أخرى ، الانتقال من الفكرة إلى العمل ، وفى مضاء العزم يكون الفرق بين إنسان وإنسان ، وبين أمة وأمة .

ما كان أجدر ديكارت أن يقول : « إنى أريد فأنا إذاً موجود » بدل قوله : « إنى أفكر فأنا إذاً موجود » لأن جوهر وجود الإنسان عمل يريده وينجزه لا فكر يديره فى رأسه ، فالإنسان فى حياته أشبه ما يكون بالتائه فى جوف غابة كثيفة ، لا يدرى كيف يكون الطريق إلى الخلاء المكشوف ؛ وخير له ألف مرة أن يعقد إرادته على خطة ينفذها ، مهما طالت ؛ كأن يسير مثلاً ناحية الشمال أو ناحية الجنوب بغير ذبذبة ولا تحول ، من أن يظل واقفاً فى مكانه ، أو أن يدور فى دائرة مغلقة ،

أو أن يبدأ طريقاً لا يخطو فيه إلا خطوات قليلة ، ثم يحاول طريقاً ثانياً فثالثاً . . . .

لقد رأيت منذ أيام قليلة مجموعة من أطفال صغار أربعة أو خمسة ، ولا أدرى ماذا أرادوا أن يصنعوا ، لكنى لاحظت أنهم لم يعرفوا كيف ينجزون ما أرادوا ، فسرعان ما اعتركوا وأخذ بعضهم يشد بعضاً من شعر رأسه أو أطراف ثوبه ، فى انفعال شديد ؛ فلم يسعنى إلا أن أرى فى هؤلاء الأطفال صورة مصغرة لنا ، لكنها على كثير من دقة التصوير لحالنا ؛ فلست أعلم كم قضينا من القرون لا نعمل لأنفسنا شيئاً ؛ فلما نهضنا حديثاً وأردنا أن نعمل ، أرتج علينا ، فأخذَنا انفعال الأطفال ، وما لبثنا أن اعتركنا بعضنا مع بعض شداً للشعر وجذباً لأطراف الثياب ؛ ذلك لأننا نعرف ماذا يعمل ، لكننا لا نملك الإرادة التى تنفذ ، فلا عجب ألا نجد اختلافاً بين أحزابنا على الأهداف ؛ لأن الأهداف « فكرة » لا يصعب على الطفل إدراكها ، وهل يعجز الطفل عن إدراك الفكرة البسيطة القائلة بأننا نريد أن نستقل عن المستعمر لنكون دولة ذات سيادة كاملة ؟ الفكرة بسيطة واضحة ، بل والطريق إليها قد يكون « معروفاً » كذلك — معروفاً كفكرة ؛ ولكننا حين بدأنا نخطو نحو التنفيذ ، حل بأبداننا شلل تراكم على مر العصور وطول القعود والركود ، فانتقلت الفاعلية

من الأقدام التى تسير ، إلى الحلوق تصيح والأذرعة تلوح فى الهواء وتضرب .

تنقصنا الإرادة ، والإرادة لا تكون إلا فى شخص يريد . ليس هناك « إرادة » سابحة فى الهواء مع السحاب ، أو « إرادة » تسكن الكهوف مع الأشباح والأرواح ؛ إنما الإرادة تراها فى فرد يريد ، فقم الآن واعمل — إنه لتعجبنى هذه الأسطر الآتية فى رواية « ميديا » لـ « كورنى » — ولتلاحظ أن « كورنى » فى مسرحياته قد جعل عظماءه هم أصحاب الإرادة التى تنفذ وتمضى فى غير ضعف أولين — فهذه « ميديا » قد زال عنها كل ما تركن إليه فى حياتها ، لكنها تستحفز فى نفسها العزيمة والثقة بالنفس :

الوطن ينبذك والزوج خائن .

فماذا بقى لك فى هذه المحنة السوداء ؟

بقيت لى نفسى .

نفسى وحدها وفيها الكفاية .

ولا نحسبه من فعل المصادفات العابرة أن ينطق أديب فرنسى بهذه الأسطر فى نفس الوقت الذى يتحدث فيه فيلسوف فرنسى بمثلها ، وذلك هو ديكارت ، الذى لم يتردد فى هدم كل شىء بشكه ، وكأنما ألقى

على نفسه مثل السؤال الذى ألقته « ميديا » على نفسها : هأنت ذا واقف بين ركام وأنقاض فماذا بقى لك ؟ فأجاب أيضـــاً بمثل ما أجابت به « ميديا » بقيت لى نفسى ، « فأنا موجود » .

وتلك بعينها هى وقفات الأبطال فى التاريخ الإنسانى كله : الأنبياء والمصلحون وزعماء الثورات وقادة الحروب الـكبرى ؛ فـكل من هؤلاء كان ينطق بلسان حاله ولسان أفعاله ، وينطق فى وجه الظروف القائمة قائلا : هذا هو كل شىء قد فسد من حولك ، فماذا بقى لك ؟ وقد كان كل من هؤلاء يجيب لنفسه ؛ بقيت نفسى . وما هو إلا أن يأخذ فى التنفيذ والعمل ، البطل الحقيق لا يُمْلَى عليه بل يُمْلِي ؛ ومهما صغرت الدائرة التى يفرض فيها الإنسان إملاءه وإرادته ، فهو على كل حال أوفر حياة ممن يتلقى عن غيره ؛ فلو كانت « جان دارك » رأت رؤاها وسمعت أصوات قلبها ثم وقفت عند هذا الحد ، لما كان منها بطلة ولا شبهها ، لأن الزاعمين والزاعمات بأمثال تلك الرؤى والأصوات لا يكاد يحصرهم العـد فى كل جيل من كل أمة ، والناس يسلـكونهم — بحق — فى عداد المخرفين ؛ لـكن الذى نقل « جان دارك » من هذه الدائرة الدنيا — دائرة التخريف — إلى دائرة البطولة والعظمة النادرة ، هو أنها راحت تعمل وفق أحلامها ورؤاها ! قالت لهـــا الـكنيسة : تعالى نحقق صدق

دعواك ، فأبت أن تذعن لقضاء الكنيسة ، لأن جانب البطولة منها قد أبى عليها أن تنصت لما يقوله الآخرون .

أول خطوات الرجاء — إذاً — أن نطمئن إلى سلامة بناء الأفراد فى قوة إرادتهم وقدرتهم على العمل والإنجاز ، أول خطوات الرجاء أن نبث فى كل فرد عقيدة قوية بأن الإنسان أقوى ما فى الوجود ، إنه أقوى من الوجود كله ، هذا الإنسان الذى يبدو كأنه القصبة النحيلة تهزها الريح ، فى يده العصا السحرية التى تتحكم فى الطبيعة من أولها إلى آخرها ، وما عصاه السحرية هذه سوى عزيمة ماضية إلى هدفها بالعمل الدءوب .

هاروت وماروت

كان من أساطير العرب أن كوكب الزُّهَرة هو امرأة بغيّ تحولت نجماً ، وخلاصة الأسطورة كما ذكرها « البلخى » هى ما يأتى :

« روى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم ، قال للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ؛ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ فلما خلق آدم وأظهرت ذريته فى الأرض الفساد ، قالت الملائكة : يارب ، أهؤلاء الذين استخلفتهم فى الأرض ؟ فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ففعلوا ؛ قيل وجاءتهم امرأة فافتتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وتعالى ؛ وعلموا المرأة الاسم الذى كانوا يصعدون به إلى السماء ، فصعدت ، حتى إذا كانت فى السماء مسخت كوكباً ، وهى الزُّهَرة ؛ قالوا وخُيِّر الملكان بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختاروا عذاب الدنيا ، فهما معلقان بشعورهما فى بئر بأرض بابل ، يأتيهما السحرة فيتعلمون منهما السحر » (الأساطير العربية قبل الإسلام ، نقلاً عن كتاب « عبقر » لصاحبه شفيق معلوف من أدباء المهجر) .

تلك هى أسطورة هاروت وماروت كما قرأتها ؛ ولا بد لنا بادئ

ذي بدء أن نتغضى عما فيها من خلط بين المثنى والجمع ، إذ هي تبدأ بالحديث عن ثلاثة من الملائكة أرسلوا إلى الأرض ، فتتحدث عنهم بصيغة الجمع ، ثم تعود فتتحدث عن هاروت وماروت وحدهما بصيغة المثنى ، دون أن تذكر خبراً عن زميلهما الثالث .

قرأت هذه الأسطورة فوجدتها تصور حياتنا السياسية منذ ربع قرن أو يزيد ؛ بل وجدتها تصور كثيراً جداً من جوانب الحياة إلى جانب تصويرها للحياة السياسية .

فعناصر الأسطورة كما يرى القارئ هي أن تعيث ذرية آدم فى الأرض فساداً ، فيرفع الملائكة شكاتهم إلى الله ، فيختارهم الله لحكومة الأرض لعلهم يصلحون ، فما يكادون يضطربون فى الشئون الأرضية حتى يتعرضوا لعوامل الإغراء ، فيفسدون ويُفسدون ، ولا يكونون خيراً حالاً من آدم وذريته .

وهكذا الحال فى حياتنا السياسية ؛ فكلما أرادت الظروف لحزب سياسى أن يتولى أمورنا ، قالت الأحزاب الأخرى بلسان حالها متوجهة بشكاتها إلى ربها : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . الخ ؟ .

ويكون الحق إلى جانب هذه الأحزاب فيما قالت ، لأن الحزب القائم على الأمر وذريته ، تظهر فيه عوامل الفساد حقاً ، وتنتشر فى الأرض ألوان العبث على أيديهم ألواناً وأشكالاً ؛ فلا غرابة أن تشمت الأحزاب

المعارضة وأن تتوجه بسؤالها إلى الله : يارب أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض ؟ ! .

وهاهنا يأمر الله تلك الأحزاب المتأففة المتضجرة الغاضبة الشامتة ، والتي ترى أنفسها ملائكة أطهاراً أتقياء إذا قيست إلى الحاكين الفجار ؛ يأمر الله تلك الأحزاب الغاضبة الشامتة أن تختار من أفاضل رجالها نفراً تلقى بين أيديهم مقاليد الحكم ، لعلهم أن يكونوا الصالحين المصلحين ؛ فينزل الملائكة المختارون إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ثم لا يلبثون أن تسرى في دمائهم الشهوات الحيوانية الملتهبة العارمة ، فتفتنهم عن أنفسهم فتنة بعيدة المدى ، لا يتورعون معها أن يسجدوا لغير الله ؛ إنهم عندئذ لا يتورعون أن يسجدوا للشيطان العابث بهم وبأحلامهم ، وهو الشيطان الذي ما يزال بغوايتهم حتى يأخذ منهم كلمة السر التي يصعد بها إلى السماء حيث يلمع ويسطع كما يلمع كوكب الزهرة في السماء ... وأما هم ، فيعلقون من شعورهم بين الأرض والسماء ، فلا إلى الناس هبطوا واضطربوا معهم في شئون العيش الشريف ، ولا إلى السماء صعدوا ليعودوا مع الملائكة أبراراً أطهاراً .

والتتمة التي لم تذكرها الأسطورة ، هي أن تعود ذرية آدم إلى مكان القيادة مرة أخرى ، وسرعان ما تنشر الفساد في الأرض

كما نشرته أول مرة ؛ وهكذا دواليك حلقة بعد حلقة إلى يوم الدين .

* * *

هكذا تصور الأسطورة القديمة حياتنا السياسية الحديثة أبدع تصوير وأبرعه ؛ لكنها إلى جانب ذلك تصور كثيراً جداً من جوانب حياتنا الأخرى ، فلنا في كل يوم من أمثال هاروت وماروت مئات ومئات ، ولنا في كل يوم من أمثال الزهرة كذلك مئات ومئات .

وهنا يجمل بنا أن نحدد للقارئ معنى « البغيّ » كما يجب أن نفهمه ؛ فالبغي قد يكون رجلا كما قد تكون امرأة ، والصفة الجوهرية في البغي أن يبيع مثله العليا من أجل نفع عاجل ، وقد تكون هذه المثل العليا مبادئ خلقية تواضع عليها الناس ، أو أهدافاً فكرية أو فنية اتفقت عليها كلمة العالم المتحضر كله ؛ يبيع البغي هذا كله بثمن بخس من مال أو جاه ، يبيع كل ما لديه من عزة وكرامة ثمناً لصعوده ؛ حتى إذا ما صعد البغي إلى منازل الكواكب المنيرة اللامعة ، لم يسأل الناس كيف كان وكيف أتيح له الصعود ومن أين جاءه النور الذي يلمع به .

وفي حياتنا العامة ، بل في حياتنا العلمية والفنية من أمثال هؤلاء البغايا كثيرون ، كثيرون جداً ، ففي مكان الرياسة قد ترى من ليس له رأس يفكر ، وفي مكان العلماء قد تجد من لا يقوم على علمه برهان واحد

من آثاره ، بل قد تصادف فى مكان الصدارة من حياتنا الأدبية من سوف لا يذكره الغد القريب بصفحة واحدة خطها قلمه . . . كل هؤلاء كواكب نيرات فى سمائنا ، كالزهرة اللألاءة كانت بغياً ثم مسخها الله كوكباً !!

* * *

كذلك رأيت فى الأسطورة معنى آخر ، يمس جانباً آخر من جوانب حياتنا العلمية والسياسية .

فى الأسطورة قد فسد الملائكة عندما نزلوا إلى الأرض ؛ وتعريف « الملائكة » أنهم الكائنات التى تعقل بغير أجساد ، أعنى أنهم الكائنات التى لها ما للإنسان من فكر ، دون أن يكون لها ما له من بدن ؛ وسنتخذ « الأرض » هنا رمزاً للحياة الدنيا بشئونها العملية ، وبخاصة شئون السياسة .

وفى ضوء هذا التفسير للكلمتين ، نسأل هذا السؤال : هل يجوز لأصحاب العقل والفكر أن يشتركوا فى سياسة الجماعات اشتراكا عملياً ؟ بعبارة أخرى : هل يجوز لأصحاب الفكر النظرى أن يتولوا مقاليد الحكم ؟

ولهذا السؤال جوابان : فأما هذه الأسطورة التى نحن اليوم بصددها ،

فتجيب جواباً واضحاً ، وهو أن لا ؛ لأن العقل الخالص إذا نزل إلى الأرض واضطرب فى محيط الحياة العملية انحرف عن صوابه ، وضل ضلالا بعيداً ، ذلك لأن الحياة العملية ستضطره اضطراراً أن يميل مع « الهوى » — والهوى فى الأسطورة غرام بامرأة بغى ، لكن الأهواء قد تتعدد صنوفها — وشرط الفكر الخالص ألا يميل مع الأهواء كائنة ما كانت ، فيستوحى إملاء المنطق العقلى وحده دون أن يحب أو يكره ؛ شرط المفكر أن يقف من موضوع تفكيره على الحياد التام ، فلا يبدى عاطفة هنا أو هناك ؛ فإذا تناول العالم المفكر وردة ، انقلبت الوردة فى يديه جسما يحلله إلى أجزائه كما يحلل الأوساخ والأوحال ؛ أما إن شمها فأعجبته بأريجها ، فعندئذ يصبح فناناً ويخرج من دائرة العلماء أصحاب الفكر الخالص والعقل المحايد .

وهيهات أن تشترك فى عالم السياسة بفكرك وتظل محايداً لفكرتك فلا تحيد بدوافع العاطفة ذات اليمين مرة وذات اليسار أخرى ؛ ومن ثم كان فساد الملائكة فى هذه الأسطورة عندما نزلوا إلى الأرض . . .

لكن للسؤال جواباً آخر قاله أفلاطون منذ زمن بعيد ، فقد كتب « الجمهورية » ليقول فيما يقوله : إن الحكم ينبغى أن يكون للحكماء ، أى أن تلقى مقاليد الحكومة إلى أصحاب الفكر — وهم عنده الفلاسفة — لأنهم أقدر من غيرهم على تفهم طبيعة الإنسان وقيادته ؛ فكما أنك لا تلقى

بزمام السفينة إلا إلى ربان يعرف طبيعة البحر والجو ليجنب السفينة مواضع الخطر ، فكذلك سفينة الدولة . . . إلى آخر ما قال .

ونحن نضع السؤال نفسه فى صيغة أضيق مجالا ، فنقول : هل يجوز لرجال الجامعة عندنا أن يشتركوا فى الحكومة ؟ ونترك للقارىء أن يختار لنفسه أحد الجوابين ؛ فأمامه ما قد أجاب به أفلاطون وما تجيب به أسطورة هاروت وماروت .

رهان

هي عشرون جواداً أو ثلاثون ، بعضهـا في حلبة السباق يلهث من الجرى ، و بعضها الآخر في الحظائر يدس رأسه في المذاود ليطعم ، أو يتمرغ على أرض لينة — بما فرشت به من الدريس — ليستجم و يستريح ؛ ثم يتبادل الفريقان من الجياد موضعهما ، فتجيء الخيل المتسابقة إلى الحظائر فتأكل من المذاود جيد العلف أو تسترخى على الأرض اللينة لتستجم وتستريح ، وتذهب الخيل المستريحة الطاعمة إلى حلبة السباق لتلهث من الجرى ، وهكذا دواليك حيناً بعد حين .

وحول حلبة السباق وقفت ألوف البشر ، متلاصقة الأجساد متدافعة بالمناكب ، حتى لتحمر منها الأعين ، وتنتفض الأوداج ، ويتصبب العرق ؛ هذه الألوف من التعساء المناكيد ، قد تأرقت جنوبهـــا على المخادع ، لم يهنأ لها في ديارها طعام ولا شراب ، فجاءت إلى حلبة السباق لتبذل من مالها وجهدها ما تستطيع بذله وما لا تستطيع ، رهاناً على الجياد المتسابقة ، حتى إذا ما أتمت الخيل شوطها ، أخذ يعلو في الثراء والجاه من يعلو ، و يهبط فيهما من يهبط ، وللمراهنين في كل يوم حظوظ كتبت لهم في اللوح المحفوظ .

ارقبْ الوجوه والأجساد فى ذاك الزحام ، واستمع إلى ما ينطقون به همساً وصياحاً ، حين تهتز أقدارهم فى كف القدر ، معلقة بما هو أوهى من خيوط العنكبوت : هذا واحد قد مط عنقه مطا ، وشد أوتاره شداً ، وشبَّ على أطراف قدميه ، وأخذ يدور بناظريه خلال غابة من أعناق المتزاحمين ، لعله يتابع الجياد بناظريه وهى تدور ؛ فتنبسط فى وجهه الأسارير ثم تنقبض مائة مرة فى الدقيقة الواحدة ، لأن حصانه الذى راهن عليه يتقدم تارة ويتأخر تارة ، وهو مع الحصان فى تقدمه وتأخره يتأرجح انبساطاً وانقباضاً .

وهذا آخر يضرب الأرض بقدميه من قلق ، ويضرب فخذيه بيديه ، ويزفر آهات متتابعات ، لكنها مختلفات الصوت والمعنى ، فآهة يزفرها مرة ليتوجع ، وآهة أخرى يطلقها لينتشى ؛ لأن حصانه هو الآخر لا يخلى بينه وبين الأمل المتصل أو اليأس المتصل ، فأخذ يؤرجحه بين اليأس والأمل .

وهذا ثالث لا يكف عن الصياح إلى الجياد منادياً لها بأسمائها ، يستنهض فيها الهمم ، لأن سنابكها تكتب له مقدار حظه ، وكل ثنية ينثنى بها هذا الحصان أو ذاك ، لها فى حياته هو صدى ، فقد ينثنى حصانه قليلاً ذات اليمين ، فإذا معنى ذلك أنه رئيس على أترابه منذ الغد ، أو ينثنى

قليلاً ذات اليسار ، فيهبط منذ غده إلى مراتب المرءوسين ، وهلم جرا ؛ فهو ممذور إذا أجهد حلقه بالصياح هاتفاً : « الله الله يا مموحة ! » « شد حيلك يا بلبل » . . .

وللمراهنين فى اختيار جيادهم مذاهب ؛ فبعضهم يفضل أن يضع رهانه على جواد سَبّاق ، راضياً بالكسب القليل المضمون ؛ ذلك لأن الجواد إذا اشتهر بالسبق ، كثر المراهنون عليه ، و بالتالى قل النصيب عند توزيع الغنائم ؛ و بعضهم الآخر يؤثر لنفسه الرهان على جواد مغمور بعض الشىء ، لأن الحظ إذا أسعف هذا الجواد المختبىء وكان له السبق ، فاز المراهن بربح موفور لقلة المراهنين ؛ و بعضهم يمسك العصا من وسطها — كما يقولون — حتى لا يفوته طرف اليمين ولا طرف اليسار ، فيراهن على النوعين فى آن معاً .

وأشهد أنى عشت ما قد عشت من سنين ، غافلا عن هذا النشاط العجيب الذى يستنفد جهد الألوف من البشر ، فقد كنت أحسب أن الناس جميعاً ينفقون أيامهم كما أنفق أيامى على نحو بارد ممل رتيب : عمل وأكل ونوم ، فعمل وأكل ونوم ، ثم عمل وأكل ونوم ؛ لم أكن أدرى أن هنالك ألوفا من البشر تغمض أعينها على أرق وتفتحها على قلق ، من كثرة ما أضافت إلى حياتهـــا من عوامل الأمل واليأس ، وأسباب

الصعود والهبوط ، بحيث لا يكون الواحد منهم فى غده ما يكون فى يومه ، فهو فى كل يوم على حال .

وظللت على غفلتى حتى فتح عينى صديقى الطبيب البارع حين ذهبنا يوما إلى دار السينما ، حيث شهدنا فيها مباراة فى الملاكمة جرت بين ملاكين قيل إنهما مشهوران معروفان فى العالم أجمع — وإن كنت لم أعرف عنهما شيئاً — وحول منصة المباراة جلستْ أو وقفتْ ألوف مؤلفة من المتفرجين ، على أشد ما يكون الناس تحمساً واهتياجاً ؛ فكانوا يقفون ويقعدون ، ويلوحون بأيديهم ويخبطون الأرض بأقدامهم ويصيحون على نحو عنيف مثير ، كأنه يوم الحشر قد نفخ له فى الصور .

عندئذ ملت نحو صديقى أهمس فى أذنه . كيف تبلغ حرارة التحمس عند هؤلاء الناس كل هذا المدى ؟ ألسنا مثلهم ننظر إلى اللاعبين فنرى ما يرون ؟ لماذا — إذاً — ننظر فى هدوء وصمت ، وينظرون هم فى هذه الضجة الكبرى ؟ كيف يكون بين الناس كل هذه الفروق والمشهد واحد أمامهم ؟! .

فضحك صديقى الطبيب البارع ضحكته الرزينة الهادئة ، وقال : إن هؤلاء لا يتفرجون على الملاكمة وكفى كما نفعل نحن ، وإلا لما كان هناك كل هذا الفرق بيننا وبينهم ، لكنهم قد راهنوا بأموالهم على اللاعبين ،

فأصبح الأمر عندهم أمر كسب أو خسارة ، ومن ثم هذا الهيجان العنيف وهذا التحمس الشديد .

* * *

وأشهد أنى منذ تلك الملاحظة اليسيرة العابرة ، التى قالها لى الصديق الطبيب ، قد فهمت من مجرى السياسة المصرية ما لم أكن أفهمه من تيارات ودوافع ، وانكشف لى عن كثير من سرها الذى ليس بالسر عند النابهين المتنبهين الذين تمتلىء عروقهم بدم الحياة و يشتعلون حرارة بوقدة العيش ، و إنما هو سر ينتظر الكشف عند الغافلين المغفلين الذين يجملون أيامهم عملا وأكلا ونوماً .

فى حلبة السياسة المصرية تجىء وزارة وتمضى وزارة ، كالجياد رأيناها فى حلبة السباق تجىء وتمضى ؛ و بين الوزراء يجيئون و يمضون ، ما بين الجياد : فنهم وزراء عاملون قائمون على الحكم ، يشبهون الخيل وهى تجرى شوطها لا هثة من الجرى ، ومنهم وزراء متعطلون يقضون فترة الراحة ، فتراهم فى الأندية والدور يطعمون و ينعمون استجماماً واسترخاء ، استعداداً لدورتهم القادمة — فثلاثون عاماً من أعوام السياسة المصرية قد علمتهم أن الوزارة دورات متتابعة يتولاها فريق بعد فريق ، رضى الناس أو كرهوا .

أما الغافلون المغفلون فيقرءون خبر وزارة تجىء ووزارة تمضى ، على نحو

ما كنت مع صديق الطبيب أشهد الملائكة ؛ يقرءونه خبراً من الأخبار كما يقرءون — مثلا — أن مواعيد القطارات الذاهبة إلى الإسكندرية قد تغيرت مع قدوم الصيف أو حلول الشتاء ، فيترتب على ذلك تغيير يسير جداً في حياتهم ، أو لا يترتب عليه شيء قط ، إن لم يكونوا من أصحاب السفر والانتقال — وهم في كلتا الحالتين يقرءون الخبر بجنان ثابت وأعصاب هادئة ، ولا يكادون يفرغون من قراءته ، حتى يلقوا بالجريدة جانباً ، ليمضوا فيما هم ماضون فيه من عمل وأكل ونوم .

وأما النابهون المتنبهون فليست هذه حالهم ، فهم أشباه هؤلاء الألوف الذين شهدناهم حول حلبة السباق يراهنون بجهدهم كله ومالهم كله على هذا الحصان أو ذاك ، ثم يقفون بعد ذلك في تشوف وتطلع وقلق وأرق وانتظار ؛ ترى هل يكتب لهم في ميدان السباق صعود أم هبوط ؟ ترى هل يخرجون من الزحام ظافرين أم خاسرين ؟ .

ويختلف المراهنون في ميدان السياسة المصرية أحزاباً على نحو ما رأينا المراهنين في حلبة السباق يختلفون مذاهب : ألم تر فريقاً من المراهنين على الجياد يفضل الرهان على جواد كسبه قليل لكنه أكثر ضماناً من غيره لأنه سبّاق ؟ وفريقاً آخر يؤثر الرهان على جواد مغمور بعض الشيء لكن كسبه غزير موفور إن صادفه التوفيق وحالفه النجاح .

فهكذا يتخير المشتغلون بالسياسة المصرية أحزابهم : هل يناصر هذا

الحزب أو ذاك ؟ أما هذا الحزب فأشياعه كثيرون والرجحان فى الكسب من ورائه قليل ، وأما ذلك الحزب فأشياعه قليلون واحتمال الكسب من ورائه كبير ؛ وذلك الحزب الآخر لا رجال فيه ، فطريق الوزراء لأعضائه البارزين مفتوح . . وهكذا يأخذ المشتغلون بالسياسة المصرية فى المفاضلة بين حزب وحزب ، ثم يختلفون فى اختيارهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم ، فمن الناس من يحب المغامرة الجريئة التى إما رفعتهم إلى قمة الجبل الشاهق أو جاءتهم بالهلاك ، كهؤلاء الذين نقرأ عنهم فى الأساطير من طلاب الكنوز المدفونة فى الجزر البعيدة ؛ تراهم يركبون فى سبيل بغيتهم كل صعب ، فإما كنز يقعون عليه فتدين لهم الدنيا أو يهلكون ؛ لكن الناس فيهم إلى جانب هؤلاء المغامرين من أذهلم الحرص فأرادوا السير الهين السلس وإن أبطأ .

ورءوس الأحزاب المصرية على أتم علم بجوانب الموقف ما ظهر منها وما استتر ؛ فهم يعلمون حق العلم أن ليس الأمر بين الناس مرهوناً باختلاف الآراء وتشعب الفلسفات ، ليس الأمر عند المشتغلين بالسياسة المصرية موقوفاً على اختلاف المنهج ؛ فوزارة تجيء لأنها اشتراكية والناس قد صوتوا فى الانتخاب للحكم الاشتراكى ، أو لأنها محافظة على النظام الاقتصادى القديم والناس قد أرادوا عند التصويت لهذا النظام القديم أن يبقى ؛ إنما الأمر كله كسب شخصى وغنائم ، الأمر كله رهان فى حلبة

السباق : أى الجياد أقرب إلى أن يملأ جيوبى بالمال وجوفى بالطعام فأراهن عليه . . . وأدرك رؤساء الأحزاب المصرية ذلك أتم إدراك ، فراحوا — كلما جاء الحكم إلى فريق منهم — يغدقون على أنصارهم ألوان النعيم جزاء ما رهنوا ، ولقاء ما بذلوا من جهد جهيد فى الصياح والهتاف والقلق والأرق .

والسعيد فى هذا البلد هو من يهتدى فى حلبة السياسة إلى الجواد الرابح ، والشقى هو من ربط مصيره بجواد خاسر .

نظرة الطائر

يرتفع الطائر إلى السماء وينظر ، فتكون نظرته واسعة المدى بعيدة الأفق ؛ وأما الدودة فتنكفىء بوجهها نحو الأرض زاحفة ، فينحصر نطاق النظر عندها حتى لا يمتد إلى أبعد من أنفها .

ونحن فى كثير جداً من أمورنا — أفراداً ودولة — أقرب إلى الدود الزاحف منا إلى الطير المحلق فى الفضاء ؛ فترانا ننظر إلى «هنا» و «الآن» — على حد تعبير الإنجليز — أى ننظر إلى مواضع أقدامنا وإلى اللحظة الزمنية القصيرة التى نجتازها، ثم نتصرف بما يرضى ذلك المكان المحدود وهذا الزمن القصير العابر ، بغضّ النظر عما يترتب على ذلك من نتائج فيما هو أبعد قليلاً من نطاقنا المكانى والزمانى الضيق المحدود ؛ ولا غرابة إذاً أن ترانا ننقض غداً ما أبرمناه اليوم ، ثم نهدم بعد غد ما نبنيه فى الغد ؛ ذلك لأننا اليوم لا نفكر فى غد أو بعد غد ، وفى غد ننسى اليوم ونتناسى مايتلوه من أيام — كالتى نَقَضَت غَزْلها ، لولا أن التى كانت تغزل غزلها لكى تنقضه، ثم تغزله مرة جديدة لتنقضه ، وهكذا ، إنما كانت تقصد إلى المماطلة حتى يعود زوجها من سفره البعيد المجهول ، تخلصاً من خطّابها الكثيرين الذين لبثوا ينتظرون قرارها ، وقد وعدتهم ألا تنطق بقرار حتى تتم غزلها ،

ثم قصدت ألاتتمه أبداً ، فراحت تغزل وتنقض ماغزلت ، وهى عاملة بما تفعل مدبرة له ؛ وإذاً فمن الظلم على تلك المفكرة المدبرة التى ترسم لنفسها الخطة وتأخذ فى تنفيذها ، من الظلم عليها أن نقيس أنفسنا بها حين نريد تشبيهاً يصوِّر حالنا ، إذ نبنى اليوم ما نهدمه بعد حين ، عن غير تدبر ولا تفكير .

حين يرتفع الطائر إلى السماء لينظر ، تعتدل فى عينيه النِّسَبُ بين الأشياء مقروناً بعضها إلى بعض ، فيرى على وجه الدقة ضآلة الضئيل وعظمة العظيم ، إذ يرى — مثلاً — كم يكبر هذا البناء العالى ذلك الكوخ الصغير الوطىء ، لأنه يراهما معاً بنظرة واحدة فتسهل الموازنة والمقارنة ، أما إذا وقف ذلك الطائر على باب الكوخ ونظر ، فسيخيل إليه أنه إزاء عمارة جبارة ، أين هو منها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ؛ وسيحجب الكوخ عن عينيه ما وراءه من قمم عالية ، فينقلب الكوخ الصغير الوطىء فى عينيه مثلاً أعلى فى الارتفاع والسمو .

إن إدراك النسبة الصحيحة بين الأشخاص والأشياء والأفكار نعمة كبرى ، ليست تتوافر للناس جميعاً على السواء ، فهذا قد تدقّ عنده «حاسة النسبة» بين الأشياء دقة تهديه إلى وضع الأمور فى نصابها الصحيح ، وذلك قد تنعدم عنده تلك «الحاسة» انعداماً حتى لتراه يُكْبِر الصغير ويُصَغِّر الكبير وهو لا يدرى ؛ وما أشبه هذين برجلين متساويين

فى الدّخل ، فأما أولهما فيوزع ماله المكسوب على مقتضيات الحياة — ضروراتها وكالياتها — توزيعاً تراعى فيه النسبة الصحيحة ، فلايضطرب له أمر ، وأما الثانى فقد تتملكه الشهوة نحو شئ بعينه فيزيغ بصره عما عداه ، وينفق ماله كله فى ناحية واحدة لأن عينه قد عميت عن سائر النواحى ، فيختل التوازن وتضطرب الحياة .

ولعلنا إذ نصف إنساناً بأنه « عاقل » فى طريقة تصرفه فى حياته ، فإنما نريد بهذه الصفة أنه ينظر إلى أموره الكثيرة نظرة الطائر ، ليراها كلها فى لمحة واحدة ، فيتسنى له أن يوازن ليقدر النسبة الصحيحة بين أحجامها ، وعندئذ يقدم الأهم على المهم لأنه قد وقف الوقفة التى تكشف له أين الأهم وأين المهم وأين ماليست له أهمية فيحذف من قائمة الحساب ؛ فالإنسان حزمة من شهوات ورغبات ، وليس من الحكمة أن تقتلع تلك الشهوات والرغبات اقتلاعاً من أساسها ؛ فتلك هى النظرة القديمة التى استبدت بتفكير الإنسان عصوراً طويلة ، على اعتبار أن الشهوات والرغبات هى من مقتضيات الجسد ، والجسد منبوذ مكروه محتقر دنىء ، بكل ما يتعلق به وبكل ما يقتضيه ؛ أما الصحيح فهو أن نضع هذا الجسد البشرى موضع التقدير ، وكدت أقول موضع التقديس ؛ ولكم عانى الناس ضروب العنت والإرهاق بسبب أن أجسادهم لم تكن هى موضع الاعتبار من أولى الأمر ، فلبثت تلك الأجساد تتضور من جوع وتئن من ألم لأن أصحاب

الشأن مشغولون « بالمثل العليا » التي هي وراء الأجساد وتزدرى التفكير فى الجوع والألم ! لكن ذلك استطراد قد بعد بنا عما أخذنا فى تقريره ، وهو أن الإنسان حزمة من شهوات ورغبات ، ليس من الحكمة فى شىء أن تُجتث وتقتلع ، وإنما الحكمة هى فى نسبتها بعضها إلى بعض نسبة صحيحة ؛ فأشبع هذه الرغبة منّى ضعف ما أشبع تلك ، إذا رأيت ذلك يحقق لى فى النهاية اتزان الحياة وهدوءها واطراد رقيها — ولست أستطيع إدراك هذا التناسب إلا إن وقفت من رغباتى جميعاً موقف الذى يراها دفعة واحدة ، وتلك هى نظرة الطائر .

وما أكثر ما نصف بالجنون إنساناً ، إذا حللنا وجه النقص فيه ، وجدناه انحصار نظره فى نطاق ضيق من جوانب حياته ، أو خضوعه خضوعاً تاماً لعاطفة واحدة أو فكرة واحدة فرضت نفسها عليه فلم يعد يستطيع رؤية ما وراءها أو الإحساس بما عداها ؛ فالذى ينصرف بكل شعوره نحو الحزن على وليد فقده أو مال أضاعه ، مجنون جنون الذى ينصرف بكل إنفاقه نحو الخمر غير آبه لما يتطلبه العيش من رداء ومسكن وخبز وماء ؛ وموضع الجنون هنا هو فى النظر بعين الدودة المتكفئة بوجهها نحو الأرض فلا ترى أبعد من مليمترين أو ثلاثة ، فتفوتها الدنيا الواسعة العريضة من حولها .

و « العاقل » فى نظرته إلى الأمور نظرة الطائر ، يضيف المستقبل

إلى الحاضر فى اعتباره ، وكلما ارتفع الطائر الرأى ازداد الطول الزمنى الذى يقع له فى مجال رؤيته ، واتسعت أمامه رقعة المستقبل الذى لابد أن يدخله فى حسابه وهو يقضى فى شئونه بهذا القرار أو ذاك ؛ ومن هنا قيل إن الموازنة بين الرغبات عند إشباعها وتفضيل بعضها على بعض ، تحسب حساب المدة إلى جانب حسابها للحدّة ؛ فقد تكون الرغبة الآن حادة شديدة ملحة تناديك بإشباعها إشباعاً سريعاً ، لكن أثر إشباعها لن يقيم معك إلا لحظة قصيرة ثم يمضى ، بل قد تترك وراءها من النتائج ما يسبب آلاماً أضعاف اللذة التى نجمت عن إشباعها ، فمثل هذه الرغبة — عند « العاقل » — يجب أن تفسح الطريق لرغبة أخرى أطول منها أمداً فى بقاء الأثر وإن تكن أقل منها حدّة وإلحاحاً فى اللحظة الراهنة .

وكذلك الأمر فى الدولة وسياستها ؛ فقد توصف الدولة بأنها بعيدة المدى فى سياستها أو قصيرة المدى ، والفرق بين الحالتين هو الفرق بين نظرة الطائر ونظرة الدودة : الدولة فى الحالة الأولى توسع من نطاق الرؤية حتى لتضم مئات السنين المقبلة فى اعتبارها وحسابها ، وهى فى الحالة الثانية تضع أنفها على الرغام وتنظر ، فإذا اللحظة الراهنة ومقتضياتها هى كل ما هنالك ، وأنا أترك للقارئ أن يحكم لنفسه بأى النظرتين تنظر الدولة فى بلادنا : أهى من قبيل ما ينظر الطير أم من قبيل ما ينظر الدود ؟

وكذلك تتحكم فينا نظرة الدود فى علاقتنا بعضنا ببعض ؛ فقد أوصينا

برعاية ذوى القربى ورعاية الجار ، ولو سألنا : من هم ذوو القربى ومن هو الجار الذى تجب علينا رعايته ؟ كان الجواب عند الدودة غيره عند الطائر : « القربى » عند الدودة هى « القُرْب » المكانى الزمنى ، فلا قرابة إلا لمن التصق بجلدك التصاقاً ليدخل فى نطاق نظرك الضيق ، وإلا فلو بَعُد قليلاً فلا سبيل إلى رؤيته وإدراكه ، لأن الوجه منكفئ نحو الأرض فلا يرى ؛ وكذلك الجار هو من تمد يدك فتلمسه إلى جوارك ؛ لكن الطائر حين يرتفع ويتسع نطاق إدراكه ، تزداد فى عينه المسافة من مكان وزمان ، ويصبح « البعيد » فى الحقيقة « قريباً » ، فذوو قرباه عندئذ يزداد عددهم ، كما يزداد عدد جيرانه .

إن أصحاب النظرة البدائية الإقليمية المحدودة هم الذين يحسبون القربى محصورة فى الأسرة وأفرادها ، ويحسبون الجوار فى تلاصق جدران المنازل ؛ وإذا علوت بنظرك ، أصبحت الأمة كلها من ذوى قرباك ، وأصبح الشعب كله جيرانك — ثم إذا ازددت ارتفاعاً حتى تقرب من مواضع الآلهة ، كان ذوو القربى هم الإنسانية كلها ، وكان الجيران هم أفراد البشر جميعاً .

إنه لما يستوقف النظر فى هذا الصدد ، أن الفلاسفة الذين كتبوا فى الدولة المثلى ، تفاوت فى أعينهم الحجم بتفاوت أزمانهم ؛ فأفلاطون يرى الدولة المثلى فى « مدينة » واحدة ، لأنه لم يكن يتصور أن التماسك

الاجتماعي ممكن إذا اتسعت رقعة البلاد اتساعاً يجاوز بها حدود المدينة ، وهو فى ذلك بغير شك صادر عن تفكير عصره السياسى والأخلاق معاً ، فكأنما الإنسان عنده قد ضاق به الخيال حتى ليعجز عن مؤاخاة إنسان آخر فى مدينة أخرى ؛ وجاء « توماس مور » فى عصر النهضة الأوربية فكتب فى الدولة المثلى ، وجعلها جزيرة لا مدينة ، لأن الأفق الإنسانى كان قد اتسع بعض الشيء ؛ ثم جاء بعد ذلك من الكتاب الأوربيين — مثل أوجست كونت وصموئيل بتلر — من نجعل الدولة المثلى هى أوربا جميعاً بعد أن تتحد دولها كلها فى دولة واحدة ؛ وهى دعوة شبيهة بما يدعو إليه فريق من ساسة هذا العصر ؛ وأخيراً جاء « ولز » وكتب كتاباً فى الدولة المثلى فجعل حدودها الكرة الأرضية بأسرها — وهكذا ترى الطائر يزداد ارتفاعاً على مر الزمن ، فيزداد أفقه اتساعاً .

أعتقد أننا نصيب إذا قلنا إن نظرة الطائر علامة من علامات التقدم والرقى ، ونظرة الدودة دليل على التأخر والبدائية .

ترى فى أى مرحلة نحن من مراحل الطريق ؟ .

تمثال فيدياس

فى محاورة « هبياس الكبير » لأفلاطون ، يدور نقاش بين سقراط وهبياس عن الجمال ما هو ؟ ويستطرد الحوار بينهما سؤالاً وجواباً ، حتى يبلغ موضعاً يدور فيه الكلام على الصورة الآتية :

هبياس — لو كان ، يا سقراط ، كل ما يريده منى السائل عن معنى الجمال ، أن أدله على شىء يخلع الفتنة على كل الأشياء الفاتنة ، بحيث يبدو الجميل جميلاً إذا ما أضيف إليه ذلك الشىء ، فليس أيسر من الإجابة عن مثل هذا السؤال ، ولا بد أن يكون السائل فى هذه الحالة غاية فى السذاجة والفقر فى ذوقه الفنى ، لأنك إذا أجبته عن سؤاله بقولك : إن الجمال الذى يسأل عنه ، إن هو إلا الذهب ، أخرسه الجواب ولم يستطع أن يقيم له اعتراضاً ؛ لأننا جميعاً — فيما أظن — متفقون على أن الشىء إذا طلى بالذهب ، حتى وإن كان قبيحاً قبل طلائه ، فسيبدو جميلاً بعد إضافة الذهب إليه .

سقراط — إنك لاتدرى إلى أى حد تبلغ البدائية الجاهلية من صاحبنا السائل يا هبياس ؛ ولا تدرى كم يتعذر عليك أن تقنعه .

هبياس — وماذا يضيرك من أمثال هذا البدائى يا سقراط ؟ إنه إذا

لم يرض بقولة الحق ، فسيكون هو أضحوكة الضاحكين .

سقراط — لكنه مع ذلك سيكون أبعد ما يكون الإنسان قبولاً لمثل جوابك هذا ، وسيتناولنى أنا بلاذع تهكمه ، قائلاً : هل أصاب رأسك مَسٌّ من جنون حتى لتظن أن « فيدياس » نحّات ردىء ؟ وعندئذ لا بد لى من الاعتراف له بأنى لا أظن مثل هذا الظن بفدياس .

هبياس — وستكون فى اعترافك هذا على حق ياسقراط .

سقراط — بالطبع ؛ ومع ذلك فإذا ما اعترفت له بأن فدياس فنان مُجيد فى فنه ، سيقول لى على الفور : « وهل تظن أن فدياس لم يكن على علم بمثل هذا الجمال الذى تحدثنى الآن عنه ؟ » وعندئذ سأستفسره ما يريد بسؤاله هذا ، وسيجيب قائلاً : « لأن فدياس حين نحت تمثال « آثينى » لم يجعل عينيها من ذهب ، إنما صنعها من عاج ، ألم يكن الذهب (على رأيك) ليزيدها جمالاً ؟ ولا بد أن يكون خطؤه هذا فى فنه راجعاً إلى جهله بهذه الحقيقة التى جئت تقررها لى اليوم ، وهى أن كل شىء جميل إنما يستمد جماله من الذهب » — فبماذا ترد اعتراضه هذا ياهبياس ؟ .

هبياس — ليس فى ذلك شىء من عسر ، سنقول إن فدياس كان على صواب فيما فعل ، لأن العاج أيضاً جميل .

سقراط — لكنه سيعود إلى السؤال قائلاً : « ولماذا صنع فدياس الحدقتين (فى تمثاله) من الحجر ، فجاء الحجر والعاج على أتم ما يكون الانسجام ؟ أم هل تقول إن الحجر الجميل هو كذلك - كالذهب والعاج - شيء جميل ؟ .

هبياس — نعم إن الحجر حين يوضع فى موضعه المناسب يكون جميلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتراف بجماله عندئذ .

سقراط — وإذا سألنى إن كان الحجر يبدو قبيحاً لو وضع فى غير موضعه الملائم ، فهل أوافقه أو لا أوافقه ؟ .

هبياس — لابد لك من موافقته يا سقراط .

سقراط — عندئذ سيجيبنى قائلاً : إذاً فخلاصة حكمتك هى أن العاج والذهب يخلعان على الأشياء جمالاً على شرط أن يجيئا ملائمين ، أما إذا أضفت إلى الشيء عاجاً أو ذهباً فى غير ملاءمة فسيكون الشيء قبيحاً برغم ما أضيف إليه من عاج أو ذهب ؟ » . . . الخ .

* * *

وأحسب القارىء على أتم اتفاق مع هذه النتيجة التى انتهى إليها سقراط فى هذا الجزء من محاورته مع زميله هبياس عن معنى الجمال ؛ إنه الملاءمة والتناسب ، مهما تكن المادة التى بين يديك ، فالذهب فى الموضع

الخطأ قبيح ، والحجر فى الموضع الصواب جميل .

ليس الجميل جميلاً ولا القبيح قبيحاً فى ذاته بغض النظر عما يحيط به من ظروف وملابسات ، فالشيء الواحد يكون جميلاً هنا قبيحاً هناك ، لأنه هنا متفق متسق مع محيطه ، وهو هناك متنافر نشاز ؛ وكثيراً مايعاد تنظيم الأجزاء مع بقائها على عددها بغير حذف أو إضافة ، فتصبح جميلة بعد قبح ، أو قبيحة بعد جمال .

وما جمال الشعر أو النثر الفنى ؟ إن هذا أو ذاك قوامه ألفاظ من القاموس ، لكنه الوضع الصحيح للفظة بالنسبة إلى ما يجاورها هو سر الجمال عبارة وتعبيراً ؛ والمشاعر نفسها قد تَجْمُلُ أو تَقْبُح بائتلافها أو اختلافها مع المحيط ؛ فالضاحك فى مأتم قبيح كالباكى فى عرس سواء بسواء ؛ وهذا هو نفسه معنى النشاز فى أنغام الموسيقى ؛ فالنغمة نشاز مرذول بالنسبة لما حولها من نغمات ، وربما كانت هى نفسها نغمة جميلة فى موضعها المناسب ؛ والقذارة مادة كأية مادة أخرى ، لكنها وضعت فى غير موضعها الصحيح فأصبحت « قذارة » تشمئز منها النفوس ؛ وهكذا وهكذا من الأمثلة التى لاتنتهى ، مما يقطع بصواب هذه النتيجة فى معنى الجمال — وهى أن الشيء يستحيل الحكم عليه فى ذاته بجمال أو بقبح مجرداً عن موضعه بالنسبة إلى سائر الأشياء .

وبديهي أن هذه الحقيقة الواضحة تظل حقيقة فى صغار الأمور وكبارها على السواء ؛ فليست الأنظمة السياسية والاجتماعية بالشيء الذى يوصف بالجمال أو بالقبح ، أو يوصف بالصواب أو بالخطأ ، مجرداً عن الظروف التى يراد لتلك الأنظمة أن توضع فى وسطها ؛ فإذا كان من الحكمة أن تعامل الطفل على أنه طفل وهو طفل ، فمن الحكمة كذلك أن تعامل الجاهل على أنه جاهل وهو جاهل ؛ أما إذا طالبت الطفل أن يسلك سلوك الرجال ، أو توقعت من الجاهل أن يتصرف تصرف العلماء ، فأنت متطلب من الأشياء ضد طباعها ، وموقفك فى كلتا الحالين خطأ قبيح .

إنى حتى هذه الساعة من حياتى ما أزال أعانى كلما عاودتنى ذكرى طفولتى حين كنت أتصرف كما يتصرف الأطفال بحكم طبائعهم المفطورة فيهم ، فإذا بالصفعات تأتينى من حيث أدرى ولا أدرى ؛ ذلك أن والدى رحمه الله كان يريدنى رجلاً فى سلوكى وأنا بعد فى الخامسة من عمرى أو نحوها : كان يعطينى المال ويطلب منى أن أشترى له كذا بكذا وأعيد له بقية ماله ، وكثيراً ما كنت أخطىء فى وصف ما حدث فينزل بى العقاب السريع ، على الرغم من أنى كنت أعود له ببقية ماله صحيحة كاملة — لا ؛ إنه لم يكفه منى أن أذهب إلى الدكان كالآلة الصماء فأشترى كذا وأعود له بكذا ، بل لابد لى أن أبين له لماذا كان الحساب على نحو ما كان ؛ ولم يكن ذلك الحساب فى مقدورى عندئذ ؛ وإذاً فما أقبح

— فى رأيه — ألا أكون مثله فى سرعة الحساب ودقته ، وهيهات له أن يقتنع بأقوال الوسطاء ، بأن الطفل لايطلب إليه ما يطلب إلى الرجل .

ولست أدرى لماذا أحكم على أبى الآن بالخطأ ، ولا أحكم بهذا الخطأ نفسه على دولة تتولى أمور أمة فى دور الطفولة ، وتصر على أن تضع لها من الأنظمة السياسية والاجتماعية ما لا يتسق إلا فى أمة اكتمل نموها ونضجها ؛ فتكون النتيجة المحتومة أن تعجز الأمة الطفلة عن هضم الغذاء لأنه أكثر دسماً مما تحتمله معدتها ، و ينتهى بها الأمر إلى حال من الذبول والموت ، وقد أراد لها ولاتها الحياة والنمو ، أرادوا لها ذلك بنية حسنة طيبة ، لكن الطريق إلى الجحيم قد يكون مرصوفاً بأطيب النيّات .

* * *

لكننا أمة دستورها فى الجمال هو طلاء الشىء بالذهب ، فحسب العين أن تقع من الشىء على ظاهر لامع يخطف البصر ببريقه ، وليكن بعد ذلك من حقيقة الباطن ما يكون ؛ فما نزال نهتدى فى كل أمورنا بالقول السائر بأن « الجرن الكبير خير من شماتة الأعداء » — وليس يهمنا بعد ذلك فى كثير أو قليل أن يكون ذلك الجرن الكبير مليئاً بالغلال أو خاوياً ينعى من بناه .

الأفراد ! الأفراد !

إذا جعلتُ قصة « الوعاء المرمرى » لأستاذنا الأديب الفاضل محمد فريد أبو حديد ، موضـــوع حديثى إلى القراء فلأنهـا قصة قد أثارت فى نفسى كثيراً جداً من مشكلاتنا الاجتماعية والأدبية على السواء .

إنها « قصة جهاد بطل وأمة — من حياة سيف ابن ذى يزن بطل اليمن » ، ولعل أديبنا الفاضل قد أراد بها اليوم أن تـكون تحية منه يهديها إلى المجاهدين فى سبيل الحرية القومية بمثل ما جاهد سيف بن ذى يزن فى تحرير بلاده من الحبشى الغاصب — لعله أراد بكتابه هذا أن يكون تحية منه لشباب اليوم من المجاهدين ، يهديها إليهم من ذكريات شبابه ، عندما كانت الثورة المصرية فى عزها تلهب نفسه الحساسة بحرارة الإيمان والأمانى ، أيام أن غمسته روحه الوطنية فى بنى قومه من أبناء الشعب فى إحدى ندواتهم « البلدية » ، حيث يعتلى « الشاعر » منصة لينشد للسامعين قصة سيف بن ذى يزن . . . فـ « هذه القصة التى أكتبهـا اليوم بعد مضى أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الأيام البعيدة ما هى سوى تحية أؤديها لذكرى اللحظات المجيدة التى كنا نجاهد فيهـا بأنفسنا ونسخو فيها بأرواحنا ، لا نسأل أحداً عليها أجراً ولا شكراً . . . ثم هى تحية

للشاعر الذى ما زالت صورته ماثلة فى الذكرى وإن كان اليوم يثوى فى مضجعه الأبدى ، لا يذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع من ضمير الغيب . . . »

وأول ما نذكره مما يعنينا الآن من هذا الكتاب النفيس هو أنه قصة أدبية ، أجراها كاتبها على قواعد الفن القصصى ، وليس بذى وزن كبير فى العمل الأدبى أن يكون موضوعه منتزعاً من التاريخ أو لا يكون ؛ بل لا يجوز للناقد أن يحاسب الأديب على صدق ما ورد فى قصته من تاريخ ، مستنداً فى محاسبته إياه إلى المدوّنات والوثائق ، لأن صفة التاريخ فى القصة الأدبية عَرَضٌ ، والأصل فيها تصوير الأشخاص الذين تقوم القصة على أقوالهم وأفعالهم .

فلا يكاد الناقد يسأل : هل صدق شيكسبير — مثلا — صدقاً تاريخياً فى مسرحياته « هنرى الثامن » و « رتشارد الثالث » و « أنطونى وكليوباترة » وغيرها من رواياته التاريخية — يكاد الناقد لا يسأل هذا السؤال ، لأنه يعلم أنه بصدد عمل أدبى أنتجه فنان ؛ فالسؤال فيه إنما يكون : هل رسم الفنان هذا الشخص أو ذاك رسماً يجعله ذا طابع فردى متميز ، كالذى يتسم به الأفراد الأحياء الذين نصادفهم فى الحياة ويصادفوننا ؟ هل هذا الملك أو هذا العاشق أو هذا الخادم ، قد تكاملت فى صورته العناصر تكاملا يتمم فيه بعضها بعضاً ، كما تتكامل الأجزاء

فى أى كائن عضوى بصفة عامة ، وفى أفراد الإنسان بصفة خاصة ؟

لقد أتاحت السينما منذ حين لألوف المتفرجين أن يشهدوا مسرحية « قيصر وكليوباترة » لبرنارد شو ، فشهدوا قيصر وكليوباترة على غير ما ألفوا سماعه عنهما من كتب التاريخ ، لذلك كان النقد الذى يدور على ألسنتهم هو هذا : إن الأديب قد أخطأ هنا لأن كذا قد حدث ، وأخطأ هناك لأن كيت لم يحدث . . . ، كأنما قد قطع الأديب لهم عهداً على نفسه بأن يكون مؤرخاً يحاسَب بالوثائق والمراجع والأسانيد .

إن بين العلم والفن فارقاً لو جعلناه نصب أعيننا ، ضاقت شقة الخلاف بيننا فى تقدير الآثار الفنية تقديراً نميز به غثها الزائل الفانى من سمينها الخالد الباقى ، وذلك هو أن العلم تعميم والفن تخصيص ؛ العلم يبحث فى أفراد من النوع الواحد ، لا ليقف عند الأفراد فى ذواتها ، بل ليسقط من حسابه المميزات الخاصة التى يتصف بها كل فرد على حدة ، ويبقى العناصر المشتركة التى تعم أفراد النوع جميعاً دون تمييز بين فرد وفرد ؛ فإذا قال العلم — علم النفس مثلا — إن الإنسان من طبيعته جمع الأشياء وحيازتها ، كان قوله هذا نتيجة ملاحظة عدد من أفراد الناس ، والتقاط الصفة أو الصفات التى يشتركون فيها ؛ فإذا كان هذا الفرد معنياً بجمع المال ، وذلك معنياً بجمع الكتب القديمة ، والثالث بجمع الآثار الخزفية ، أسقط العلم ما يختلفون فيه مما يُجمع ، وأبقى على المشترك بينهم وهو أنهم

يجمعون و يملكون ؛ أما الفن فيقف عند الفرد الواحد ليبرز ما قد اختص به بحيث أصبح متميزاً من غيره متفرداً ، ويكون نجاح الفنان بمقدار توفيقه فى الاهتداء إلى هذه الصفات الخاصة المميزة للحالة المفردة التى يصورها ، وترتيبها على نحو يبرز لنا فى النهاية إنساناً معيناً بذاته الفذة الوحيدة .

فالعلم والفن كلاهما يتناولان الأفراد الجزئية ، أما العلم فيتناولها ليأخذ ما تشترك فيه من صفات ثم يهملها ، وأما الفن فيتناولها ليقف عندها من بدايته إلى نهايته ؛ وعندى أن الشرق بصفة عامة قد زاغ بصره عن الفردية التى تميز إنساناً من إنسان وحالة من حالة ؛ ولذلك فقد أفلت منه العلم والفن معاً إلى أقوام آخرين تقف أنظارهم عند الفوارق بين الأفراد والأشياء ؛ ولقد عبرت عن رأيى هذا حين أخرج الأستاذ توفيق الحكيم مسرحيته « الملك أوديب » وقدم لها بمقدمة طويلة يحاول فيها تعليل غياب المسرحية من الأدب العربى القديم . فقلت عندئذ إن رأيى هو أن الأدب المسرحى — والقصصى أيضاً — يستحيل قيامه بغير التفات إلى تميز الشخصيات الفردية بعضها عن بعض ؛ فلو نشأ الكاتب فى جو ثقافى لا يعترف للأفراد بوجود ، ويطمسهم جميعاً فى كتلة واحدة من الضباب الأدكن ، فلا سبيل أمام هذا الكاتب إلى تصوير الأفراد فى قصة أو مسرحية ؛ والشرق كله قد طمس الفرد طمساً ولم يترك له مجالا يتنفس فيه ؛ فالأفراد فى الثقافة الهندية كلها « مايا » — أى وَهْم

لا وجود له — والموجود الحق عند الهنود هو الكون كلا واحداً لا تَفَرُّد فيه ولا تكثُّر ؛ وقلْ مثل هذا فى الصين وفى كل بلاد الشرق بصفة عامة ؛ الحضارة الشرقية كلها تغفل شأن الفرد وتجعله جزءا من شيء أعم منه ، فهو عند العرب جزء من القبيلة ، فلا وزن له إلى جانبها ولا قيمة له بالقياس إليها ؛ وما كذلك اليونان ، لأن الفرد عندهم هو محور التفكير — حتى الآلهة عندهم أفراد لهم مميزاتهم ومشخصاتهم ؛ ومن هذين الاتجاهين المختلفين فى الشرق والغرب ، نشأت الديانات فى الشرق ، ونشأ العلم والأدب فى الغرب ، لأن معظم الديانات أساسها التوحيد بين الظواهر المختلفة ؛ وأما العلم والفن فأساسهما التمييز بين تلك الظواهر — العلم يميز الأنواع والفن يميز الأفراد — وهكذا لم يعرف الشرق « أشخاصاً فردية » فلم يعرف مسرحية ولا قصة .

وأعتقد أن أكبر تطور طرأ على أدبنا فى الفترة الأخيرة هو بداية الالتفات إلى الأفراد وتصويرهم ، وقد كان ذلك نتيجة — أو كان هو المقدمة لست أدرى — لتطورات مماثلة فى السياسة والاجتماع ، فالحكم البرلمانى يستدعى تصويت الأفراد كل فرد بذاته ، ونظام الأسرة قد أخذ يخلخل الهواء بعض الشيء حول الأفراد لتظهر لكل فرد شخصيته ، وبخاصة المرأة وعلاقتها بزوجها أو أبيها ، ورجال التربية يصيحون آنا بعد آن أن افتحوا أعينكم للفوارق بين الأفراد .

أقول إن أكبر تطور طرأ على أدبنا فى الفترة الأخيرة فيما أعتقد ، هو بداية الالتفات إلى الأفراد وتصويرهم ، فالدكتور طه حسين يصور فى « الأيام » إنساناً واحداً بذاته ، هو نفسه ، والدكتور أحمد أمين يصور فى « حياتى » إنساناً واحداً بذاته هو نفسه أيضاً ، والأستاذ توفيق الحكيم يصور فى مسرحياته أشخاصاً أفراداً ، والأستاذ العقاد يصور فى « ساره » إنسانة واحدة بذاتها وهكذا « زينب » لهيكل و « إبراهيم الكاتب » للمرحوم المازنى ، وهكذا .

وقد ادخرت الأستاذ فريد أبوحديد فى كتابه الجديد «الوعاء المرمرى» لأدير حوله بقية الحديث ؛ « فالوعاء المرمرى » ظاهرة جديدة تضاف إلى غيرها من أشباهها التى تدل على هذا التطور الجديد فى الأدب العربى . . العناية بالأفراد وتصويرهم فى قصة أو مسرحية أو غير ذلك .

لذلك كان أول ما عجبت له فى « الوعاء المرمرى » أن يعلن الكاتب منذ البداية على لسان الشاعر المنشد ، وهو يمهد لقصته التى ينوى إنشادها ، مبدأ طمس الأفراد فى عجينة الزمان ، إذ يقول : « كل فرد . . . يحسب أنه يجرب ما لم يجرب أحد من قبله ، ويدرك ما لم يدركه أحد غيره ؛ يذوق الحب فيحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب . . . ولكن الزمان يرمقه باسماً وينادى بصوت خفى قائلا : هكذا كانوا دائماً » .

لكن الأفراد لا يكونون « هكذا دائماً » إلا إذا غضضنا النظر عن مميزاتهم الفردية التي تجعل زيداً غير عمرو ؛ فالمحب الذي يحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب ، ليس مخطئاً في حسابه ، وإنما أخطأ الحساب من ظن أن كل العاشقين سواء ؛ بل أخطأ من ظن أن العاشق الواحد شبيه بنفسه في كل حالاته ، ولو كان العاشقون كلهم سواء لكفانا تعريفهم بأرقامهم كما تعرف إدارة الجيش جنودها ، أو وزارة المعارف المصرية تلاميذها .

إنه يستحيل علينا أن نفهم معنى الحرية التي نطالب بها جاهدين ، ما لم يتقرر في أذهاننا أولا أن الأفراد تفصلهم فواصل ، فلكل منهم شخصه وكيانه ؛ وإذا كانت الحرية المنشودة معنى مجرداً ، فقد كان حسبنا منها أن تسجل في الكتب والقواميس ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ؛ لكنها حرية منشوده لأفراد ، منشوده لزيد وعمرو وفاطمة ، ولن يحاسب الله عباده « بالجملة » على اعتبارهم جميعاً « هكذا دائماً » بل سيحاسبهم الله فرداً فرداً ، لأن لكل فرد قائمة من أعمال وأقوال تفرد بها — وهي نفسها عمل الأديب .

وقصة « الوعاء المرمرى » زاخرة بأشخاص ، تبينت في بعضهم الملامح الفردية وغمضت هذه الملامح في بعضهم الآخر ، فالحمد لله الذي جعل أستاذنا فريد يتسامح في تطبيق مبدئه الذي يمحو الأفراد

فى غمرة الزمان ، فيخرج لنـا أشخاصاً برزت فيهم الملامح والسمات ، فجاءت كسباً للفن بل كسباً للحياة ذاتها ، لأنها تضيف إلى الأحياء أفراداً آخرين يضمن لهم التسجيل الأدبى طول البقاء .

لقد أفلتت من أديبنا الفاضل عبارة وقفت عندها لحظة متمنياً أن تـكون هى مبدأه فى التصوير الفنى لأشخاصه ؛ وذلك حين يروى عن « خيلاء » أحلامها وهى « تنظر إلى الأغصان تتأملها كيف تتداخل وكيف تتعانق ، وإلى أشكال أوراقها وصور ثمارها ؛ كان بعضها منسرحا ليناً غضا وبعضها معقداً جافاً وبعضها يمتد بظله الوارف وبعضها يسمو بجذعه الفارع ؛ حتى الأشجار لا يشبه بعضها بعضا ، وحتى الغصون لا تتساوى فى هيئتها وإن كانت فروع شجرة واحدة . . . » — فهـكذا يختلف الأحياء .

ومن الأشخاص الأحياء الذين خلقهم أستاذنا خلق فنان قدير ، « أبو العيوق — ربان السفينة — ففى صفحات قلائل أتم له الأديب خلقته الـكاملة بملامحها الفريدة ، فهو الجبان « النتّاش » الثرثار الفـكه ، الذى ينطبع حديثه بطابع خاص ، فيـكرر عبارة « نسائى طوالق وسفنى غوارق » كلما همّ أن يقرر شيئاً يقسم على صدقه ؛ كذلك وفق كل التوفيق فى صورة « طلبية » الفتاة الشرود التى تحب فتهب حياتها للحب وتـكره فلا تبالى أين تندفع مع كراهتها .

لـكنهما شخصان ثانويان فى القصة ، والعجيب أنهما جاءا معاً فى السياق ، كأنما كانت ربة التصوير الفنى تصاحب أديبنا عندئذ فتلهمه الصواب ؛ ويتلوهما فى جودة الخلق وسوائه « أبرهة » الطيب المتدين الذى يلين قلبه لحب « ريحانة » رغم دهائه فى السياسة وبعد طموحه ؛ وقد كان « للضحكة المزغردة » التى يضحكها حيناً بعد حين ، نصيب موفور فى تحديد صورة الرجل ، مما يدل على أن التصوير الفنى يعتمد على أتفه الخصائص وأعظمها على السواء ؛ ومما تجدر ملاحظته أن « أبرهة » هذا هو المغتصب الذى قام « سيف » لاسترداد بلاده من أسرته ، والذى كان يُنتظر من الأديب أن يقصد فى تركيبه إلى بث النفور منه عند القارىء ، حتى يمهد النفس لاستقبال بطولة « سيف » ومع ذلك فيستحيل على قارىء — فيما أعتقد — أن يخرج من القصة وهو كاره لأبرهة ؛ ترى هل أراد أديبنا شيئاً فغلبته شخصية « أبرهة » فيما أراد ، كما غُلب « ملتن » أمام « الشيطان » فى ملحمة الفردوس المفقود — حين أراد أن يصب الشيطان فى صورة كريهة لتظهر بالمقارنة قوة الله وجلاله ، فإذا نحن فى النهاية إزاء قوة تبهر النفس وتغرى بالمحاكاة ؟ !

ويجىء بعد ذلك فى درجة الجودة الفنية « خيـلاء » حبيبة « سيف » ، فهى الفتاة الطاهرة المتدينة صاحبة الذوق الفطرى فى تفهم الأدب والفن ، التى تحس بدافع المرأة فى جوفها لـكنها تجفل ، كأنمـا

هى شبيهة بقديسة ترى الرجس فى غرائز الإنسان .

ومن خير ما كسبناه بهذا الأثر الأدبى النفيس ، أن الأستاذ فريد قد صور نفسه — عن وعى منه أو غير وعى — صور نفسه الرقيقة المحببة إلى عارفيه جميعاً ، صورها فى شخصية « أبى عاصم » — « فأبو عاصم » هو « أبو حديد » فى رصانة عقله وفى حبه للخير وفى طيبة قلبه وفى حبه للأسلاف وتراثهم ، بل وفى تعليمه للناشئة عن فطرة أبوية سليمة ، حتى لقد عرفت كثيراً عن حياة أستاذنا فريد — مما لم أكن أعرفه — من صورة أبى عاصم ؛ فقد ارتعش قلبه للحب الطروب ، وهو على شىء من الوحشة واليأس مما حوله فى عصرنا هذا الذى كتبت فيه الغنائم للصوص . ولم يعد به مكان لأصحاب الفكر والأدب والعلم والحكمة ؛ ولعله قد تعمد أن يضع لنا « نفيل بن حبيب » النفعى الماكر . جنباً إلى جنب مع « أبى عاصم » كى يتم تصويره لنفسه فى بطانة عصره هذا الذى نعيش فيه .

وأما « سيف » و « ريحانة » و « مسروق » فقد كانوا جميعاً أمام عينى كأنهم أجلسوا فى صندوق من زجاج قد ترى شفاههم متحركة بالكلام أحيانا ، لكنك لا تسمع مما يقولون شيئا . فيتولى الكاتب عنهم الكلام فى كثير من الأحيان ، وتشعر أنت كأنك فى متحف أثرى ومعك الدليل يشرح لك ما تراه من تماثيل ، فهؤلاء المساكين قد ضاعوا فى غمرة الزمان الذى يجعل الناس « هكذا دائما » ؛ فإذا تذكرنا أن

« سيفا » هو البطل الرئيسي الذى ملأ قلب الكاتب بادىء ذى بدء ، وأراد تصويره قبل أن يريد ذلك لأحد سواه ، عرفنا فداحة الخسارة فى فقده بين من أغرقهم التيار الذى يطمس الأفراد .

قد كنت ألاحظ أشلاء متناثرة عن شخصية سيف ، فكنت ألاحظ نفسه القلقة الهائمة السابحة فى خيالها ، وألاحظ تردده الذى كاد يقرّبه فى مخيلتى من « هاملت » وألاحظ احتقاره للذهب بالقياس إلى أهدافه العليا — لكنى لاحظت ذلك كله أشلاء متناثرة ، ولا «شخص» هناك — وربما كان النقص فى إدراكى أنا لما بين الأشلاء المفككة من وحدة ؛ أو لعله سوء الحظ الذى جعلنى أبدأ منذ الخطوة الأولى فى مقارنته ب« هاملت » فى قلقه وتردده ورغبته فى الانتقام وغير ذلك ، فتظل المقارنة ماثلة أمام ذهنى ليدفع ثمنها « سيف » .

* * *

لقد أجرى الأستاذ فريد على لسان المنشد فى أول حديثه هذا المبدأ النقدى ، الذى عبر به فى الحقيقة عن رحابة صدره ورجاحة عقله وطيبة نفسه وميله الشديد إلى التسامح ، إذ قال المنشد لسامعيه . . . « سأنشدكم وأنشد ليلة بعد ليلة ، ولكم أن ترضوا إذا أرضاكم ما يصدر عنى ، ولكم أن تنكروا كما شئتم إن بدا لكم من ذلك ما لا يروقكم ؛ لكم أن تصفقوا استحساناً أو تظهروا استهجانكم بغير مداراه ! فهذا حق

لكم ، أما أنا فما أقصد إلا أن أظهر ما عندى مما يهتز له فؤادى وما أردعته ثمرة حياتى وأرسلت فيه عصارة روحى ، فإذا وقع عندكم موقعه عندى زادت بذلك سعادتى . . . »

فإذا رأيتنى قد أسرفت فى استخدام هذا الحق الذى أبحته لقارئك ، فاغفر لى ضلالا دفعنى إليه إيمانى بحق الفرد فى أن يعيش فرداً مستقلا قائماً بذاته . سواء كان ذلك فى الحياة الواقعة أو فى القصة التى تصور تلك الحياة .

آباء وأبناء

يحكى أن جماعة من القنافذ كانت تعيش معاً في سفح الجبل ؛ فلما جاءها الشتاء ببرده المثلوج ، وأخذتها في الليل رعشة تناولت منها المفاصل والعظام ، اقترح عليها واحد منها أن يجتمع شتيتها في كومة متلاصقة حتى يدفىء بعضها بعضا بحرارة أجسادها ؛ لكن جماعة القنافذ لم يكد يلتصق بعضها ببعض طلباً للدفء ، حتى أحس كل منها وخز الإبر الحادة المسنونة التي تغطى أجساد زملائه ؛ فما هو إلا أن أفصحت كلها عن كظيم آلامها وطلبت أن تعود إلى مواضعها المتفرقة ، فلذعة البرد أهون من هذا الوخز الأليم ؛ وعادت القنافذ فتفرقت كما كانت أول أمرها ، لكنها كذلك عادت فأحست زمهرير الشتاء يهز كيانها هزاً عنيفاً ، وكأنما نسيت إزاء هذا البلاء ما كان من ألم الوخز منذ قريب ، فصاح بعضها ببعض ينشد كلها التلاصق مرة أخرى حتى يعود لها الدفء ؛ وعاد وخز الإبر وأنساها الألم الحاضر ألم الماضي ، فضجرت وتفرقت مرة أخرى — وهكذا دواليك : اقتراب وابتعاد واتصال وانفصال ؛ إلى أن قال منهم قائل حكيم : خطؤنا في المبالغة والإسراف ، فإذا ابتعدنا أوغلنا في البعد حتى فقد كل منا دفء أخيه وتعرض للبرد الشديد ، وإذا اقتربنا أوغلنا في القرب حتى وخز كل منا جلد أخيه فأدماه ؛ والحكمة هي

فى اختيار للوضع الصواب بين الطرفين بحيث ننجو من الوخز دون أن نفقد دفء التقارب ما استطعنا إليه سبيلاً .

وحكاية القنافذ هذه تقفز إلى ذهنى كلما سمعت بخلاف يدب بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين جماعة من الأصدقاء . . فكأنما أراد الله لنا ألا نقع أبداً على هذا الوضع الصواب فى علاقتنا بعضنا ببعض ، بحيث يبعد كل منا عن شئون الآخرين بعداً يتيح لهؤلاء الآخرين أن يشعروا بشخصياتهم مستقلة قائمة بذاتها ، وبحيث لا يكون ذلك البعد سبباً فى حرماننا من دفء العاطفة التى يستمدها بعضنا من بعض .

وتبلغ هذه المأساة غايتها حين تقع حوادثها بين الآباء وأبنائهم ؛ إننى لا أعتز بخبرة واسعة فى شئون الناس وأمور حياتهم من حيث الدخائل والتفصيلات ، لأننى أعيش حياة أقرب إلى العزلة فى ركن هادىء لا يصطخب بكثير من الناس فى تشابكهم واتصالهم ، لكننى فى حدود خبرتى الضيقة القليلة ، لم أكد أصادف أسرة مصرية واحدة لا يأكل أفرادها بعضهم بعضا ، فكل ينهش لحم أخيه حياً ، ومع ذلك لا يجدون إلى التباعد سبيلا ؛ فالتقاليد الشرقية تحتم أن يتكوم أفراد الأسرة الواحدة حتى لا يكون بينها فُرقة فى أعين الناس ، لكنها إذا ما تلاصقت على هذا النحو الشديد ، أصابها ما أصاب القنافذ فى اجتماعها : وخز أليم يدمى الجلود ؛ وشر المأساة هو — كما أسلفت — حين يكون

هذا الوخز الأليم بين الوالد وأبنائه ؛ فيستحيل على الوالد أن يرضيه ابتعاد أبنائه عنه ، إما لشدة فى عاطفته الأبوية — ولا أظن ذلك — وإما لخوفه مما يقوله الناس لو تفرق أفراد أسرته ؛ وفى الوقت نفسه يستحيل على ذلك الوالد أن يُبقى على شخصيات أبنائه سليمة من الوخز ؛ وقل مثل ذلك أيضاً بالنسبة للأبناء إزاء آبائهم ، فلا هم يحزمون أمرهم فيستقلوا بعيشهم حين تسعفهم القدرة الاقتصادية ، ولا هم يظلون مع آبائهم تحت سقف واحد بحيث يحرصون على جلود هؤلاء الآباء من التجريح والتمزيق .

وهنا تعود إلىّ ذكريات أعوامى الماضية ، حين اكتملت رجولتى وأوغلت فى الحلقة الرابعة من عمرى ، ومع ذلك ظللت أساكن والدى فى بيت واحد ، وحرص كلانا جهد الاستطاعة ألا يتلقى الإساءة من الآخر ، فكان كل منا كأنه يلعب بالبيضة والحجر كما يقولون ، لا يريد للحجر أن يكسر البيضة ؛ لكن ذلك محال على الطبيعة البشرية ، ولما كان لوالدى — رحمه الله — ميزة أنه والد ، فكثيراً جداً ما صب على رأسى الإساءة تلو الإساءة على مسمع ومشهد من الناس ؛ وكنت أكظم غيظى وأنطوى على نفسى فى غرفتى أمزق أعصابى تمزيقاً ، ولا يعود إلىّ هدوء النفس إلا بعد أيام ؛ إنى لا أعلم أين قرأ والدى أو أين سمع فكرة أعجبته وصادفت فى نفسه هوى ، وهى أن الوالد يكرر نفسه فى أبنائه ، فالابن نسخة من أبيه ، وما دام الأصل موجوداً فهذه

النسخات لا ينبغي أن يُعترف لها بوجود ؛ والحق أنه إذا كانت المقدمة صحيحة للزم أن تكون هذه النتيجة صحيحة أيضاً ، إذ ما دمنا صوراً مكررة له ؛ فله هو القيمة كلها ، وأما نحن فلا يلتفت إلينا إلا في غيبته .

لكن المقدمة خطأ فاحش ونتيجتها خطأ أفحش ؛ وهذا هو ما نريد أن نحفره حفراً في رءوس الآباء عندنا ؛ فلكل ولد شخصيته الفردة المستقلة القائمة بذاتها ؛ وقد أعلنت الطبيعة ذلك إعلاناً صريحاً يوم قطعت القابلة الحبل السُّرِّيّ الذي كان يصل الجنين بأمه ، ففصلتهما شخصين بعد أن كانا شخصاً واحداً . إن صميم الحياة في كافة الأحياء هو هذا التفرد ؛ فيستحيل عليك أن تجد على سطح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ورقتين من أوراق الشجر متماثلتين كل التماثل ؛ وانظر إلى بصمات الأصابع كيف يستحيل تكرارها في شخصين على نحو يحقق التطابق التام؛ ليس الأمر في الحياة والأحياء كالأمر في المصنع ومنتجاته ؛ نعم إن المصنع يستطيع أن يخرج لك مئات الأحذية أو مئات السيارات بحيث تجيء على تشابه تام أحياناً ، لكن ذلك محال في كافة الأحياء من الأميبا الوضيعة البسيطة إلى الإنسان .

لقد حدث لي أن اشتركت في مؤتمر لليونسكو في باريس عام ١٩٤٧ ، وكان بين الشخصيات الكبيرة التي لقيتها هناك السيدة مرغريت ميد ، وهي من أكبر العلماء العالميين في علم الأجناس البشرية ؛

كنت أسمع اسمها يذكر فى المحاضرات مقرونا بالتبجيل والاحترام ، وكنت أرجع إلى كتبها رجوعى إلى الثقة ؛ وكنت أتصورها سيدة عجوزاً أربت على الستين ؛ فلما رأيتها فى أربعينها ما تزال مليئة بالحياة ، عجبت أن تجيء هذه السمعة العلمية العالمية كلها لهذه المرأة التى لم تزل تعنى بنفسها وثيابها . . . وتحدثت إليها وكان مما حدثتنى أن ذكرت لى كيف جاءتها الدعوة وهى فى أمريكا لحضور اجتماع اليونسكو بباريس ، وكان لها طفلة فى السادسة من عمرها ، فعرضت على الطفلة كلا من الصورتين : صورة مرافقتها إلى باريس (وهو أمر لم تكن توده الأم) وصورة بقائها مع أبيها ؛ وما زالت بها حتى اختارت طفلتها عن طيب خاطر أن تبقى . . . قالت لى الأم : إنها لا تذكر مرة واحدة أرغمت فيها طفلتها هذه على شيء ، فما الإنسان — فى رأيها — إلا قوة اختيار لنفسه ، وإنما أرادت هذه الأم العالمة لابنتها أن تنمو على إنسانية كاملة .

لكن قل هذا لمعظم آبائنا يضحكوا منك ، وحتى إن هم أرغموا على فعله أمام عناد أطفالهم ، فإنما يرغمون عليه إرغاماً ، ولا يصدر منهم عن عقيدة فى تربية أبنائهم تربية سليمة .

لا يريد الوالد عندنا أن يعترف عن عقيدة بأنه هو شيء وكل ابن من أبنائه شيء آخر ، ولو كان ذلك صوابا ، فلست أدرى إذاً لماذا يحصون السكان فرداً فرداً ، ولا يحصونهم والداً والداً ؛ وهيهات أن

تطمس وجود ولدك إلى جانب وجودك ، ثم يسلم الأمر بعد ذلك من النتائج أخطر النتائج .

فالولد الذى يبدأ هذه البداية البشعة ، يريد أن يقرر ذاته حسب ما تملى عليه طبيعته وغرائزه ، فيمحوه أبوه محواً كأنه ظل من ظلاله ، تراه يكبر على أحد أمرين : فإما هو عبد ذليل لكل سلطان ، أو هو ثائر ناقم على كل سلطان ؛ وليست حياته فى كلتا الحالتين بالحياة السَّوِية الهادئة السعيدة .

إنه سرعان ما تنتقل سلطة الوالد إلى سلطة الحاكم أو سلطة المستعمر أو ما إليهما ، وعندئذ يسهل على الحاكم أن يستبد ويطغى ، أو يسهل على المستعمر أن يمرع ويمرح ، لأن هذا أو ذلك سيجد نفسه إزاء أفراد نشأوا على طاعة عمياء ؛ وهل تعجب بعد ذلك أن يُضرب المثل فى الطغيان بحكام الشرق ، وألا يجد المستعمرون أيسر منالاً من بلاد الشرق ؟ إنهما وجهان لحقيقة واحدة : هى طغيان الوالد بأولاده وابتلاع أشخاصهم فى شخصه .

لكن هذه الطاعة العمياء قد تنتج كذلك النفوس الثائرة المحطمة لكل سلطان ، التى تهدم للهدم ذاته انتقاماً لما أصابها أيام الطفولة ، وإذا كثر أمثال هؤلاء تعذر السير الهين المطمئن على المجتمع بصفة عامة — وأذكر فى هذا الصدد أنى صادفت طالباً قاطعنى أثناء المحاضرة

ليعترض بما لم يكن له ارتباط قوى بما كنت أحاضر فيه ، قاطعنى ليبدى رأياً وهو يرتعش من الانفعال الذى لا موجب له ، والرأى متعلق بالله ومدى علمه وقدرته ، فأسكته فى غير جواب ، حتى إذا ما فرغت من المحاضرة ، دعوته على انفراد لأسأله عن حاله فى أسرته قبل أن أستعيده سؤاله ، وسرعان ما علمت أن العلاقة بينه و بين أبيه توشك أن تكون هى العلاقة بين العدو وعدوه اللدود . . . فثار الثائر على الأب الأصغر والأب الأكبر ، وكل ما تشم فيه رائحة السلطان الأبوى بغير تمييز.

* * *

و بعد ، فهذه خواطر فى نوع واحد من أنواع العلاقة بين الناس عندنا ، أثارتها فى نفسى رسالة جاءتنى منذ أيام قليلة من قارئة مثقفة تخرجت فى الجامعة فيما أرجح ، تقرؤها فترتسم أمامك صورة فتاة من مئات الضحايا ، اللائى قد أرهف العلم فيهن الشعور وهذب منهن الحس ، ثم عُدْن إلى الحياة ليجدن أنفسهن فى مجتمع منزلى قاسٍ خشن غليظ ؛ ولست أدرى لماذا اختارت هذه القارئة المجهولة أن تبعث برسالتها إلىّ ؟ لعلها رجحت أن تجد فىّ أذناً تصغى ، لما يتسرب منى آناً بعد آن من أخبار طفولتى ، وهأنذا أترك كثيراً من آلامها المبثوثة فى خطابها ، وأثبت هنا قليلا منها ، ليرى القراء كيف تعيش هذه الفتاة المثقفة فى دفع من المد والجزر ، تقول :

« . . . حينما علمت أن أبى يتهمنى بضعف الشخصية وانعدام

الإرادة ، جثمت على صدرى سنوات حياتى الماضية بثقلها فحطمت روحى ؛ لقد لاحظ أبى أخيراً هذا الضعف فى شخصيتى وهو فى ذلك يلقى التبعة علىّ ! ! إن مرحلة طفولتى وطفولة إخوتى جميعاً لتتراءى أمام عينى الآن بكل أحداثها . . ولكن ماذا أقول ؟ ألم تكن كل هذه الأحداث كفيلة بأن تنتهى بى إلى هذه النهاية ؟ !

« لكنى مع ذلك قد حاولت يوماً أن أتناسى تلك الأيام وأن أبنى حياتى من جديد ؛ حاولت أن أتشجع وأكوّن لنفسى شخصيتى ؛ وقد كنت صادقة قوية الإيمان فيما عزمت عليه ، لكنهم لم يتركونى ، فقد سدوا أمامى جميع الطرق حتى انهرت أمامهم ؛ لماذا ينسى أبى كل ما فعل بنا ؟ لماذا ؟ إنه لا يذكر إلا أنه يجب أن نكون على ما يشتهى ولو كان ذلك هو المستحيل . . .

والآن قد ذهبت آمالى وأحلامى ؛ لقد فقدت كل شىء ، لقد فقدت الرغبة فى الحياة ، لم يعد لى أمل ولا هدف ، ولم أعد أسعى وراء غاية ؛ كل ما أشعر به هو خواء وركود تام . إن شيئاً لم يعد يستثير اهتمامى ، حتى كتبى وموسيقاى يا سيدى لم أعد أشعر بالرغبة فيهما . إن حالتى أقرب ما تكون إلى الموت . إننى أسير بل أتعثر فى ظلام ، لا أعرف

لنفسي طريقاً فى الحياة ، لقد سئمت كل شيء ، بل وسئمت نفسي . . . »

ليتنا — يا فتاتى — نسترشد بحكمة القنفذ العاقل حين توجه بالنصيحة لزملائه القنافذ ، وهى أن نحسب على وجه الدقة كم تكون المسافة بيننا و بين سوانا من الأهل والأصـدقاء ، بحيث لا نحرم من دفء العواطف الإنسانية فى صلاتنا بهؤلاء وهؤلاء ، و بحيث نتجو فى الوقت نفسه من وخز الإبر .

سيئات الموتى

يقول شيكسبير فى رواية يوليوس قيصر ، والقول هنالك يجرى على لسان أنطون ، فى الخطبة المشهورة التى ألقاها عند جثمان قيصر :

السيئات يقترفها الناس ، فيمضى فاعلوها وتبقى

وأما الحسنات فغالباً ما تدفن مع رفاتهم تحت الثرى

أما أن تبقى السيئات بعد أن يمضى فاعلوها ، فأمر من الوضوح بحيث لا أظنه موضعاً للشك والريبة ؛ على أنى تاركه الآن لأعود إليه بعد قليل ؛ لكن الذى قد تخطئه العين العابرة ، هو ذهاب الحسنات فى جوف الأرض مع رفات المحسنين .

وإنى لأعترف أنى قد لبثت حيناً طويلاً ، أنكر على الشاعر العظيم رأيه هذا كلما ذكرت سطريه السابقين ، كنت أعجب كيف يقول إن حسنات المحسنين غالباً ما تدفن مع رفاتهم وتُنسى ، مع أن الناس — فيما كنت أرى — ماينفكون لاهجين بمآثرهم ، مخلدين لذكرياتهم ، بما يبنون لهم من أنصاب وتماثيل ، وما يكتبون عنهم من مقالات وكتب ، وما يقيمون لهم من حفلات يحيون بها أسماءهم كلما مضى على موتهم كذا عاماً . . . ألا يكفى ذلك كله دليلا على أن حسناتهم لم تذهب — كما زعم

الشاعر — مع رفاتهم تحت الثرى ، بل بقيت حية فى ذاكرات الأحياء ؟

هكذا كنت أعجب لنفسى من قول الشاعر ، حتى كان الأمس ، حين جلست من دارى فى ركن دافىء ساعة الغروب ، أشرب الشاى فى صمت وعلى مهل ، سارحاً بفكرى فيما أساء لنا الأسلاف بما ألقوه على ظهورنا من أعباء ثقال — أعباء التقاليد التى أقعدتنا عن الحركة الخفيفة والسير السريع ؟ وكان طبيعياً عندئذ أن تتوارد الخواطر ، فتثب إلى ذهنى عبارة شيكسبير : « السيئات يقترفها الناس فيمضى فاعلوها وتبقى ؛ وأما الحسنات . . . » .

ولكنى هذه المرة — ولأول مرة — وقفت وقفة المتأمل ، بعد أن تعودت فيما مضى أن أوافق على الشطر الأول وأرفض الشطر الثانى ، موافقة ورفضا هما أقرب إلى الحركة الآلية منهما إلى التفكير المتروى ؛ لم أرضَ لنفسى هذه المرة أن تتعجل الإنكار والنفى ، فالأرجح أن يكون الشاعر الذى صدق القولَ فى شطره الأول ، قد صدق القولَ كذلك فى شطره الثانى — فلأفكر من جديد : أحقيقة تُدفن الحسنات غالباً مع رفات المحسنين ؟

وكأنما أشرق علىّ هذه المرة ضوء جديد ، إذ نظرت إلى الموضوع من ناحية جديدة ؛ قلت لنفسى : دع عنك ما يقيمه الناس لموتاهم

المجيدين من تماثيل وما يكتبونه عنهم من كتب ، لأن ذلك كله قد يكون سدًا من الإنسان لنقص أدركه فى نفسه ، فربما أدرك الإنسان فى نفسه سرعة نسيان الجميل ، فعالج نسيانه هذا السريع بما يُذَكِّر . . . إنه إذا ثبت أن طبيعة الإنسان تمنعه من الاعتراف بالجميل لصاحبه ، وتدفعه إلى طمس معالم الفضل الذى أسدى إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إذا ثبت ذلك فى طبيعة الإنسان ، إذاً فلا شك فى صحة قول الشاعر ، بأن الحسنات كثيراً ما تدفن مع رفات المحسنين ، فلا يكاد المدين بفضل أن يُهيل التراب على المتفضل ، حتى يتناسى الدين فينسى ، وينسى الناس معه ، وبذلك ترقد الحسنة مع رفات صاحبها فى قبره إلى الأبد .

وحسبك وقفة لا تطول ، لتدرك على الفور أن الطبيعة البشرية تأبى على الإنسان أن يعترف بفضل أسدى إليه ، فإن أخذنا أنفسنا بهذا الاعتراف ، فلأننا قد أخذنا طبيعتنا بالتهذيب والتدريب ، وإذاً فليس يحفظ الجميل إلا من اكتسب القدرة على قمع طبيعته والإمساك بزمامها ... ذلك لأن من أعطى أقدر ممن أخذ العطاء ، ومن أحسن أقوى ممن تقبل الحسنة ؛ ولما كان الإنسان بطبيعته أميل إلى إظهار جوانب قوته وإخفاء جوانب ضعفه ، كان من العسير عليه أن يعترف بما بدا من عجزه حين قبل المعونة ممن اعانه .

فى العطاء قوة وفى الأخذ ضعف ، حتى ليركع الآخذ أمام معطيه

— حقيقة أو مجازاً — وإذا ما حدّثه جاء حديثه خافتاً ، وبدت عينه « مكسورة » حسيرة . . . إن من الكتب التي أقامت لي ركناً ركيناً من ثقافتي ، قصة « راعي ويكفيلد » لـ « أولفر جولدسمث » ؛ هذا الكاتب العجيب الفريد ، الذي ينفذ في الطبيعة البشرية نفاذاً يصل إلى أعماقها ، والذي له في كل صفحة ، بل في كل فقرة ، بل في كل سطر من سطوره ، ملاحظة صادقة في تحليل طبيعة الإنسان ؛ في هذا الكتاب يقص عليك الكاتب في سياق قصته ، أن مسافراً التقى براعي ويكفيلد واستدانه قليلا من المال يردّه له عند بلوغه غايته ؛ ثم حدث أن أقام الرجلان ليلة في نزل في الطريق ، ودارت بينهما مناقشة احتدّ فيها المسافر ، فأخذ العجب من الراعي كيف استباح ذلك الرجل الجريء لنفسه أن يحتدّ معه في المناقشة مع أنه مدين له بمال ؟ !

ولما كان العطاء قوة والأخذ ضعفاً ، كان عسيراً كل العسر على من به كبرياء ، أن يضع نفسه موضع الآخذ ، لأنه يعلم أن ذلك سيصحبه اعتراف لغيره بالفضل ، وفي ذلك ما فيه من جرح ؛ ويزداد هذا الجانب وضوحاً ، حين يحس المحسن عن شعور بقدرته ، فيثير في الآخذ إحساسه بنقصه وعجزه — وقد يعطي المعطي عن شعور بالعطف على من أعطى ، كما يفعل الوالد مثلا نحو ولده ، وعندئذ يغلب أن يبادله الآخذ عطفاً بعطف .

وانظر الآن فى قولهم : « اتق شر من أحسنت إليه » ، أفلا ترى القول قد ازداد وضوحاً و بياناً ؟ كم من مرة سألت نفسى حائراً : كيف يمكن أن يكون لمن أحسنتُ إليه شر أتقيه ؟ لكننى أرى الآن كيف يثير فيه شعوره بنقصه وعجزه شعوراً بالمرارة نحو من أعطى ؛ خصوصاً إذا اختلط العطاء بالمنّ ، فعندئذ يستحيل على الآخذ ألا يحس نحو من أحسن إليه بالكراهية والمقت ؛ فلا يزول الشر ممن أحسنت إليه إلا إذا أعطيته الإحسان فى عطف خالص ، لا تكبر فيه ولا شموخ .

ولولا أن سرعة نسيان الحسنة من طبيعة الإنسان ، لما كان بالقائل حاجة أن يقول للناس « اذكروا حسنات موتاكم » — و إذاً فلم يخطىء شكسبير كما ظننت ، حين لاحظ أن الحسنات كثيراً ما تدفن مع رفات المحسنين .

* * *

والحق أنى ما قصدت إلى الكتابة فى الحسنات التى تذهب مع الموتى فى قبورهم ، و إنما أردت الكتابة فى السيئات التى يقترفها الناس فتبقى بعد موتهم على وجه الأرض حية تسعى ينوء بحملها الأحياء بعد ذهاب أصحابها ، وأعجب العجب أن ترى هذه السيئات الباقيات على وجه الزمن ، قد اكتسبت جلالا من جلال الزمن ، فإذا هى فى الأعين مقدسات مصونات تجريحها بغى ومسّها حرام .

كان لأسلافنا ظروف تحيط بهم ، وكان لهم سلوك يستجيبون به لتلك الظروف ؛ فوفقوا فى حياتهم أو أخفقوا بمقدار ما جاءت استجاباتهم ملائمة لظروفهم ؛ وقد مضى الأسلاف وجئنا ، فأية قوة فى الأرض هذه التى تشدنا إلى سلوك أسلافنا ، نستجيب لظروفنا بمثل ما استجابوا لظروفهم ، تغيرت الظروف أو لم تتغير ، ووفق هؤلاء الأسلاف أو أخفقوا ؟ .

كانت لأسلافنا حرية الاختيار فاختاروا لأنفسهم وجهة النظر التى تسعدها وترضيها ، وليست هنالك قوة لا فى الأرض ولا فى السماء ، تلزمنا باصطناع وجهة نظرهم إلا بمقدار ما تتفق ظروفنا مع ظروفهم .. لكننا مشدودون إلى منظارهم شداً ، لا نرى الأمور إلا بأعينهم ، كأنما هم وحدهم الرجال يُشرّعون ونحن الأطفال نعمل وفق ما شرعوا — لقد قام علماء النفس المعاصرون بتجارب على الأطفال فى لعبهم ، فانتهوا إلى نتائج علمية فى نفسية الطفل من حيث وجهة نظره إلى القواعد الموضوعة للسلوك ؛ فأما الصغار فيما دون العاشرة ، فلو سئلوا : من الذى وضع لكم قواعد الألعاب التى تلعبونها معاً ؟ أجابوا بأنهم وجدوها كذلك ، ولا يجوز لهم أن يتناولوها بتحوير أو تبديل ؛ فإذا ما ضيّق القائم بالتجربة عليهم سبل الفرار ، وحاول أن يظفر منهم بجواب محدد عن واضع القواعد التى يتبعونها فى ألعابهم ، قال بعضهم إنه الله ، وقال آخرون

إنها الحكومة ، وقال فريق ثالث إنهم آباؤهم أو أجدادهم . . . حتى إذا ما تقدم هؤلاء الأطفال فى أعمارهم قليلا ، وجاوزوا العاشرة إلى الثالثة عشرة أو نحوها ، وأعيد عليهم نفس السؤال : من الذى وضع لكم قواعد الألعاب التى تلعبونها معاً ؟ أجابوا عندئذ بأن واضعيها هم أطفال مثلهم ، وأن فى مقدورهم أن يغيروها إذا شاءوا وكيف شاءوا .

وأظننا نستطيع أن نستخدم هذا المقياس نفسه فى التمييز بين المجتمع فى طفولته وفى نضجه : فأبناء المجتمع الطفل ينظرون إلى أنواع السلوك التى يسلكونها فى مواقف حياتهم المختلفة نظرتهم إلى التراث المقدس الذى لا ينبغى بل لا يجوز أن يتناوله أحد بتغيير ، وأما أبناء المجتمع الناضج فيدركون أن الأمر لا قدسية فيه ، وأن التغيير مرهون بمشيئتهم ، لأن الحياة حياتهم هم ولا بد أن يعيشوها على أكمل وجه مستطاع ؛ فإن كان السلوك الموروث عن الآباء صالحاً لهم فأنعم به ، وإلا فمن حقهم بل من واجبهم أن يغيروا منه ما شاءوا وما شاءت لهم ظروفهم — وأظنك تستطيع أن ترى فى وضوح ، أن روح الاستبداد والطغيان أقرب إلى الشيوع فى المجتمع الأول ، وأن روح الحرية والديمقراطية أقرب إلى السيادة فى المجتمع الثانى ، ذلك لأن حرية التصرف حرام هناك حلال هنا .

إن احترام التقاليد الموروثة فى ذاته أمر لا عيب فيه ولا غبار عليه ،

ما دمت آخذها أخذ السيد المسيطر لا أخذ التابع المطيع ، فما هي ذي أرقى الأمم تحافظ على بعض تقاليدها على شرط ألا تعرقل لهم شيئاً من سياسة أو تجارة أو صناعة أو تعليم أو غير ذلك من شئون الحياة ؛ وكثيراً ما تراهم — إذا وجدوا التقليد عائقاً في سبيلهم — يبقون على صورته ويفرغون مضمونه ومحتواه ، كأنما هم ينتزعون من الأفعى سمومها ليبقى لهم جمال ظهرها الأرقط .

ولست أول من يتكلم في جناية أسلافنا بما فرضوه علينا فرضاً من وجهات نظرهم وأنواع سلوكهم ، فقد سبق إلى ذلك منذ زمن طويل أستاذنا الجليل أحمد أمين ، حين فصل القول تفصيلاً في جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي . . لكنك تستطيع أن توسع من نطاق هذه الجناية حتى تشمل كثيراً جداً من تفصيلات حياتنا ، فعنهم أخذنا حب الظهور بكل ما له من ذيول ، وعنهم أخذنا الوضع الاجتماعي للمرأة بكل ما يستتبع من نتائج ، وعنهم أخذنا غير ذلك وغير هذا .

لكني أريد أن أترك تفصيلات ما جنوا به علينا ، لأغوص إلى ما تحت السطح من أعماق ؛ فهنالك في العمق البعيد أم تفرعت عنها هذه التفصيلات كلها ، وهي وجهة نظر معينة تصبغ كل شيء بلونها ، فورثناها عنهم كما هي وجعلنا ننظر ؛ وإنما أقصد بذلك نظرة وصفها الشهرستاني في عبارة نقلها عنه المغفور له الأستاذ مصطفى عبد الرازق في كتابه

« تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » (ص ٣٢) إذ قال : « من الناس من قسم أهل العالم . . . بحسب الأمم فقال : كبار الأمم أربعة : العرب ، والعجم ، والروم ، والهند ، ثم زاوج بين أمة وأمة ، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق ، واستعمال الأمور الروحانية ؛ والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء ، والحكم بأحكام الكيفيات والكميات ، واستعمال الأمور الجسمانية . »

ولو فهمنا عبارة الشهرستانى على أن العرب والهند من ناحية يمثلون ما يسمى بالشرق ، وأن العجم والروم من ناحية أخرى يمثلون وجهة النظر الغربية ، كان مؤدى كلامه بلغة يألفها قارئنا ، هو أن أهل الشرق يميلون إلى الأحكام الكلية التى تطمس الفروق التفصيلية بين الأجزاء ، وأن أهل الغرب يميلون إلى الأحكام الجزئية التى تلحظ ما بين تلك الأجزاء من فروق ، والأولون روحانيون لا يستشهدون فى أحكامهم بمشاهدات الحواس ، والآخرون جسمانيون يحتكمون فى معارفهم إلى ما تدلهم عليه الحواس من مشاهدات .

ولو كان هذا هكذا ، ثم لو كان الأسلاف قد ألبسونا منظارهم ، فقد جنوا علينا الجناية التى أودت بنا وستودى إلى مهوى الهلاك ؛ فالبس

المنظار الذى يطمس لك الفروق بين الأجزاء تجد أفراد المجتمع قد أصبحوا فى عينك عجينة واحـدة ، لاشخصية لزيد ولا فردية لعمرو ، ولاوجود لخالد ؛ ومن ثم استبداد المستبد وطغيان الطاغية ؛ ثم عد فالبس المنظار نفسه تجد النمل والبعوض والذباب كلها حشرات ، والصقر والغراب والعصفور كلهـا طيور ، والجير والرمل والبـازلت كله صخور ، وإذاً فلا مشاهدات ولا تجارب ولا علوم ، ثم عد مرة ثالثة والبس المنظار الموروث الذى يطمس لك الخصائص الجزئية بين يوم ويوم وساعة وساعة ، تر الزمان كله قد انحصر فى امتداد من فراغ وعدم ، ومن ثم فلا تعلق بالدنيا الفارغة ولنضع الرجاء فى عالم آخر . . .

فالجناية الـكبرى التى جنى بها أسلافنا علينا ، هى هذا المنظار الذى أورثونا إياه ، فاستمسكنا به وتشبثنا كأنما نفقت سوق للناظير ، فلم يعد منظار سواه .

تعالوا نجرب منظار « العجم والروم » — على تعبير الشهرستانى — لتتبدل الدنيا فى أنظارنا ، فالعجينة المطموسة تصبح أفراداً متباينة الصفات والخصائص ، والـكون الخلاء يمتلىء فى أعيننا ألواناً وأصواتاً فيعمر خرابه ؛ وهذه الحياة الزائلة الفانية تنقلب حياة خصبة مليئة تستحق أن نعمل لها كأننا سنعيش فيها أبداً .

ندوة الخميس

لو كان الله قد أتاح لندوة الخميس التى تنعقد فى دار لجنة التأليف والترجمة والنشر كل أسبوع ، والتى لبثت على هذا النحو قرابة أربعين عاماً ، وكثيراً ما ضمت نفراً من أئمة الأدب وقادة الفكر فى مصر ، بل وفى بعض الشقيقات العربية أحياناً ، أقول لو كان الله قد أتاح لهذه الندوة عاملين : عنصر المرأة المثقفة والقلم الذى يسجل ، لكان لنا بذلك «صالون» أدبى قلّ أن يكون له نظير ، ثم لكان لنا كذلك ديوان من أخصب دواوين الأدب والفكر المعاصرين ؛ فالحديث فى هذه الندوة يجرى على غير نسق معلوم ، ولا يتقيد المتحدثون فيه بشىء من التحفظ والتزمت اللذين يلازمان الكاتب إذا كتب للناس ، ولذلك تراهم يرسلون أنفسهم إرسالاً ، هو أصدق ما يعبر عن خواطرهم ومشاعرهم ، وهو بالتالى — لو رصده الراصد — مرآة لجانب حىّ من حياتنا الفكرية والأدبية على السواء .

وسأسوق للقارئ هنا خلاصة لحديث الندوة يوم الخميس الرابع من شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ ، ذاكراً من أسماء المتحدثين أحرفها الأولى ، لأنى لم أستأذنهم فى هذا النشر ، على أنى إذا استطعت أن أنقل أمهات

الأفكار التي دارت في الحديث ، فلست بمستطيع أن أبث خلال ذلك ما يسود المجتمعين في هذه الندوة دائماً من روح الفكاهة العابرة أحياناً ، والساخرة أحياناً ، فكأنما أنقل للقارئ هنا « رأساً » بغير « قلب » ، و « عقلا » بغير « وجدان » إنني أسوق هنا إطاراً ، وللقارئ أن يملأه بما يسعفه به خياله من نبضات الحياة .

أ . — زارنا في هذه الندوة أديب صيني منذ سنوات ، وأراد أن يعلم شيئاً عن الاتجاهات الأدبية في مصر ، فسأل عن كبار الأدباء الذين يكتبون الأدب « الكلاسيكي » — إذا صحت هذه الكلمة — ثم سأل عمن يكتبون للجمهور و يتصلون به اتصالاً مباشراً ، وعجب وأسف حين أنبأناه أن ليس بين أدبائنا من يتصل بالجمهور الشعبي هذا الاتصال المباشر الذي يريد .

ت . — إنه كان على خطأ ، لأن الأديب الحق لا يتصل أبداً بتيار الناس اتصالاً مباشراً ؛ إن هذا الاتصال المباشر مهمة الصحفي لا الأديب ، وينبغي أن نفرق بينهما تفرقة واضحة .

ح . — لماذا لا نقول عن (م . أ) وأمثاله من « الصحفيين » إنهم هم الأدباء الشعبيون ؟ إنهم يكتبون في جرأة تلفت لهم أنظار الناس .

ن . — ومن الذي هيـــــأ لهم هذا الجو الذي يستطيعون أن يكتبوا فيه بهذه الجرأة التي تستوقف لهم معظم الجمهور القارئ ؟ الذي هيأ

لهم هذا الجو هم أدباء ممن يعنيهم الأستاذ « ت . » .

أ . — يظهر أننا قد وصلنا إلى شيء من التحديد ، فالأديب يخلق الجو الفكرى والصحفى يكتب فى هذا الجو الجديد لجمهور القراء ، فيتصل بهم اتصالاً مباشراً .

ت . — هذا صحيح ، فالتأثير فى الناس يتم على درجتين : الأديب يؤثر فى الصحفيين ومن إليهم من الكتاب ، وهؤلاء يكون لهم التأثير المباشر ؛ والأمر فى ذلك شبيه بأستاذ الجامعة الذى لا يتصل بتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، إنما يخلق الشبان الذين يكون لهم هذا الاتصال ، وهذا الاتصال بطبيعة الحال يجيء فى نفس الجو الفكرى الذى نقله الشبان عن أستاذ الجامعة .

ن . — أظن أن هـذا هو المقصود دائماً « بتأثير » الأدب فى الناس ، أعنى أن الأديب الكبير دائماً ينحصر تأثيره فى الطبقة المستنيرة وحدها ، ومن هذه الطبقة ينتقل الأثر إلى من دونهم ؛ فلا أظن — مثلاً — أن برنارد شو يقرؤه الفلاح والعامل فى انجلترا .

م . — وماذا تقولون فى شيكسبير الذى كان يعرض مسرحياته على طبقات الشعب رأساً ، وفى هومر الذى كان ينشد أشعاره فى حلقات من الجماهير الدنيا ؟ أليس ذلك دليلاً على أن الأديب بأعلى معانيه ، قد يكون اتصاله بالشعب مباشراً و بغير واسطة ؟ .

ت . — لا ، ليس ذلك بدليل على هذا ؛ فلئن كانت طبقات الشعب قد استمعت لهومر أو شيكسبير ، فما ذاك إلا لأنه لم يكن لديهم من يستمعون إليه غير هؤلاء ، ولو وجدت لهم الصحافة أو ما يشبهها من الكتابة ، لانصرفوا عنهم إليها — أتظن أن امرأ القيس حين كان يقول شعره فى الناس كان يفهم عنه من الناس إلا القلة المستنيرة ؟ لقد كان الناس يقولون عنه إنه مجنون ! أتظن أن المتنبي وأمثاله كانوا يهدفون بأشعارهم إلى غير حاشية الحاكمين ؟ فإن استمع الناس لما ينشده امرؤ القيس والمتنبي ، فلأنه لم يكن هناك من يستمعون إليه عن فهم . أما الآن فقد تغير الموقف ، إذ وجد المقروء الذى يصلح للشعب إلى جانب الأدب الرفيع ، فاقتصر الأدب الرفيع على الطبقة المستنيرة ، وقصد الشعب إلى حيث يفهم ويتأثر .

ن . — يخيل إلىّ أن « الطبقة المستنيرة » عبارة تريد شيئاً من التحديد ، من هم أفراد هذه الطبقة . ؟ .

ت . — نستطيع أن نقول إنهم خريجو الجامعات ومن إليهم .

م . — أظن أن الأمر هنا لا يتوقف على التعليم الجامعى : فالطبقة المستنيرة هى أولئك الذين يتغذون بالأفكار ، فلا تناقض بين أن يكون الشخص بائعاً فى متجر أو عاملاً فى مصنع ، لكنه إذ ما فرغ من عمله التمس الأفكار النظرية فى الكتب أو المحاضرات — وأمثال هؤلاء

كثيرون فى أوربا — وعندئذ نقول عنهم إنهم من « الطبقة المستنيرة » .

ن . — ستيفن سبندر له مقالة فى مجلة إنجليزية صدرت الشهر الماضى، يحاول فيها تحديد الطبقة المستنيرة ، ويكاد يشترط للداخل فيها أن يكون كاتباً ، ليعبر بكتابته عن فكره .

أ . — وماذا يقول مثل هذا الكاتب الذى يعبر عن فكره ؟ هل ينبغى أن ينصرف إلى الكتابة فيما يُصلح المجتمع ، أم الأمر مقصور على مجرد التعبير ؟ بعبارة أخرى : هل يجب على الكاتب أن يلتزم حدود الأخلاق فيما يكتب ؟

ت . — لا ، لاشأن للأديب بالمعايير الخلقية ؛ إنه يفكر ويعبر ، ومقياسه الجمال وحده ؛ ولذلك تسمعهم يقولون لك عن بعض الأدباء إنهم كانوا فى مجتمعهم كالأفاعى تنفث السموم ، أى أنهم كانوا يفتّون فى بناء المجتمع ، ومع ذلك فهم أدباء ؛ الحقيقة أن الأديب الحق كالنحلة تعطيك الشهد ، لكنها قد تلسع .

ن . — إن مجرد ذكرنا لكلمتى « السموم » و « اللسع » يبين أننــــا ما زلنا متأثرين فى تقدير الأدب بمعيار المصلح الاجتماعى ؛ والأدب الخالص لا يهدف إلى الإصلاح الاجتماعى المباشر ، ولا يقاس بمقياسه .

ت . — هذا صحيح ؛ لكنك من ناحية أخرى تستطيع أن تقول

إن الهدف فى النهاية البعيدة هو هذا الإصلاح المنشود ، فحتى الذين يكتبون أدباً مكشوفاً عن الشئون الجنسية ، يريدون أن يضعوا تحت أعين الناس حقائق قد أغمضوا أعينهم عنها على خطرها وأهميتها ؛ هذا د . هـ . لورنس يرى الناس فى انجلترا قد أهملوا غرائزهم إلى حد الخطورة ، فراح بكتابته فى تمجيد الغريزة الجنسية السليمة ينبه الناس إلى ما قد غفلوا عنه ؛ إن الرجل إذا ما تحفظ فى طعامه تحفظاً يؤذى معدته بحيث لا تعود صالحة إلا لهضم « اللبن الزبادى » هو بحاجة إلى من يستثير شهيته للطعام بالتوابل القوية — ولورنس كان فى مجال الغريزة الجنسية عند الطبقة المستنيرة أشبه شيء بالتوابل التى تحرك الغريزة السليمة .

ن . — الغريب فى هـــذا هو أن الطبقة المستنيرة فى انجلترا انتقلت فى نظرتها إلى الأمور الجنسية من النقيض إلى النقيض ؛ كان « المستنير » فى العصر الفكتورى (القرن ١٩) يستبشع كل ما له اتصال بهذه الأمور من بعيد أو قريب ، وأصبح « المستنير » فى هذه الأيام أقرب إلى العقيدة بأنها لا تقل ولا تزيد عن سائر ضرورات العيش التى لا ينبغى أن يكون فيها شيء من الخجل — ولعل هذا الانتقال قد جاء بسبب ما كتبه لورنس ومن إليه .

... ...

... ...

أ . — إن العرب لم يقولوا أدباً عن الطبيعة فيه جدة .

ز — لماذا تعيبون على العرب أنهم لم يقولوا عن الطبيعة جديداً والطبيعة نفسها لم تخلق الجديد ، فالأزهار العطرة ما تزال هي الأزهار العطرة . . .

ش — أراك بذلك تخالف كلمة أذعتها عن الجديد والقديم .

ز — وهل من شك فى أننا لا بد أن نبقى من القديم على الطيب ؟

ن . — على شرط أن نحدد ما هو « الطيب » — ماذا نعده طيباً ؟

ز — هو المشهور المعروف بأنه كذلك ، فشعر المتنبي «طيب » .

ن . — لا يكون طيباً إلا إذا وافق عليه الناقد الأوربى الحديث بمعياره فى فهم الشعر وتقديره .

ز — أنا لا أنتظر الناقد الأوربى الحديث ليحدد لى ما أطرب له — أنا أقرأ شعر المتنبي وأطرب له ، وفى هذا الكفاية .

ن . — وإذاً فلابد أن تعطى هذا الحق لساكن الأدغال حين يطرب لضربات « الدربكة » لأنه هو الآخر يستطيع أن يقول : إنى أطرب لهذه الضربات وفى هذا الكفاية . . الأمر نسبي فى كل ما يتعلق

بالمدنية إذا استثنيت العلوم وحدها ؛ فما يعد « طيباً » هو ما يعده أهل المدنية القائمة كذلك ، وقد يتغير الأمر بعد كذا من السنين ، فتعد عوامل المدنية القائمة الآن علامة همجية عندئذ . . .

أ . — (وقد أمسك كتاباً فى يده) هذا كتاب كتبه أوربى عن « إقبال » فهل يكون ذلك إلا دليلا على أنه قدره حق قدره بغض النظر عن عصره ؟

ن . — وهـذا ما أقوله ، فالمتنبي شاعر يعـد من يطرب له « متمدناً » لو وافق عليه نقدة هذه المدنية القائمة ، وإلا فهو ليس كذلك بالنسبة لهذه المدنية أيضاً ؛ فالقديم الذى يستطيبه أصحاب الرأى من أهل العصر الحاضر ، هو الذى يدخل فى جملة العناصر التى لا بأس فى أخذها والإبقاء عليها .

أ . — أنا أطرب للمتنبي وأعده شاعراً عظيما ، و « نيـكلسن » لم يعجبه شعر المتنبي . فماذا تقول ؟

ن . — الأقرب منكما إلى تشرب روح هذا العصر وذوقه فى الأدب هو الذى يعبر برأيه عن رأى العصر وذوقه .

د — قل لى ، هل تطربك أنت موسيقى ڤاجنر ؟ .

ن . — إذا لم أطرب لها فلأنى لم أنشـأ النشأة الصحيحة ،

فالسبب عيبي أنا ، ولا أعدّ في هذه الناحية بين المتمدنين ؛ لأنني لو أصررت على أن الأمر متوقف على ما أطرب له ، بغض النظر عن أهل المدنية الحاضرة هل يطربون معي أو لا يطربون ، فلا بد كذلك أن أعطي أهل الغابات هذا الحق نفسه حين يفضلون « الدربكة » على ڤاجنر .

أ . — أو ليست « الدربكة » خيراً من موسيقى « الجاز » التي يطرب لها أهل هذا الزمان ؟ .

ن . — ولو أخذ العالم المتمدن بهذه « الدربكة » نفسها لانتقلت إلى عناصر المدنية — الأمر كما قلت اعتباري صرف ، والعبرة بما يقوله أهل الخبرة الذوقية في كل عصر .

ز — لقد التقيت اليوم مع صديق قصّ عليّ قصة فتاة فرطت في نفسها فثار عليها أهلها ، وكان هذا الصديق ساخطاً على هؤلاء الناس الذين يتدخلون في شأن الفتاة ، فهي وحدها المسئولة عن نفسها ما دامت قد بلغت الحادية والعشرين — أي أنه يريد لنا أخلاق أوربا في ذلك .

ن . — وما وجه الخطأ في ذلك ؟ إن كانت هذه هي « أخلاق » المدنية الحاضرة ، فهل يعيبها أنها ليست « كأخلاق » المدنيات السابقة ؟ إن المقياس هو ما يقرره أهل هذا الزمان لا أهل الأزمان الماضية .

أ . — وجه الخطأ هو أن هذا فساد محقق .

ن — الفساد هو ما يخرج على ما تواضع عليه أهل الزمن المعين ، وقد يصبح فساد زمن صلاح زمن آخر ثم يعود فساداً ، وهكذا تتغير النظرة مع تغير ظروف العصر — الحكم على السلوك بالصلاح أو الفساد فى عصر ما ، متوقف على هذا السؤال فيه : هل يسود هذا السلوك فى هذا العصر المعين أو لا يسود ؟

أ . — وهل تريد أن يكون الشرق كالغرب فيما يسود وما لا يسود ؟ .

ن . — ليست التفرقة بين شرق وغرب ، وإنما تكون التفرقة بين من أخذ بنصيب من المدنية ومن لم يأخذ .

وانفضَّت عند هذا ندوة الخميس .

ابتسامة الساخر

كان يبتسم لى كلما رآنى ، وكنت أحس القشعريرة كلما ابتسم ! فواعجبا لابتسامة مسمومة تُشيع فى النفس فزعاً ورعباً ! إن هنالك ابتسامة وابتسامة : هنالك ابتسامة الطفل التى لا تنطوى أبداً على خبث وسوء ، كلها براءة وسذاجة وطمأنينة ورضى ؛ وهنالك ابتسامة تنفرج عنها الشفاه « لتكشر » عن أنياب الشر والغدر ؛ ترُى هل كان ذلك ما قصد إليه « دانتى » حين وصف البسمات التى يلاقيها أصحاب النعيم فى الجنة بأنها بسمات الرُّضَّع الأبرار ؟ .

أتقول إن هناك ابتسامة « يكشر » فيها صاحبها عن أنياب الشر والغدر ؟ هل تعلم أن الضحك فى حقيقة نشأته « تكشير » مكبوت محبوس ؟ إن الطبيعة لا تعرف الضحك والمزاح ، إنها طبيعة متجهمة عابسة ؛ إن السماء لا تقهقه بالضحك وهى تزمجر بالرعود ؛ والحيوان إذا ما التقى فى الغابة بحيوان ، فإما هو لا يأبه به إذا لم يكن به حاجة إليه ، وإما أن يكشر له عن أنيابه بانفراجة فى شفتيه ؛ فلما أراد الإنسان على تطور المدنية أن يخفى تكشيرة الحيوان ويحبسها فى صدره ، نشأ الضحك ؛ ولا يزال وجهه يتحرك فى حالة الغضب أو الفزع بنفس

العضلات التي يتحرك بها في حالة البهجة والمرح !

ابتسامة الضاحك وتكشيرة الغاضب — في الطبيعة — صنوان ؛ وهنالك الحالات التي يختلط عليك فيها الأمر ، فلا تدرى أيهش لك الضاحك حقاً بقلب خالص ، أم يعبس لك بابتسامته ويتجهم ، كما تحير أبو العلاء في هديل الحمامة أهو بكاء أم غناء . . . إن الهجاء في الأدب عبوس في هيئة الضحك ، أو ضحك يعبر عن عبوس ؛ كان شاعر الهجاء عند العرب في حروبهم كحامل الرمح : هذا يقذف برمحه ، وذاك يرمى بضحكاته الساخرة ، وكلاهما يفتك بالعدو على حد سواء .

الضحكات الساخرة في الأدب قذائف من اللفظ تلقيها على العدو كما ترميه برصاص البنادق ، ذلك لأنك في كلتا الحالين « مكشر » له عن أسنانك ، ولا فرق بين أن تكون ضاحكاً أو غاضباً ، إن ابتسامة الساخر لطمة على الوجه أو ضربة في الرأس ، لعلها أفعل من ضربات العصيّ ولطمات الأيدى .

ويغلب أن نلجأ إلى « قذائف » البسمات ، حين يكون « العدو » داخل حدودنا ومن عشيرتنا ؛ فعندئذ يحسن أن نهاجمه بالضحك منه ، ومتى يكون الرجل من أهل العشيرة عدواً ؟ يكون كذلك إن شذ عن المجموعة ونشز ، فعندئذ تأخذنا الغضبة الممزوجة بالخوف من هذا الشذوذ

الطارىء ؛ إننا لا نريد لحياتنا الآمنة أن تتغير ، ونبرز أنياب الأذى لكل من يحاول إخراجنا عن مجرى حياتنا المألوف .

ترانا نرسل الابتسامة الساخرة إلى كل « غريب » عن مألوفنا : نرسلها إلى من يتكلم بلهجة مختلفة عما ألفنا سماعه ، ومن يلبس ثياباً غريبة ، ومن يأكل بطريقة غريبة ، ومن ينتبذ فى سكناه مكاناً بعيداً عنا ، أو ينحو فى تفكيره نحواً غريباً ؛ إن صاحب الفكرة الغريبة التى لم نألفها حقيق منا بالمحاربة — بالقذائف الضاحكة — كمن يلبس على رأسه طربوشاً أخضر ، أو يتكلم فى القاهرة بلهجة الريف ، أو يهجر المكان المعمور ليسكن فى بيت فى الخلاء بعيد عن مساكن الناس . . . كل هؤلاء « غرباء » يبعثوننا على الضحك — أو بعبارة أخرى يحملوننا على العبوس ، ما دام الضحك والعبوس عند الطبيعة لفتين مترادفتين فى الخوف والتخويف ! وإنه لمن عبقرية اللغة أن تضغط فى لفظة « الغريب » معنيين يتلاقيان على اختلافهما الظاهر ؛ « فالغريب » الذى يجىء إلينا من خارج بلادنا ، هو فى الحقيقة « كالغريب » الذى يشذ عن أوضاع بلادنا بالخروج عليها ؛ الأول « غريب » بمعنى أنه أجنبى دخيل يدعو إلى الحيطة والحذر ، والثانى « غريب » بمعنى أنه باعث على العجب ، لأنه منا وليس منا ؛ وكلا « الغريبين » يتطلبان

أن نـكون منهما على أهبة المطاردة بالعبوس الساخر أو بالعبوس المقنّع بالضحك .

إننا بضحكات السخرية نُسَوِّى أرضنا حتى لا يكون فيها مرتفع ومنخفض ، ونتسق نغماتنا حتى لا يكون فيهـا نشاز ؛ فمـا نزال « بالغريب » عنا همزاً ولمزاً حتى يعتدل ويجرى معنا فى فلك واحد ؛ وإنه ليُقلق الغريب أن يعلم أنه هدف لابتسامة الساخرين ؛ وكثيراً جداً ما يشذ الشاذ وهو لا يدرى ، حتى إذا ما لحظ الناس ينظرون إليه بابتسامة ساخرة ، أخذ يتحسس ملابسه ويتلفت حوله التماساً لما عساه أن يكون شاذاً فيه فيصلحه ؛ أما إن ابتسمنا للشاذ ، فظل على شذوذه وهو يعلم ، فما أسرع ما تقلب له الابتسامة إلى « تـكشيرة » حقيقية ، وما أيسر هذا التحول فينا ، لأن حركة الوجه التى ابتسمنا بها ، هى نفسهـا التى نـكشر بها تكشيرة الغضب . . . لـكن أين هذا الذى يضحك الناس من شذوذه فيصمد لضحكاتهم ؟ إنه إذا استطاع فهو العظيم ، أو من فيه بوادر العظمة ، وهل رأيت فى التاريخ كله عظيماً واحداً لم يكن موضع السخرية أول ظهوره ، ثم صمد للسخرية حتى اجتمع الساخرون أنفسهم تحت لوائه ؟ ! .

وليست ضحكات السخرية دائماً موجهة نحو الجديد ، بل هى أحياناً

تصب « غضبتها » على القديم إذا لم يعد هذا القديم مألوفاً مرغوباً فيه ، إننا نضحك من متعالم يستخدم لنا كلمات عربية قديمة يستخرجها من القواميس كما تستخرج الأجساد المحنطة من القبور ، ولن يصرفنا عن الضحك أن اللفظ المهجور القديم صحيح بحجة القاموس ؛ فلئن أفلح المتعالم مرة فى حمل الناس على بعث لفظ قديم ، فقد أفلح الناس ألف مرة على رده إلى حظيرة الاستعمال المألوف . . . إن الابتسامة الساخرة ترتسم على الشفاه ، لهى مقياس أدق مقياس لما ينبو عنه ذوق الجماعة ؛ وأنت بعد ذلك حر فى أن تصانع هذه الجماعة لتعيش بينها هادىء البال ، أو أن تخرج عليها متحدياً ، عالماً بأن النقلة من الابتسامة إلى العبوس ، هو عند الناس أهون الهينات .

لست أدرى لماذا يستبد « دون كيشوت » بتفكيرى إلى هذا الحد البعيد ؛ فكلما طافت برأسى فكرة ، وَرَدَ « دون كيشوت » على خاطرى ؛ فقد أراد « سيرفانتيز » أن يقلع أهل عصره عما أغرقهم إلى آذانهم من حب للفروسية وتقدير لما كانوا يسمونه « شرف » الفرسان ؛ فماذا صنع ؟ خلق لهم بخياله « دون كيشوت » هذا ، يفعل نفس أفعالهم ؛ لكنه عرف كيف يجعله باعثاً على الضحك ؛ وما دمت قد أضحكت الناس من شىء ، فقد خطوت أوسع خطوة إلى محوه ؛ ومن هنا نفهم قول

« بايرون » الشاعر الإنجليزى : لقد أزال سيرفانتيز الفروسية عن أرض أسبانيا بابتسامة .

ابتسامات السخرية وَخَزَات يخزبها الناس من أبناء الأمة الواحدة بعضهم بعضاً، ليجتمع شملهم على سلوك واحد وفكر واحد ؛ ولذلك كانت الضحكات إقليمية تقف موجاتها عند الحدود الجغرافية ، فما يضحك الناس هنا لا يضحك الناس فى بلد مجاور ؛ ومن ثم كانت ترجمة النكتة من لغة إلى أخرى أمراً متعذراً أو مستحيلا ، فالنكتة محكوم عليها ألا تعبر حدود بلادها إلا فى القليل النادر ؛ إنها لاتحمل جواز المرور ، ولا يسمح لها بتغيير الجنسية ، فما هو مصرى — مثلا — يظل مصرياً ، ولا يرحل أبداً عن أرض الوطن ؛ لا بل قد تنحصر النكتة فى جيل واحد من أهل البلد الواحد ، فنكتة أضحكت الناس منذ عشرين عاما أو ثلاثين قد لا تضحكنا اليوم ، لتغير الظروف .

وما كذلك البكاء ! فللبكاء قوة يتخطى بها الحواجز والسدود ؛ البكاء إنسانىّ عام ، فما يبكى إنساناً فى أقصى الأرض من طرف ، يبكى زميله الإنسان فى أقصاها من الطرف الآخر ؛ وما قد أسال الدمع فى عهد مينا وخوفو لا يزال حتى اليوم قادراً على إسالة الدموع ؛ إنه ليقال عن « ماكولى » — وفى القول مبالغة جميلة — إنه كان يقرأ الإلياذة يوماً وهو سائر فى الطريق ، فلما طالع موت هكتور سحّت عبراته على وجهه ، فهل

يمكن أن نسمع عن أديب آخر ، أخذ يقرأ ملهاة لأرستوفان وهو سائر في الطريق فإذا هو يضحك حتى يشق الضحك جنبيه ؟ !

* * *

وإذا كان من علائم الشخصية القوية أن تصمد للهجمات الضاحكة يشنها عليك أبناء الأمة جزاء خروجك على أوضاعهم ، فماذا أنت قائل في رجل يجعل نفسه هو الضاحك الساخر بأبناء بلده أجمعين ؟ .

فلعلك قد رأيت كيف يتفاوت الناس في روح الفكاهة ، فمنهم من إذا ضحكت منه « مات في جلده » — كما يقولون — ومنهم من يرد الضحك بضحك أقوى ، وما يزال كذلك حتى يرتد سهم السخرية إلى نحر الساخر الأول . . . وهكذا يكون موقف الساخر العظيم من أمته : يشذ عن أوضاع الناس ، فيسخر منه الناس ، فيرد السخرية بسخرية أمضى ، حتى تنتهي المعركة ، فإذا هو واقف وحده في الميدان ، يضحك ويسخر ، وجموع الناس من حوله تضحك معه وتسخر ؛ وإنما يضحكون عندئذ ويسخرون من ذوات أنفسهم !

من أمثال هؤلاء الساخرين الأفذاذ ڤولتير ، وسويفت ، ودكنز ، وشو . . . ومنهم — وكدت أقول على رأس الساخرين جميعا في العالم طرا — أديب ياباني أمره في السخرية عجب ، هو « جيينشا إيكو » —

هذا الذى أدقعه الفقر بين قومه ، فهزأ ساخراً بالفقر و بقومه معا ؛ لم يكن فى بيته أثاث . فعلق على جدرانه العارية صوراً للأثاث الذى كان يشتريه لو استطاع ! وفى أيام المواسم الدينية كان يضحى للآلهة بصور فيها رسوم للقرابين التى كان يتقدم بها إلى هؤلاء الآلهة لو كان عنده المال ! .

لم يكن « إيكو » يصيب من كُتُبه مالا ، فكان رقيق الحال رث الثياب ؛ وحدث مرة أن جاءه الناشر يزوره فى بيته ، وكان هذا الناشر يرتدى ثوبا جميلا فاخرا ، فما زال به الأديب المتفكه حتى أغراه بالاستحمام — وكان اليوم عيدا — وما إن وقع الناشر فى الفخ حتى لبس صاحبنا ثيابه تلك الجميلة الفاخرة ، وراح يزور بها كل من عرفهم من أهل وأصدقاء .

ولما كان « إيكو » فى فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثمانه قبل إحراقه بضع لفائف أعطاهم إياها فى وقار وجد ؛ وجاءه الموت ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعل الحطب الذى أعد لإحراق جثته ، ووضعت اللفائف على جسده بين ألسنة النار ، وإذا بها تحتوى على صواريخ ، أخذت تطقطق فى مرح ونشوة ، وراحت تنطلق فى الهواء رسوما ملونة ؛ فلم يسع الحاضرين إلا الضحك ، بعد أن كانوا من رهبة الموت فى حزن وخشوع ؛ كأنما أراد هذا الساخر العظيم أن

يلطم الناس لطمة قوية تؤلب عليهم ضمائرهم ، التى أهملته حيا ، وجاءت الآن تصطنع الهم والاهتمام أمام جثمانه !

ابتسامة السخرية أداة فى يد الأديب القادر ، يصلح بها ما قد فسد عند الناس من طرائق العيش والتفكير ؛ ويكاد يستحيل ألا تسخر من جماعة إلا إذا كنت فى أعماقك راضيا عن أسلوبها . . . ولك أن تسأل بعد ذلك : أين فى أدبائنا الأديب الساخر ؟ .

أنتيجونا

إلى أى الجانبين ننتصر إذا نشأ التعارض ونشب الصراع : أننتصر لذوى القربى من أبناء الأسرة ، أم للقانون الذى يمثل الأمة جميعاً ؟ .

وكثيراً جداً ماينشأ ذلك التعارض وهذا الصراع فى صدور الأفراد ، لأن كل فرد هو فى الوقت نفسه عضو من أسرة وفرد فى أمة ، وقد يحدث أن يجيء فعله مواتياً لصالح أسرته وأمته معاً ، لـكن قد يحدث كذلك أن يكون الفعل الذى يخدم صالح أسرته مناهضاً لصالح الأمة ، والفعل الذى يخدم صالح الأمة مناهضاً لصالح الأسرة ، فإلى أى الجانبين ينبغى له أن يتحيز وينتصر ؟ .

أما من الوجهة النظرية فلا أحسب أن اثنين يختلفان ، فى الإجابة عن هذا السؤال ؛ فالأمة عندنا جميعاً هى المجموعة الـكبرى التى تحتوى فى جوفها الأسر ، وهى التى يجب أن تظل سواء بقيت أو فنيت هذه الأسر أو تلك ، فلا ضير علينـــــا أن تزدهر أسرة أو تذوى ، أو أن تولد أسرة أو تموت ، لـكن علينا كل الضير إذا فقدت الأمة مقومات بقائها ، لأن الخيط الذى يمسك الأفراد وأسرهم فى كل واحد ، ينقطع عندئذ وينفرط العقد ، وتنتثر الحبات فرادى ؛ وبذلك نـكون بمثابة

من يناقض نفسه ، لأننا حين أقنا من أنفسنا مجموعة كبرى أسميناها أمة ، قد اعترفنا ضمناً أننا فى ظل هذه المجموعة وحدها نستطيع أن نعيش ؛ وماذا أنت قائل فى رجل يظل السنين يُنبت شجرة و يرعاها فى سبيل أن يستمتع بظلها ، حتى إذا ما نمت الشجرة وامتد ظلها ، أمسك بيده الفأس ليبترها عن أرضها زاعماً لنفسه أن صالحه أحق بالرعاية وأولى ؟ كأن صالحه الفردى لم يكن هو المبدأ الأساسى والدافع الأول لاجتماعه مع غيره فى حظيرة أمة واحدة !

نقول إنه لاخلاف على ذلك من الوجهة النظرية ، حتى إذا ما وجدنا أنفسنا أمام الموقف العملى الذى يتطلب منا أن نسلك هذه السبيل أو تلك ، فإما أن ننتصر لأبناء الأسرة التى ننتمى إليها ، أو أن ننحيز للأمة على حساب الأسرة ، حين يكون بين صالح هذه وصالح تلك تعارض واختلاف ، فعندئذ يتعذر جداً على غير من قطعوا من المدنية شوطاً بعيداً ، أن يغضوا أطرافهم عن صوالح أسرهم فى سبيل مصلحة المجموعة الكبرى .

و إذاً فذلك مقياس تستطيع أن تسبر به مدى ما نالك من تحضر وتمدن ؛ هو مقياس تستطيع أن تجزم به لنفسك إن كنت لا تزال بدائياً جاهلياً فى تكوينك النفسى ، أم خطوت إلى أمام مع خطو الزمن ؛ وسأروى لك فيما يلى خلاصة لمسرحية أنتيجونا[1] التى أنشأها سوفوكليس

(١) النصوص الواردة هنا مأخوذة من الترجمة العربية للدكتور طه حسين فى كتابه « من الأدب التمثيلى اليونانى » .

ليصور بها هذا الصراع الذى ماينفك ينشب فى صدور الأفراد حين يدعوهم الداعيان معاً : داعى الأسرة وداعى الأمة ، وحين يكون الداعيان على تناقض وخلاف ، سأروى لك هذه الخلاصة لتسأل نفسك بعدها : هل أشعر بالعطف على أنتيجونا التى آثرت واجبها نحو أخيها على واجبها إزاء قانون أصدره الملك ليمثّل به صالح الأمة ؛ أم أشعر نحوها بالسخط والغيظ ؟ فإن وجدت نفسك عاطفاً عليها راضياً عنها ، فاعلم أنك إذاً ما تزال فى هذه المرحلة الأولية البدائية بقلبك وشعورك ، وإن ظننت فى نفسك غير ذلك وأنك فى حاجة إلى أن تغير من نفسك ، ليغير الله ما يحيق بأمتك من تهدم وتصدع وانحلال :

« إتيوكليس » و « بولينيس » أخوان قضيا معاً فى يوم واحد ، أما الأول فقد أجيز لجثمانه أن يوارى فى التراب وأن يؤدى إليه من الواجبات الدينية ما يسر نفوس الموتى ، لأنه جاد بنفسه فى سبيل وطنه ، وأما الآخر فقد أمر الملك « كريون » — ملك ثيبة — ألا يُدفن ولا يُبكى ، وأن يُترك نهباً لسباع الطير التى تتأهب لافتراسه ، وذلك لأنه ناصر أعداء الوطن على وطنه ، ويجىء النبأ إلى أختهما أنتيجونا ؛ فماذا تراها صانعة ؟ إن رابطة الرحم التى تربطها بأخيها بولينيس تقضى عليها ألا تترك جثمانه فى العراء بغير أن يقبر أو تؤدى إليه فروض الدين ، لكن هذا هو أمر الملك — والملك هنا هو الدولة وأمره هو صالح الأمة — هذا هو أمر الملك

صريح ، بأن من يحاول دفن ذلك الشقى الآثم ، سيلقى أقصى أنواع العذاب وسط المدينة و بمشهد من مواطنيه .

وتلتقى أنتيجونا بأختها أسمينا لتحمل إليها النبأ ، ولتطلب إليهـا أن تعاونها على دفن أخيهما :

أسمينا — ماذا ! أى أنتيجونا التعسة ! أتقدمين على ذلك رغم أمر كريون ؟

أنتيجونا — أله الحق أن يقطع مايصل بينى و بين قرابتى ؟ .

أسمينا ... ... إن الذين يأمرون أشد منا قوة ، و إن علينـا أن نذعن لما يريدون ...

أنتيجونا ... ... إفعلى ما تؤثرين ؛ أما أنا فوارية أخى ، فإذا أديتُ هذا الواجب ، فما أجمل بى أن أموت .

وقامت أنتيجونا بما رأته واجبها نحو جثمان أخيها ، فوارته التراب ، متعرضة بذلك إلى غضب الملك وعقابه ؛ ولم يزل الحراس يبحثون عمن اجترأ على دفن بولينيس ، حتى علموا أنها أنتيجونا ، فساقوها إلى الملك كريون :

كريون — ماذا ! أتظلين مطرقة إلى الأرض من غير أن تنكرى ما تؤخذين به ! . . .

أنتيجونا — كلا ، بل أنا أعترف به ، وأنا أبعد الناس من إنكاره .

كريون — أجيبيني من غير محاولة ، أتعلمين أني قد كنت حظرت مواراة بولينيس ؟ .

أنتيجونا — نعم ، أعلم ذلك . وهل كان يمكن أن أجهله ؟ وقد أعلن إلى الناس كافة .

كريون — وكيف جرؤت على مخالفة هذا الأمر .

أنتيجونا — ذلك لأنه لم يصدر عن « ذوس » ولا عن « العدل » مواطن آلهة الموتى ، ولا عن غيرها من الآلهة الذين يشرعون للناس قوانينهم ، وما أرى أن أمورك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين التي تصدر عن رجل أحق بالطاعة والإذعان ، من القوانين التي تصدر عن الآلهة الخالدين ، تلك القوانين التي لم تكتب ، والتي ليس إلى محوها من سبيل ؛ لم توجد هذه القوانين منذ اليوم ولا منذ أمس ؛ هي خالدة أبدية ، وليس من يستطيع أن يعلم متى وجدت ؛ ألم يكن من الحق على إذاً أن أذعن لأمر الآلهة من غير أن أخشى أحداً من الناس ؟ قد كنت أعلم أني ميتة . . . ومن ذا الذي يعيش من الآلام في مثل هذه الهوة التي أعيش فيها ثم لا يرى الموت سعادة وخيراً . . وقد كنت أتعرض لما هو أشد لنفسي إيذاء لو أني تركت بالعراء أخا حملته الأحشاء التي حملتني .

وجعل الملك يبدى من دهشته لجرأة الفتاة ، وجعلت الفتاة تبدى من فخرها لأدائها واجبها ، قائلة فيا قالت : « وأى مجد أحب إلىّ من أنى قد واريت أخى ؟ »

ويسألها الملك : ألا يخزيها أن تسلك سبيلا غير السبيل التى سلكها أهل ثيبة جميعاً حين أطاعوا أمره ؟ فتجيبه : ليس هنالك ما يحمل على الخزى إذا شرف الإنسان من يصل الدم بينهم وبينه .

ويلفت كريون الملك نظر أنتيجونا إلى أنها قد كان لها أخوان ، لا أخ واحد ، أحدهما دافع عن وطنه فاستحق التشريف ، وجاء الآخر يدمر وطنه فاستحق اللعنة . فكيف يسوغ لها — إذاً — أن تسوى بين الأخوين فى المعاملة ، فتجيبه أنتيجونا بأنها لا تفرق بين أخويها ، فكلاهما أخوها لأبيها وأمها ، وإن الآلهة لتأمرها بتشريفهما جميعاً .

ولا يجد الملك بداً من أن يأمر بالفتاة فتلقى فى كهف حتى تموت ؛ لكن الأديب الفنان سوفوكليس ، يمضى فى تعقيد الأمور ، ليتبين مُشاهد المسرحية كيف ينصب البلاء على من يحاول العبث بتقاليد الناس ، لأن التقاليد فى عصره لم تزل أقوى من قوانين الدولة ، فهو ينتصر لأنتيجونا ، راعية التقاليد على كريون مشرع القوانين ؛ فجعل « هيمون » بن كريون وخاطب انتيجونا ، يلقى بنفسه وراء حبيبته فى كهفها ،

فيموتان معاً . وتسمع الملكة — زوجة كريون — أن ابنها قد لقي حتفه ثمناً لعناد أبيه ، فتنتحر حزناً عليه ؛ فتنزل الكروب بالملك : « مثل سيء ضرب للناس يبين لهم ماذا يجر الموج على الملوك أنفسهم » .

كريون : قودوني إلى مكان بعيد ، أنا هذا الشخص المجنون ! أي بني لقد قتلتك دون أن أريد ، ولقد قتلتكِ أنت أيضاً أي أوريديس (الملكة) واحسرتاه ! لست أدري إلى أيكما أنظر ، ولا إلى أي جهة أتحول ، لقد فقدت كل شيء ، لقد ألح على رأسي قضاء لايطاق .

رئيس الجوقة — إن الحكمة لأول ينابيع السعادة . . . إن غرور المتكبرين ليعلمهم الحكمة بما يجر عليهم من الشر ، ولكنهم لايتعلمون إلا بعد فوات الوقت وتقدم السن .

* * *

ونعود فنسأل القارىء : ماذا ترى من نفسك ، وإلى أي جهة تميل ؟ أتناصر أنتيجونا أم تناصر الملك ؟ إن انتصارك لأنتيجونا انتصار للأسرة على الأمة حين ينشأ التعارض بينهما ، وانتصارك للملك انتصار للقانون على حكم التقاليد — ما أحسبك إلا ذاهباً بعطفك وعاطفتك مع أنتيجونا ، لأنك — مثلي — قد نشأت في جو يُقَرِّب إلى قلبك الأهل بأشد وأقوى مما يُقَرِّب المواطنين « الغرباء » ؛ وقد يهون شر ذلك

فى مثلك ومثلى ، لأن كلينا ليس من أصحاب الحكم ، فإيثاره لجانب على جانب ليس بذى خطر بعيد ، لكن الطامة الكبرى حين يتأثر أصحاب الحكم بما نتأثر به — أنت وأنا — من عواطف العامة والدهماء .

إننى أقول ما قاله كريون مدافعاً عن وجهة نظره : « ليس من سبيل إلى أن تعرف نفس الرجل وذكاؤه وأخلاقه إذا لم يجلس مجلس الحكم ، ولم يوكل إليه تدبير الدولة وحماية قوانينها ؛ أما أنا فأعتقد وقد اعتقدت دائماً أن ذلك الرجل الذى يكلف الحكومة وحماية القوانين فلا يقف نفسه على النصح للدولة وتضحية كل شىء فى سبيلها ، بل يمنعه الخوف من ذلكم — أعتقد أن هذا الرجل شرير ممقوت ، ولا أستطيع إلا أن أزدرى ذلكم الذى يؤثر منفعة الصديق على منفعة الوطن » .

إنه لم يعد بد — كما قلت فى موضع آخر — من تغيير قيم الأشياء والأوضاع ، فما كان صالحاً لآبائنا لم يعد صالحاً لنا ؟ فقد كانت شدة الروابط الأسرية موضع فخر حين كانت الحياة بدوية متنقلة بين أطراف الصحراء ، فكان حتماً على أبناء الأسرة الواحدة أن يتحدوا جبهة واحدة أمام هجمات الأسر الأخرى أو القبائل الأخرى — والقبيلة أسرة كبيرة — أما اليوم فسبيل الخير هو أن نخلخل الروابط الأسرية بعض الشىء ، حتى لا يجد الرجل نفسه ملزماً بحكم تربيته أن يؤثر ذوى رحمه على سواهم حين

يؤول إليه زمام الحكم وتلقى فى أيديه مقاليد الأمور ، ويصبح قادراً على الضر والنفع .

إنه لاتناقض بين أن تكون للأسرة المكانة الأولى عند الطفل ، حتى إذا ما تم له النمو فى محيطها وخرج للناس رجلاً ، تصبح لأسرته المكانة الثانية ، كما أنه لاتناقض بين أن يطعم الرضيع من ثدى أمه ، حتى إذا ماجاوز حدود الرضاعة التمس لرزقه مورداً آخر .

إن بين أمثالنا التى تصور أخلاقنا مثلاً يقول : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » — صورة قوية موجزة للتكتل الأسرىّ البغيض ، ونريد أن يأتى الزمن الذى تقول فيه أمثالنا : ألا « غريب » بين أبناء الوطن الواحد ، وأننى وأخى وابن عمى وأبناء الوطن جميعاً على من نوليه أمورنا فيؤثر « قريباً » على « غريب » .

نشر القديم

إنى أتهم أدباءنا ومفكرينا بالجبن والخور ؛ وأمام مَن يخورون ويجبنون ؟ أمام سواد الناس من الأميين وأشباههم ! أتهم أدباءنا ومفكرينا بالجبن والخور أمام السواد ، ولست أدرى فيم إذاً حملهم للقلم إذا لم تكن مهمتهم الأولى أن يستحيل هذا « السواد » على أيديهم بياضاً ؟ .

أدباؤنا ومفكرونا يرتعدون خوفاً ورعباً مما عسى أن يقوله الناس فيهم ، كأن الله قد خلق الطغام ليملوا على أصحاب الفكر ما يكتبون ويزجروهم عما لا يكتبون ، ولم يخلق أصحاب الفكر لكى يكونوا لهؤلاء الناس نبراساً يهتدون به ويَرشُدون .

سيطر هذا الخوف على أدبائنا ومفكرينا — لا أكاد أستثنى من كبارهم أحداً — حتى لقد أصبح من المألوف لقارىء أن يسأل قارئاً كلما كتب الكاتب من هؤلاء الكبار مقالاً أو أخرج كتاباً يتمشى مع عقيدة العامة ووجهة نظرها : أحقاً يعتقد فلان هذا فى صدق ما كتب ؟ أصبح من المألوف أن يسأل قارىء قارئاً مثل هذا السؤال عما يكتبه كبار أدبائنا ومفكرينا مما يمالئون به سواد العامة ، لأن القراء قد أدركوا هذه

الهوة السحيقة التى أصبحت تفصل بين ما يدور فى باطن المفكر وبين ما يخرجه للناس على الورق ؛ وأصبح القراء فى حيرة من أمر قادة الفكر فيهم : متى يقصد هؤلاء القادة حقاً إلى صـــدق ما يكتبونه ومتى لا يقصدون ؟ .

إن كانت فكرة الكاتب متمشية مع فكرة العامة ، مضى فيها الكاتب من أول حياته الأدبية إلى آخرها ، لأنه ليس فى طريقه خطر يحمله على انتهاج سبيل آخر ؛ وأما إن كانت فكرة الكاتب متعارضة مع رأى العامة ، فهنا تلحظ الأعاجيب فى سيرة الكاتب ، فهو يبدأ حياته الأدبية بشىء لينتهى آخر الأمر إلى نقيضه ، ومن ثم سؤال القراء بعضهم بعضـا ، أحقاً يعتقد الكاتب فى صدق ما يروى ؟ دلنى على مفكر واحد من أصحاب القلم عندنا قد عُرف بفكرة معينة تصدم عقيدة سواد الناس ، ثم ثبت عليها ، وأخذ يكتب فيها دون أن يتحول عنها .

قد يبدأ الكاتب عندنا بشىء من الشجاعة فيعلن الرأى الذى يخالف ما قد ألِفَه الناس وتواضعوا عليه ، لكنه سرعان ما يعود بيسراه ليمحو ما خطّته يمناه ، ولا يتردد فى تمزيق أوتاره جميعاً ليعيد مكانها وتراً يبعث به النغم الذى يحلو وقعه فى المسامع — لماذا ؟ لأن المسكين يريد أن يبيع بضاعته فى سوق رائجة التماساً للقمة العيش ؛ ألا قبّح الله عيشاً يكون السهر الأدبى وسيلته .

على أن لقمة العيش إن كانت فى أعين الناس مبرراً كافياً لهذه الزندقة الفكرية ، فماذا يبرر أن نرى الكاتب قد أصاب ما يكفى جوفه وجوف أولاده من شِبَع ورِىّ ، ومع ذلك يدس عقيدته بين ضلوعه ابتغاء مجد شبى أو شهرة رسمية ؟ إنى لأذكر بهذه المناسبة سطرين من الشعر الإنجليزى ، قالهما شاعر محزون فى منتصف القرن التاسع عشر ، إذ رأى واحداً من زملائه الشعراء قد اختطفته من بين زمرتهم يد تشبه يد المنون فى بشاعتها ، وأعنى به « تِنِسُن » (على ما أذكر) حين اختاروه أميراً للشعراء ، وهو لقب كان يحتم على صاحبه أن يكون تابعاً من توابع السلطان.. فقال الزميل المحزون على فقد زميله سطريه المشهورين :

« من أجل حفنة واحدة من الفضة قد تَرَكنا

تَركنا ابتغاء شريط يلصق بسترته » .

* * *

ومن يدرى ؟ لعل هذه المقدمة الطويلة قد أملاها علىّ الهوى ، لأمهد بها لرأى جرىء أريد أن أفجأ به القارىء ثم أترك على الله بعد ذلك رزق ؛ فقد أردت أن أعبر فى هذا المقال عن رأى أراه وأومن بصدقه ، وهو أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة بهذه النسبة الكبيرة البادية فيما نُكثر من نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، هو أشبه شىء بالوباء يصيب نهوضنا الفكرى الذى لم يستقم بعد على قدميه ؛ وربما أحدث هذا

الو باء فى عقولنا من الضر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره .

أردت أن أقول إن كثيراً جداً مما نقوم على نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، لا تساوى قيمته قيمة الورق الذى طبع عليه ؛ وليت الأمر فى ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل إنه ليعيد لنا جواً فكرياً قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمتلىء به رئاتنا وصدورنا ، فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهقرى ؛ فلست أدرى بأى حلق أصيح حتى تسمع الصيحة ؛ فأقول : إننا يا قوم فى واد والدنيا المتحضرة فى واد آخر .

والأمر أمر نسبة صحيحة بين الأشياء ؛ فلو كان كل كتاب عربى قديم تقوم المطابع على إخراجه واستنفاد الورق والحبر فيه ، يقوم إلى جانبه ألف كتاب مما ينقل إلينا ثمار المدنية الحاضرة والفكر المعاصر ، لما كان هنالك موضع للشكوى ؛ أما والمطابع منصرفة بمعظم مجهودها إلى شد الأعناق إلى الوراء ، حتى لنكاد نطالع كل يوم إعلاناً جديداً عن كتاب آخر قديم كتب له النشور وشهد النور بعد ظلمة القبور ، فمن ذا يلومنا على آهة الحسرة نبعثها من أعمق أعماق النفس أسى وأسفا ؟ .

الكتاب القديم تحفة نضيفها إلى المكتبة لنضيف بها صفحة الماضى

إلى صفحات الحاضر ، لكننا نعيش على صفحات الحاضر ونتسلى بذكريات الماضى ، اللهم إلا إذا كان المراد بنا أن تكون حياتنا كلها أحلاماً نستعيد بها مجدنا القديم ، فتمضى الحياة الحاضرة تحت أنوفنا ونحن نيام رقود ؟ .

ألست ترانا نجمع الآثار القديمة فى متحف واحد أو متحفين أو عشرة ، ثم نترك ألوف الألوف من المبانى بعد ذلك للسكنى والعيش ؟ من ذا يريد أن يكون المتحف المصرى داره التى ينام فيها ويأكل ويعمل ويسمُر مع أهله وأصدقائه ؟ !

لكن الذين يريدون أن يملأوا علينا رفوف المكاتب بالقديم المنشور هم كمن يريدون أن يُنسونا أمور عيشنا ويجعلون من المتاحف مضطرب حياتنا ؛ لقد يكون من الخير أن تضع تمثالاً فى هذا الركن أو ذاك من أركان دارك ، أو تعلق صورة هنا أو هناك على جدرانها ، على أن تستبقى لنفسك معظم فراغ الدار للجلوس والحركة والأكل والنوم والطهى والغسل .

الكتاب القديم المبعوث من قبره هو كالكراسة القديمة نعثر عليها تحت الأثاث المخزون ، ونتصفحها فنجدها أثراً جميلاً من آثار الطفولة ، فهى الكراسة التى كنا نكتب فيها الحساب أو الإنشاء ونحن فى المدرسة

الأولية ، فنبتسم لها ابتسامة الإشفاق ونمسح عنها التراب ونضعها فى ركن من خزانة الكتب احتفاظاً بذكرى يوم مضى ؛ لكن الأمر ينقلب جنوناً صريحاً إذا جعلنا هذه الكراسة بعد ذلك شغلنا الشاغل ، نقرأ ما فيها قراءة من يتوهم الجد فى عمله .

ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الذين يلوون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء ؟ ماذا يريدون للمهندس الذى يبنى العمائر والجسور ويرصف الطرق أن يقرأ ليقوم بما نحب له أن يقوم به من بناء وتعمير ؟ ماذا يريدون للطبيب الذى يُسأل عن شفاء المرضى أن يقرأ ليؤدى ما نسأله عن أدائه ؟ ماذا يريدون للاقتصادى الذى نطالبه بتصريف بضائعنا فى الأسواق العالمية وباستيراد حاجاتنا من تلك الأسواق بأحسن الشروط ، ماذا يريدون لهذا الاقتصادى أن يقرأ لكى يحقق لنا هذا الذى نطالبه به ؟ ماذا يريدون للزارع الذى نود له أن يملأ علينا المخازن غلة وثمراً أن يقرأ لتتوافر لنا بحبوحة العيش ورخاؤه ؟ أم هل يريد هؤلاء الناس لنا أن ننصرف عن هندستنا وطبنا واقتصادنا وزراعتنا لنقرأ الوافى بالوفيات ونوادر المخطوطات وكتاب الإرشاد والمزهر وترجمة ابن عساكر . . . ؟ ! .

« لا ، يا جاهل ! » — الآن خيل إلى أن قراء كثيرين سيُشفقون علىّ من هذا الجهل المطبق الذى أبديه ، وسيخاطبوننى من بُعد قائلين :

« لا ، يا جاهل ! فما لنا الآن بالهندسة والطب والاقتصاد والزراعة ؟ ! هذه الكتب القديمة التي ننشرها إنما هي للثقافة والتثقيف . . . . » كأن الشرط في « التثقيف » عندهم أن يمتلىء الرأس بما ليس ينفع الحياة في شيء من بناء الدور وشفاء المرضى .

والحمد لله فقد رضيت لنفسي بالجهالة المطبقة إن كانت هذه الكتب هي أدوات الثقافة التي أملأ بمكنونها رأسي ! لو كان ما أريده فناً من الفنون ، فقبل أن أقرأ هذه الكتب لا بد لي أولاً أن ألم بما يكتبه جهابذة الفن من أهل المدنية القائمة ؛ ثم أعقّب على ذلك إن شئت بصفحة أقرؤها من صفحات الطفولة الماضية لأتسلى بلهو الماضي إلى جانب جد الحاضر ؛ وإن كان ما أريده أدباً من شعر أو نثر أو قصة أو مقالة أو ما شئت ، فلا بد لي أولاً أن أملأ جعبتي بالزاد الذي يغذيني غذاء حديثاً لأسير مع السائرين في ركبهم ، ثم بعد ذلك ألهو ساعة أو ساعتين بنوادر المخطوطات — وإنما ضربت المثل بالفن والأدب ، وهما ما قد يظن أهل الظنون أن لنا فيهما شيئاً نفاخر به بين ما تفاخر به سائر الأمم ، ولم أذكر شيئاً عن العلوم التي لا أحسب مكابراً يريدنا على ترك ما عند الغرب منها لنتزود بما قاله فيها العرب الأقدمون .

احكموا بيننا أيها المنصفون : هذا كتاب قديم نشره الناشرون ، فيه — مثلا — طب قديم أو علم نفس قديم ، فكم من الزمن ينبغي

أن أخصصه لمثل هذا الكتاب بحيث يكون في دراستي شيء من الاتزان ، فلا يطغى قديم على حديث ؟ في رأيي أنه كلما أنفقت ألف ساعة فيما يقال عن الموضوع عند الباحثين المعاصرين ، يكفي أن أنفق ساعة واحدة في نظرة أنظر بها إلى ما قاله صاحبنا القديم ، ويكون ذلك على سبيل اللهو والتسلية الذي لا جد فيه — وإن كان ذلك كذلك فقد كان ينبغي أن يصدر ألف كتاب فيها ثقافة حديثة كلما صدر كتاب واحد قديم — لكن انظر إلى ما تخرجه لنا المطابع هذه الأيام واعجب .

إن كل أنواع العزلة شر على الحياة الخصبة المليئة ، إلا إن كانت عزلة مؤقتة فيها استعداد لما بعدها ، وشر أنواع العزلة جميعاً هي العزلة الفكرية عن سائر العالم ؛ فليس الفكر طاحونة تدور في الهواء ولا تطحن شيئاً ، إنما الفكر يدور في أبحاث علمية من طبيعة وكيمياء ونبات وحيوان ونفس واجتماع واقتصاد وزراعة وتجارة وحرب ، ونظم سياسية ونظم تربوية وغيرها ، وفي كل هذه الأمور يكتب المؤلفون من رجال الغرب عشرات الكتب تلو عشراتها ، فهل نترك هذه الأكداس الفكرية كلها ، لننطوي على أنفسنا في جب مظلم ملىء بالتراب ، فننفض الغبار عن كتاب قديم فيه — مثلاً — أسماء الخيل عند العرب أو ذكر الأعشاب وطرائق تحضيرها والعلاج بها ، ونهش ونبش لهذا الكنز الثمين ، ونروح نغدق عليه المال على فقرنا ، والورق على ما نحن فيه من مجاعة ورقية ، ونشغل

به أصحاب التفكير والقراء فى آن معاً ؟ والأمر — كما أسلفت — هو نسبة صحيحة بين الأشياء ، فلو أخرجتُ هذا الكتاب وإلى جانبه ألف كتاب — على أقل تقدير — مما ينقل إلىّ ثقافة الغرب القائمة اليوم ، والتى يسير العالم الآن على هديها ، وعلى شرط أن تكون هذه الكتب الألف موضع الجد والدراسة ، وأن يكون ذلك الكتاب القديم الواحد بمثابة التحفة التى تنظر إليها نظرة من لايريد أن ينسى طفولته الدابرة ، لو حدث هذا لما كان لنا على نشر القديم ملامة وعتاب .

ماذا يكون مصير الأجيال الجامعية الناشئة حين تتلفت فى عالم الكتب العربية لتقرأ ، فلا تجد على رفوفها إلا هذه الهياكل المظلمية التى أخرجناها من قبورها ولففناها بورق أبيض ناصع ، وقلنا هاكم الأزاهر النضرة فاملأوا خياشيمكم بشذاها ؟ مصيرهم محتوم ، وهو أن يُقبلوا عليها بقدر ما فى وسع شبابنا الجامعى أن يقبل على قراءة ، وما هو إلا أن يظن هؤلاء الشباب أن العلم هو هذا ، وأن الدنيا هى هذه التى طالعوها على صحائف تلك الكتب ، ولسنا فى هذا التقدير بمسرفين ، فعلى بعد خطوات منا معاهد تأخذ بمثل هذه الدراسة ؛ فعليكم بها وانظروا ما « العلم » فى جوها وبين أبهائها .

وهكذا سيمضى الغرب فى طريقه وسنمضى : هو يشتغل بتفتيت الذرّة ، ونحن نعبث بتشقيق الشّعرة . هل هذه اللفظة قالها العرب مفتوحة

أو مضمومة ؟ وهل هذا الحرف فى النص الأصلى فاء أو قاف ؟ سيمضى الغرب فى طريقه وسنمضى : هو يحاول الصعود إلى ذرى السماء ، ونحن نحفر الأجداث لنستخرج منها الرم .

لست أدعى أننى فريد قوى فى هذا الرأى الذى أراه ، فهم يعدون بالألوف أولئك الذين يضحكون سخرية من هذا الإسراف فى نشر الكتب القديمة ؛ ودليل ذلك أنهم يعدون بالألوف أولئك الذين لا يقرءون صفحة واحدة من هذه الكتب لو أهديتهم إياها بغير مقابل من مال ؛ لكن أحداً من هؤلاء لايجرؤ على الجهر بهذا الرأى خوفاً من العامة وأشباههم ؛ إن رأى العامة هو أن للآثار العربية قدسية لاينبغى أن تدوسها قدم ، فإذا كتب كاتب فليتغن بهذا اللحن أو فليصمت .

وهأنذا أبيع سمعتى العلمية بغير ثمن ، لأن تسعة وتسعين قارئاً من كل مائة سيتمتم لنفسه قائلا عنى : جاهل لايعرف قيمة الدر النفيس .

سُلَّم القيم

ليست قيمة الشيء كائنة فيه جزءاً منـــــه ، كما تكون عقارب هذه الســاعة التي أمامي جزءاً منها يتصل وينفصل ؛ إنما تنشــأ قيمة الشيء عن علاقتنا به ، فنحن الذين نجعل للأشياء قيمتها ، مهمــا يكن نوع تلك القيمة ، اقتصادية أوخلقيـــــة أو جمالية ، صادرين في تقويمنا للأشياء عن مصالحنا الذاتيــة ، فــا يخدم لنا صالحاً كان له من القيمة بمقدار ما يخدم ؛ ولذلك ترانا ندرِّج الأشياء المختلفة التي تشبع فينا حاجة أو غرضاً ، ندرِّجها في سُلَّم متفاوت من القيم ، حسب تفاوتها في إشباعها لحاجاتنا وتحقيقها لأغراضنا .

لهذا قد تجعل للشيء قيمة في موضع معين أو سياق معلوم ، حتى إذا ما تغير موضعه أو اختلف سياقه ، فقد قيمته ، وكلنا قد قرأ إبان الطفولة قصة المسافر الذي انقطع به الطريق في الصحراء ، وقد فرغ منه الزاد وكاد الجوع أن يهلكه ، فراح يخبط في سيره يميناً ويساراً حتى وقعت عيناه على صرة ملقاة ظنها طعاماً ، فأخذته نشوة من الفرح ردت إليه الأمل في الحياة ، لـكنه فتحها بيد مرتعشة ليجدها مليئة بالدر والجوهر ، فألقى بمكنونها « النفيس » في يأس وقنوط ، إذ لم تـكن لذلك الدر والجوهر عندئذ قيمة رغيف واحد من الخبز .

ويصدق هذا الكلام على القيم الأخلاقية والجمالية صدقه على القيمة الاقتصادية ؛ فالفعل فضيلة أو رذيلة حسب مايقوم به ذلك الفعل فى نهاية الأمر بتهيئة أسعد حياة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس ؛ وليس فى الفعل ذاته — كائناً ما كان — شىء يجعله فضيلة أو رذيلة بغض النظر عن الظروف المحيطة به ؛ حتى ليحدثنا علماء الأجناس البشرية بأنه ما من فعل يطوف بخيالك ، إلا وجدته هو نفسه فضيلة عند بعض القبائل وفى بعض العصور ، ورذيلة عند قبائل أخرى وفى عصور أخرى .

كان الرق فعلاً مباحاً فيما مضى فأصبح محظوراً محرماً ؛ كانت الطاعة العمياء لولى الأمر عبادة أيام بناء الهرم الأكبر ، فأصبحت عبودية تضع الدساتير لها قيوداً وحدوداً ؛ كان الثأر واجباً لامندوحة لأفراد الأسرة أو القبيلة عن أخذه بأيديهم عاجلاً أو آجلاً ، فأصبح علامة على الهمجية التى يقف فى وجهها القانون ، وهكذا وهكذا مما لا يكاد يحصيه عد من الأفعال والأوضاع .

وحتى حين يحكم فريق من النـاس فى عصر معين على فعل بأنه خير ، فهم لايقصدون بالخير إلا صورة الفعل كما تبدو حركاتها الجسدية فى عين الرائى ، بل يقصدون إلى ما يترتب على ذلك الفعل من نتائج جالبـة للعيش الرخى السعيد ؛ وإلا فإن تجد فرقاً فى الصورة الحركية الظاهرة لفعل الشجاعة وفعل الجبن : كلاهما مشى أو جرى ، الشجاع

يمشى نحو عدوه أو يجرى ، والجبان يمشى مبعداً عن عدوه أو يجرى ؛ لكن المشى أو الجرى فى الحالة الأولى ينتج نتائج نسعى إليها ونرضاها ، وهو فى الحالة الأخرى يعود علينا بما لا نحبه أو نبتغيه .

كذلك قل فى القيمة الجمالية : فالشىء الذى نقول عنه إنه جميل ، قد يكون شديد الشبه جداً فى صورته الخارجية بالشىء الذى نقول عنه إنه قبيح ؛ لأن جمال الجميل وقبح القبيح ليس كائناً فى الشىء ذاته ، وإنما ينبعث من نظرتنا الذاتية لهذا وذاك ؛ وإلا فما الفرق فى الصورة بين ثدى « جميل » على صدر فتاة ناهد ، وبين ورم « قبيح » على عنقها ؟ وما الفرق بين ماء الشلال الدافق حين تنظر إليه ساعة التنزه ، وبينه حين تنظر إليه وطفلك غارق فيه ؟ لا فرق إلا ما تحدده أهواؤنا ومصالحنا الشخصية الذاتية .

أهواؤنا ومصالحنا — إذاً — هى التى تملى ما النفيس وما الخسيس فى تقدير القيمة الاقتصادية ، وهى التى تملى ما الفضيلة وما الرذيلة فى تقدير القيمة الخلقية ؛ ثم هى كذلك التى تقرر ما الجميل وما القبيح فى تقدير القيمة الجمالية — هذا رأى من الوضوح بحيث تعجب أشد العجب كيف وقع الخلاف فى أمره بين رجال الفكر ونقدة الفنون ؛ فمن هؤلاء فريق يزعم أن فضيلة الفعل الفاضل ، وجمال الشىء الجميل ، كائن فى الفعل نفسه أو الشىء نفسه ، كما يكون التربيع فى الشىء المربع

والتدوير فى الشىء المستدير ؛ وتترتب على ذلك بالطبع نتيجة من أخطر النتائج ، وهى ما كان فضيلة عند آبائنا وأجدادنا ينبغى أن يظل كذلك بالنسبة لنا و إلى أبد الآبدين .

تعجب أشد العجب أن تجد هذا الفريق من رجال الفكر وأصحاب النقد الفنى ، ينظر هذه النظرة الموضوعية فى القيم ؛ و إذا طالبت أحدهم أن يحلل لك الشىء موضوع الحكم إلى عناصره ليريك عنصراً من بينها اسمه « فضيلة » أو عنصراً اسمه « جمال » ، فلا يجيبك إلا بنظرة ازدراء ، لأنك تكون فى رأيه « مادياً » ممقوتاً ذمياً ؛ وأما هو « فروحانى » لا يريد أن يرى الفضيلة بعينيه ويلمسها بيديه ، أو أن يرى الجمال ويلمسه عنصراً مستقلاً قائماً بذاته على النحو الذى يرى به أو يلمس قطعة من النحاس أو الحديد ؛ هو « روحانى » يكفيه أن يقول إن الفعل الفاضل فضيلته جزء منه ، و إن الشىء الجميل جماله جزء منه ، ولا بأس عنده فى أن تكون هذه « الأجزاء » من أفاعيل السحر ، نحكم بوجودها لكننا لا ندركها بحاسة من حواس « الماديين » الأجلاف الغلاظ .

ليقولوا فى ذلك ماشاءت لهم مثاليتهم ، وأما نحن فرأينا فى قيم الأشياء والأفعال هو كما أسلفنا : فالأفعال والأشياء فى ذاتها محايدة ، ونحن الذين تضطرنا ظروف العيش أن نفضل فعلاً على فعل ، حين نرى أن الفعل المفضل أضمن الفعلين طريقاً إلى الحياة السعيدة القوية لأكبر عدد من

أفراد المجتمع ، أو من أفراد الإنسانية قاطبة إن شئت .

فإذا تغيرت ظروف العيش ، تغير فى إثرها — أو وجب أن يتغير — سلم القيم ؛ فما كان فى أعيننا ذا قيمة قد يصبح ولا قيمة له ، لأنه لم يعد هو وسيلة احتفاظنا بوجودنا — وإذا تغيرت ظروف الحياة ولم يتغير فى إثرها سلم القيم ، كان الأرجح أن يظهر مصلح عظيم ينادى بالثورة أو الانقلاب ؛ وما الثورة أو الانقلاب عندئذ إلا تحوير فى تقويم الناس للأشياء بحيث يجىء التقويم متناسباً مع ما تقتضيه الظروف القائمة .

إنه من سوء حظ الإنسان فى تاريخه ، أن ظروف حياته المادية تتغير بخطى أسرع جداً مما تتطور به طريقته فى تقدير قيم الأشياء والأفعال والأوضاع ، فتظل طريقة التقدير متلكئة حتى تصبح كالثوب الضيق الممزق ، ويصبح خلعه ضرورة محتومة ، يراها صاحب النظر السليم وإن عارضه فيها سواد الناس ، فإن استطاع هذا أن يغير من وجهة نظر الناس حتى يدركوا ما أدركه ، كان هو المصلح الاجتماعى العظيم .

وأعتقد أننا فى مثل هذا الموقف الآن : فظروف اجتماعية واقتصادية تغيرت واشتد بها التغير ، وسلم للقيم باق على حاله ؛ وإذاً فالثورة الحقيقية التى نريدها ، هى أن نقلب هذا السلم قلباً تتغير معه أوضاع درجاته بنسبة بعضها لبعض ، وعندئذ نجد أن درجات سفلى ستعلو ، ودرجات عليا ستسفل .

كنا أمة زراعية رعوية ، نشتغل بالزراعة اليدوية فنتخلق بأخلاقها ، وإلى جانب ذلك ورثنا أخلاق الرعاة البدو عن آبائنا العرب ، فكان لنا من هذا المزيج الزراعي الرعوي أساس تقويمنا لكل شيء ؛ لكن الزراعة والرعي قد مستهما عجلات الآلات الصناعية ، وللصناعة أخلاق غير أخلاق الزراعة والرعي ، فلا بد لنا من ثوب جديد ليلائم الجو الجديد .

* * *

لم يعد بد في الحياة الجديدة من رفع قيمة العلم الطبيعي وخفض قيمة الوسائل الكلامية ، لأن آلات المصانع لا يديرها الشعر المقفى ولا النثر المسجوع ؛ فإن كانت الإبل في حياة البدو الرُّحل بحاجة إلى حداء الشاعر لتقطع الفلاة على حلو النغم ، فإن القطار لا يستمع إلى غناء ولكنه يريد قضباناً من حديد ، والطائرة لا غنى لها عن محركات من الصلب الصليب ؛ كان آباؤنا العرب يتنافسون في عكاظ كل عام ليروا أيهم أشعر من أخيه ليتقرر بذلك أي القبائل أعلى منزلة وأعز جانباً ، لكن ميدان التنافس اليوم كائن بين مخابير المعامل وأنابيبها وغازاتها وعناصرها ، لأن الغلبة للسابق في إعداد الآلة ، ولم تعد الغلبة كما كانت للشاعر المجيد وعشيرته .

نفتح كيس البريد الوارد إلى «الثقافة[1]» فإذا نسبة الوارد هي عشر قصائد من الشعر مقابل مقالة واحدة ، وبين المقالات النثرية نفسها تجد

(١) كان الكاتب مشرفاً على تحرير مجلة الثقافة عند كتابة هذا المقال .

نسبة البحوث الأدبية إلى البحوث العلمية عشرة إلى واحد أيضاً ، أعنى أن فى كل مائة ممن يهمون بالكتابة تسعين شاعراً وتسعة من الأدباء الناثرين وعالماً واحداً ؛ وربما تطيب هذه النسبة الثقافية فى قبيلة بدوية أو فى قرية زراعية تجر المحراث بالأيدى ، فتعمل ساعة وتستريح خمس ساعات تستمع خلالها لما ينشده الشعراء من شعر . لكن العالم قد تغير ، وقيم الأشياء ينبغى كذلك أن تتغير تبعاً له .

ولا يزال لواء الحكم معقوداً عندنا ـ فى أغلب الأحيان ـ للخطيب البليغ فى تنميق اللفظ ، القدير فى رفع الصوت وخفضه ، لا للعالم الإحصائى فى شئون الدنيا الجارية من حرب واقتصاد ؛ وحتى الكاتب الذى يكتب للناس فى الصحف ، تراه أميل إلى صب أسلوبه فى قالب الخطابة الذى يؤثر فى النفوس الساذجة ، أكثر منه إلى مراعاة الدقة والأمانة فى رصد الحقائق .

ولم يعد بد فى الحياة الجديدة من رفع قيمة العامل بيديه وخفض قيمة المفكر النظرى الذى يشطح بفكره فى السماء ويأبى النزول إلى الأرض مع أبناء آدم وبناته ؛ فالكفاءة العملية لا « شهادة الكفاءة » النظرية هى مقياس التقدير ، ومضى العهد وانقضى الذى كان فيه التفكير النظرى المجرد من القدرة على التطبيق من علامات التهذيب والسيادة .

ولم يعد بد فى الحياة الجديدة من تغيير النظر إلى المرأة تغييراً كاملاً

شاملاً ؛ ولست أقصر حقها على ما تطالب به من فتح الأبواب أمامها على مصاريعها لتعمل إلى جانب الرجل وتنافسه ، بل أزيد على ذلك نقطة أخرى أغفلهـا المطالبون للمرأة بحقوقها ، وأراها جوهرية فى تكامل شخصيتها تكاملا يلائم روح العصر الجديد النشيط العامل ، وتلك أن المرأة مسئولة عن نفسها ، وليس المسئول أخاً لها أو والداً كما كانت الحال أيام القبيلة ، حين كانت المرأة وعاء يستولده الرجل ماشاء لنفسه من بنين و بنات .

عفة المرأة فى الحياة البدائية هى الشغل الشاغل ، وهى محور الأخلاق كلها ، فإن سلمت كانت الأخلاق بخير ، مهما يكن بعد ذلك بين الناس من تقتيل وسرقة ونهب ورشوة وفساد ؛ وذلك لأن الغريزة الجنسية عندهم هى الهدف الوحيد الذى يحيون من أجله ؛ وها نحن أولاء نسمع كل يوم صراخاً ينبعث من هنا وهناك خوفاً من « المدنية الغربية » لأنهـا تهدم الأخلاق ! ! و « الأخلاق » عند الصارخين المستغيثين هى عفة المرأة ولا شىء غير ذلك ، ظناً منهم أن المرأة عندنا أعف منها عندهم ؛ أما أن يكون من الأخلاق ألا تسرق أموال الدولة وأنت قيّم عليها ، وألا ترفع أنصارك وأصهارك على حساب أصحاب الحق ، وألا تجبن عن التصريح برأيك حين تشعر بأنه الحق ، وألا تسكت على ظلم تراه ، وألا تسطو على العاجزين فى طعامهم ، حين تستبيح لنفسك أكثر مما ينبغى لك ، فيتبقى

للعاجزين أقل مما ينبغي لهم ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة العريضة من « الأخلاق » بمعناها الصحيح ، فليس ذلك كله عندهم بشيء مذكور مادام « الحريم » مصوناً في الخدور .

لكن لم يعد بد من إعادة النظر في سلم القيم ، لنعيد الموازنة السليمة بين درجاته ، فنضيف إلى هذا « الخُلق » الواحد الذي صببنا عليه كل اهتمامنا ، عدداً كبيراً جداً من « الأخلاق » الأخرى التي ليس من اكتسابها بد .

ولم يعد بد في الحياة الجديدة أن تكون الفردية هي أساس كل تفكير سياسي واجتماعي ، فليس زيد زيداً لأنه عضو في أسرة كذا أو قبيلة كذا ، بل إن زيداً زيد لأنه زيد ؛ على أن زيداً وعمراً وخالداً كلهم سواء في المادة الإنسانية وإن تفاوتت بينهم ألوان العمل وأقدار المال ؛ فإذا تكلمنا عن جماعة بلغة الحياة القديمة قلنا هذه قبيلة كذا التي يرأسها فلان ؛ أما إذا تكلمنا عن تلك الجماعة بلغة الحياة الراهنة ، وجب أن نقول : هذه جماعة قوامها فلان وفلان وفلان .

وبعد فربما أكون قد أخطأت في التطبيق هنا أو هناك . أما المبدأ الذي أردت أن أقرره — وهو أننا في أشد الحاجة إلى تغيير نسبة القيم بعضها إلى بعض ، ليكون لنا بذلك سُلَّمٌ جديد نهتدي به — فلست أحسب أنني قد أخطأت في تقريره .

نموذج المتمدن

يقول « لِتُنْ ستريتشى » — الأديب الإنجليزى الحديث — عن نفسه هذه العبارة : « أنا المدنية التى تحاربون من أجلها » .

وقفت عند هذه العبارة متفكراً متدبراً ، فكان أول ما استوقف نظرى منها ، هو أنها تطبيق جيد لمبدأ فكريّ آخذ به ، وأحاضر فيه ، وأدعو إليه طلابى كلما سنحت لذلك فرصة مناسبة ؛ وهو مبدأ غاية فى البساطة والوضوح ، لكنه بعيد النتائج عميق الأثر ، وهو كفيل لصاحبه أن يهديه سواء السبيل فى كثير مما يشغل الناس من خلاف واختلاف .

وخلاصة هذا المبدأ ، هى أن كل كلمة من كلمات اللغة ، تكون صوتاً فارغاً من المدلول ، إلا إذا كانت تدل على أفراد جزئية مما يمكن أن يشار إليه ، أو يقع لحاسة من الحواس المعروفة ؛ فلفظة « كتاب » — مثلاً — دالة على معنى ، لأنى أستطيع أن أشير لك إلى فرد أو أفراد من الأشياء التى أضمها جميعاً فى حزمة واحدة ، وأطلق عليها كلمة « كتاب » ؛ أما لفظة مثل « عدم » فهى بغير معنى ، ولا فرق بين أن تكتبها أو أن تخطّ مكانها خطوطاً مهوشة كالتى يخطها الأطفال الصغار

على الورق ؛ هى علامة مرقومة على الورق — أو موجة صوتية إن كانت منطوقة — لا دلالة لها بين الأشياء ؛ فليس هنالك الشىء المفرد الذى يمكنك أن تشير إليه قائلاً : « هذا عدم » ؛ إنك لا تستطيع أن تشترى من السوق « عدماً » تأكله أو تشربه ، ولا أن تطلب إلى الخياط أن يخيط لك « عدماً » تتقى به برد الشتاء ؛ وقل مثل ذلك أيضاً فى لفظة مثل « وجود » فمهما بحثت فى عالم الأشياء ، فلن تقع بينها على شىء اسمه « وجود » ؛ إنك ستقع على نهر وشجرة ، وبناء وكتاب ، ومقعد وسيارة ، ونملة وطائر ، وكلها « موجودات » ؛ لكنك لن تجد بين الأشياء شيئاً قائماً بذاته اسمه « وجود » .

ولقد ضربت لك المثل بكلمتين الله أعلم كم ملأتا من صحائف وكم شغلتا من عقول ، فما أكثر ما كتب أو قيل فى « الوجود والعدم » ؛ مع أنهما لفظتان فارغتان جوفاوان ليس وراءهما شىء ، فالأمر كله غير ذى موضوع كما اعتاد الناس أن يقولوا اليوم .

كذلك ضربت المثل بهاتين الكلمتين ، لأن أستاذنا العقاد ، حين تفضل مشكوراً بنقد كتابى « المنطق الوضعى » قال فى سياق الحديث : « إن الإنسان يستطيع أن يجزم بحقيقة لا صورة لها فى الخارج على الإطلاق ، لأنه يستطيع أن يقول (إن العدم مستحيل) ، ولا يمنعه من تقرير ذلك أن المحسوسات خلت من شىء يسمى العدم أو شىء يسمى

المستحيل » . ونحن نرد على أستاذنا فى هذا بقولنا : إن أمثال هذه العبارات ليس مما يجوز قوله ولا تقريره ، لأن كلماتها فارغة من الدلالة ؛ ولنتصور مثلا عالماً من علماء الكيمياء أو الطبيعة أو ماشئت من علوم ، وقف أمام مجمع علمى يقرر لزملائه « أن العدم مستحيل » ؛ وزملاؤه ممن يسارعون إلى المعامل والأنابيب ، وممن يطالبون بإقامة التجارب ؛ فأى تجربة يستطيع القائل أن يثبت بها لزملائه مثل هذا الادعاء ؟ ماذا يضع فى الأنابيب وماذا يلاحظ ليقبل الدعوى أو يرفضها ؟ . . . فإن كانت العبارة ليست مما يقوله العلماء ، فمن إذاً يجوز له قولها وهو آمن مطمئن ؟ أولئك الذين لا يريدون أن يُسألوا عن معنى مايقولون ، فضلا عن أن يُسألوا عن إثبات صدقه — هذه الألفاظ وأمثالها قد اكتسبت « معانيها » من كثرة تكرارها ؛ كررنا النطق بها ، وتكرر سمعها ، حتى توهمنا أنها كلمات « مشروعة » ، والحقيقة أنها أصوات أو علامات زائفة لابد من حذفها .

لكن ذلك استطراد قد طال ، فلعله يلقى لنا ضوءاً على الكلمة التى نحن الآن بصدد الحديث فيها ، وهى كلمة « المدنية » — فهى الأخرى من الكلمات التى يقوم فيها الجدل ويعنف ويشتد ، فتراهم يسألونك : هل نأخذ بالمدنية الغربية أو لا نأخذ ؟ وإذا أخذنا بها ، فإلى أى حد وبأى مقدار ؟ أو ليس الأصلح لنا أن نتمسك بمدنيتنا الشرقية ؟ ومنشأ الإشكال كله لفظة غامضة لم يحددوا معناها ؛ « فالمدنية » — كأى كلمة أخرى — لا يكون لها معنى إلا إذا وجدنا فى عالم الأشياء أشياء بذواتها ، نشير

إليها بأصابعنا قائلين : هذا وهذا وذلكُ « مدنية » ؛ وأنا أؤكد للقارئ أنه لو أمسك بقلمه ومذكراته ، وخرج إلى الشوارع ، وتنقل بين المدن والقرى ليسجل قائمة بالأشياء التي يعدها مدنية ، لا نحسم كل خلاف ، لأنه لن يجد ما يسجله في قوائمه إلا ما يثبت له أن مدنية العالم الحاضر في صميمها واحدة لا تعدد فيها ، وما عداها قواقع من جهل وخرافة خلفها جَزْرُ الأيام على شاطئ الحياة .

ولست أدري إن كان « لتن ستريتشي » حين قال عن نفسه : « أنا المدنية التي تحاربون من أجلها » قد قصد إلى شيء من هذا التحليل الذي أسلفته لك ، أي أنه قصد إلى أن الكلمة لا تكون ذات مدلول ومعنى إلا بمفردات مسمياتها ، وأنه لذلك أشار إلى نفسه على أنه هو الفرد الجزئي الذي يحدد معنى كلمة « مدنية » ومدلولها ، حين رأى أن في شخصه قد تجمعت عناصر ، هي التي نريدها باستخدامنا لهذه الكلمة — أقول إني لا أدري إن كان « ستريتشي » قد قصد إلى شيء من هذا ، لكنه على كل حال هو ما نطالب به إذا أردنا أن تكون الكلمة ذات مدلول ومعنى .

* * *

وهنا ننتقل إلى الجانب الهام من موضوعنا ، وهو : ماذا عسى

أن تكون العناصر التى إذا ما اجتمعت فى شخص ، استحق أن يوصف بالتمدن ؟ .

أول ما نذكره فى الإجابة عن هذا السؤال هو أن هذه العناصر متغيرة مع تغير الزمن ، فلكل عصر « مدنيته » التى قد تعد همجية فى عصر آخر ؛ « فالمتمدن » فى العصور الوسطى الأوربية — مثلاً — هو المسيحى المتبتل المنقطع لصلاته وعبادته فى الصومعة أو الدير ؛ فلما جاءت النهضة تغيرت عناصر « التمدن » وأصبح « المتمدن » رجلاً آخر غير راهب العصور الوسطى .

وإنه لما يقال فى هذه المناسبة ، أن « سير فِلِپْ سدنى » (١٥٥٤ — ١٥٨٦) كان عند الإنجليز إبان نهضتهم نموذجاً للرجل المتمدن بمقياس ذلك العصر ؛ فقد كان شاعراً وناقداً وعالماً وجندياً محارباً ورجلاً من رجال السياسة ؛ فكان يصور بهذه العناصر فى شخصه ما كان يصبو إليه الناس من مثل أعلى فى الرجل الواحد ؛ لأنهم لم يعودوا عندئذ يرون المدنية — كما كان يراها أسلافهم الأقربون — فى المسيحى المتبتل الزاهد ، بل أصبح مثلهم المنشود فناناً ينتج الفن أو يقدره ، أو عالماً يدرس ظواهر الطبيعة ، أو مغامراً يركب الصعاب ، أو رجلاً يستمتع بلذات الحياة ؛ فإن اجتمعت هذه الصفات لرجل واحد ، فكان مشغوفاً بالفن ، محباً للعلم ، مقاتلاً باسلاً ، مغامراً يعن فى ألوان الرياضة والصيد ، عاشقاً

توافرت فيه شروط الحب كما يعرفه عشاق زمنه ، كان ذلك الرجل صورة للمثل الأعلى ؛ وقد جاهد الأدباء في عصر النهضة أن يصوروا ذلك المثل الأعلى ، ورأى الناس أن هذه الصفات قد تجسدت وتجمعت في « سير فِلِبْ سدنى » فجعلوه نموذجاً يحتذى في عصره .

وإننا لنضل سواء السبيل ، إذا ما جاهدنا بدورنا في تصوير نموذج « المتمدن » في عصرنا ، فالتمسناه في أبطال الماضي ؛ فهؤلاء الأبطال أبطال في عصورهم ، بمقاييس أهل زمانهم ؛ وإني لأجني على الشباب الذين يعيشون اليوم جناية كبرى ، إذا رحت أزخرف لهم حياة الزهد ، والعصر يريد المتعة بالدنيا والفرحة بالحياة ؛ وأجني عليهم جناية كبرى إذا رحت أزخرف لهم حياة التأمل النظرى ، والعصر يريد الصناعة والنشاط والعمل ؛ إنني يستحيل أن أجد للشباب نموذجاً من بين أبطال الماضي بكل عناصره ، فذلك يكون بمثابة أن ندعوهم إلى العيش في غير عصرهم ، والتمدن بغير مدنيتهم .

ونعود من جديد فنسأل : ماذا عسى أن تكون العناصر التي إذا اجتمعت في شخص استحق أن يوصف بالتمدن ؟ .

سأحاول الجواب موجزاً في غير إطناب وتفصيل ، ومعترفاً منذ الآن أنه جواب أسوقه على سبيل « الرأى » لا على سبيل الحصر والتوكيد ؛

إذ الموضوع أخطر وأعمق من أن يفصل فى أمره بمقال يكتب فى ساعة لميلأ بضع صفحات فى كتاب .

وسأحاول الجواب على هذا النحو الموجز ، مهتدياً بالتقسيم الثلاثى الذى اشتهر فى علم النفس التقليدى ، حتى أصبح عموداً من أعمدة هذا العلم ، لا يثور عليه الثائرون إلا ليؤكدوه ، وهو أن كل حالة من سلسلة الحالات الشعورية التى تتألف منها حياة الإنسان الواعية ، يمكن تحليلها إلى جوانب ثلاثة : إدراك ووجدان ونزوع ؛ فأنت فى كل موقف من مواقف حياتك الشعورية الواعية ، تدرك شيئاً ما أو فكرة معينة ، ثم تحس إزاءها وجداناً معيناً . ثم تتصرف بناء على ذلك حسب تربيتك وتدريبك على الرد على المواقف المختلفة بألوان معينة من السلوك (وقد يكون الامتناع عن السلوك فى موقف ما ، ضربا من التصرف) .

ولا شك أنك قد رأيت كلمات « الحق والخير والجمال » متجاورة فى كثير جداً من المواضع ، كلما أراد الكاتبون أن يعبروا بعبارة موجزة عن أحلام الإنسانية وأمانيها ؛ فهذه الكلمات الثلاث تستطيع أن تجعلها تعبيراً آخر للجوانب الثلاثة نفسها التى ذكرناها : « فالحق » هو ما ننشده فى حالات الإدراك ، و « الجمال » هو ما نبتغيه فى حالات الوجدان ، و « الخير » هو ما نقصد إليه فى جانب السلوك .

١ — وأهم ما يميز الإدراك عند « المتمدن » فى عصرنا هذا ، هو

التقيد بالواقع ، وإدراك الواقع كما هو يتطلب القضاء على الخرافة بكل ما يتصل بها من لواحق وأتباع ؛ وللتخريف مظهران أساسيان في طريقة تعليلنا للحوادث والظواهر ؛ الأول أن نعلل حدوث الأشياء المحسوسة بأشياء غير محسوسة ، والثاني أن نعلل شيئاً محسوساً بآخر محسوس ، لكنه لا يرتبط معه ارتباطاً يدل عليه طول الملاحظة ودقة التجربة ؛ فلو قلت مثلاً إن المرض في جسم المريض سببه شيطان حالٌّ في الجسم ، أو إن السماء ترعد وتبرق لأنها غاضبة ، فأنت مخرف من النوع الأول ؛ ولو قلت إن السفر يوم الأحد مشئوم ، ونعيق الغراب نذير بالموت ، فأنت مخرف من النوع الثاني — وفي كلتا الحالتين أنت خارج بإدراكك للأشياء على منهج « المتمدن » في هذا العصر الذي أبرز ما فيه هو العلم وما يؤدي إليه وما ينتج عنه .

حتى الآداب والفنون قد أصبح معيارها هو الواقع ، ولا أقصد بذلك أن الأديب أو الفنان يقف حيال الظاهرة المعينة موقف العالم الذي يحللها ويصفها بالمقاييس والأرقام ؛ بل أريد أن أقول إن الآداب والفنون في ميدانها — ميدان التعبير عن النفس وما يدور فيها من مشاعر — أصبحت تنزع بقوة نحو إثبات الواقع بغير حياء ولا خجل ، فما قد كان يستحي منه أسلافنا لا يتحتم أن يكون عندنا نحن كذلك موضع استحياء ؛ ومن ثم نرى اليوم أدباء لا يتورعون عن تصوير مجرى شعورهم كما هو ،

فيكون بين ذلك رغباتهم الجنسية وانحرافاتهم الإجرامية وما إلى ذلك ؛ ونرى اليوم مصورين لا يجلسون أمام الشيء يصورونه كما يبدو ، بل يصورونه كما يختلط بأفكارهم فى لحظة التصوير ؛ فإذا جلست مثلا إلى طائر تصوره ، وأثناء ذلك دق جرس شغل بؤرة شعورك ، وجب أن تدخل هذه الصورة الطارئة على نحو ما ، لأنها جزء منك فى اللحظة التى أردت تصوير نفسك فيها ، ومن هنا كان كثير مما نعده « خلطا » فى التصوير الحديث — وهكذا .

٢ — وأهم ما يميز الجانب الوجدانى من « المتمدن » فى عصرنا الحديث ، هو التأثر بما ينتجه رجال الأدب والفن المحدثون ، فأنت متخلف عن عصرك ومدنيته إذا لم تأخذ بنصيب — قليل أو كثير — فى تقدير ما ينتجه هؤلاء الرجال من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وتمثيل ورقص وغناء ، مهما يكن عملك وموضوع اختصاصك ؛ فقد تكون طبيباً أو مهندساً أو رجلا من رجال الأعمال ، لكنك لكى تكون إلى جانب ذلك « متمدناً » فلا بد من إضافة عنصر آخر ، هو التمتع بنتاج الفنون .

أقول إنه لابد من أخذك بنصيب فى تقدير هذه الأشياء كلها ، ولا أحتم عليك أن تحب كل ما تراه منها أو تسمعه ؛ فلك أن تحب أو أن تكره ، على شرط أن يكون حبك وكرهك قائمين على معيار هذا العصر نفسه ،

لأن الآداب والفنون كلها تعبير عن روح العصر ، و يستحيل أن تتشرب روح العصر وتتمرد فى الوقت نفسه على كل آدابه وفنونه .

لقد رأيت أناساً هم فى مكان القيادة من طليعة « المثقفين » عندنا ، لا يعرفون الألف والباء فى أمهات الإنتاج الأدبى فى العالم المتحضر الحديث ، ولم يشهدوا فى حياتهم معرضاً للتصوير أو النحت ، وحتى لو شهدوا ذلك لما كان لهم فيه رأى ولا فهم ؛ فاذكر — مثلا — اسم « پيكاسو » فى جماعة من « المثقفين » عندنا . وانظر كم يعلمون عنه وكيف يقولون القول فيه ؛ وأكرر القول بأننى لا أحتم على كل إنسان أن يحب فن « پيكاسو » — فكثيرون من الأوربيين لا يحبونه — لكنهم لكى يحبوه أو يكرهوه ، لابد لهم أولاً أن يمسوه و يعرفوه — ولا أقول شيئاً عن الغناء والرقص ، فتلك عندنا فنون « حرام » ليس لأصحاب الوقار أن يأخذوا منها بنصيب كبير أو صغير !

٣ — وأهم ما يميز السلوك عند المتمدن الحديث هو مقدرته على ضبط زمام نفسه ، فليس من اليسير عليك أن تثير فيه الغضب الذى يطير بصوابه، وهو لا يغلو فى مظاهر الفرح ولا مظاهر الحزن ، فأنت « متمدن » بمقدار ما يتصرف « الإنسان العاقل » فيك لا ما يتصرف « الحيوان » منك ؛ والحيوان منك هو الغرائز تنطلق كما هى بغير ضبط ولا تعديل — وأعجب العجب أننا نفخر بسرعة انفعالنا وشدة هيجان شعورنا ، ونصف الأوربى

المتمدن فى هذه الناحية « بالبرود » لأنه لا ينفعل ولا يهيج !

كذلك من أميز ما يميز سلوك المتمدن الحديث — طريقته فى ملء فراغه ، فهو متخلف عن عصره إذا قضى فراغه نائماً أو جالساً ، لأن للفراغ فى المدنية الحديثة ألواناً من النشاط كثيرة معروفة ، ليس منها النوم والقعود ؛ فهى لعب وارتحال وتغيير لمجرى الحياة المألوفة على نحو ما ؛ بالقدر الذى تسمح به قدرة الناس المالية على تفاوتها ؛ ويستحيل أن يبلغ الفقر بإنسان حداً يمنعه من المشى وطلوع الجبل !

إن فى خاطرى الآن اسماً أو اسمين لرجال أراهم بيننا أقرب الناس تمثيلا للمدنية الحديثة فى نزعتها العلمية وفى استمتاعها بألوان الفن ، وفى ضبط النفس عند السلوك وفى ألوان النشاط عند الفراغ من العمل ، لكنى أمسك عن ذكر الأسماء ، وأكتفى بوضع القواعد ، وللقارىء أن يطبقها على نفسه وعلى من حوله كيف شاء .

الحس المشترك

كثيراً ما تدل اللفظة من ألفاظ اللغة على طور من أطوار التاريخ الفكرى ، اجتازه أصحاب تلك اللغة فيما مضى ، أو لا يزالون فى مرحلة اجتيازه الآن إذا كانت اللفظة ما تزال قائمة بدلالتها تلك ؛ فمثلاً لفظتا « رَحِم » و « رحمة » فى اللغة العربية ، وما بينهما من تشابه ، تدلان على أن الرحمة فى طور من أطوار التاريخ الفكرى لأصحاب هذه اللغة ، كانت مقصورة على ذوى الرحم ، وذلك أيام أن كانت القوانين الأخلاقية ملزِمة للفرد إزاء بنى أسرته أو قبيلته ، وغير ملزمة له بالنسبة إلى أفراد القبائل الأخرى ؛ ولفظتا « نفْس » و « نفَس » تدلان أيضاً بما بينهما من تشابه على طور من أطوار التاريخ الفكرى لأصحاب هذه اللغة ، كانت العقيدة فيه سائدة بأن النَّفْس فى الكائن الحى إن هى إلا الأنفاس التى يدخلها أو يخرجها شهيقاً وزفيراً ، والعلاقة بنفسها قائمة بين لفظتى « روح » و « ريح » ؛ وهكذا تستطيع أن تستشف كثيراً من المذاهب الفكرية لأمة من الأمم من خلال دراستك لألفاظها على هذا النحو .

ومن هذا القبيل لفظة Sense فى اللغة الإنجليزية ؛ فلهذه اللفظة عند

أصحاب هذه اللغة حتى اليوم معنيان ، فهي قد تعني « الحس » بإحدى الحواس (كالبصر والسمع واللمس) ، وهي قد تعني كذلك « العقل » أو « المعنى العقلي » فتراهم يصفون لك الشخص ، أو العبـــارة ، بهذه الكلمة ومشتقاتها ، ليدلوا بذلك على أن الشخص ذو عقل حصيف أو خلو منه ، وأن العبارة ذات معنى يسيغه العقل أو خلو منه .

ولهذا الازدواج في معنى كلمة Sense في اللغة الإنجليزية دلالة قوية في تاريخهم الفـــكري ، لأن أبرز طابع يميز الفلسفة الإنجليزية منذ نشأت إلى يومنا الراهن ، هو اعتبارها الحواس مصدر المعرفة ، فليس « العقل » عند كثير من فلاسفتهم إلا ما قد أدركته « الحواس » أو ما تستطيع أن تدركه ؛ فالإنجليز في تفـــكيرهم — حتى الفلسفي منه — أميل الشعوب إلى التزام الأمر الواقع الذي تبصره الأعين وتسمعه الآذان ، « فالحس » وحده وما قد يقع له من مدركات هو كل المعرفة التي يُعتَدُّ بهـــا ويُستند إليها ، وكل تفـــكير لا يجد له ركيزة بين المحسوسات ، فهو حلم أو كالحلم الذي لا يغني ولا يسمن .

لا عجب إذاً أن نرى المعنيين قد التقيـــا عندهم في لفـــظة واحدة ومشتقاتها ؛ فإذا وصفوا العبارة أو الفـــكرة بأنها nonsense كان المراد أنها عبارة أو فـــكرة بغير مدلول ، أو إن شئت فقل إنها عبارة أو فـــكرة لا اعتماد فيها على ما تدركه الحواس ، لأن لهذه الكلمة معنيين ؛ فهي

تعنى « لا معنى » وهى كذلك تعنى « لاحسّ » — أى ليس هنالك من المدركات الحسية ما يجعل للعبارة معنى .

ولهم فى هذا الباب عبارة ينفردون بها ، لأنها تدل على صفة تميزهم من سائر الشعوب ، وهى عبارة Common sense ، ومعناها الحرفى هو — فى رأيى — أدق ترجمة لها ، وهو « الحس المشترك » أو قل « الفهم المشترك » مادام « الحس » و « الفهم » عندهم شيئا واحدا ، لأن ما لا يُحَسُّ لا يُفهم ، وما يُفْهم لابد أن يُحَس ؛ و « الحس المشترك » أو « الفهم المشترك » هو ما يشترك الناس — كلهم أو معظمهم — فى إدراكه على نحو معين ، لا يختلف باختلاف الأفراد .

وبديهى أنه كلما ازداد أفراد الشعب الواحد اتفاقاً فى ثقافتهم ، ازدادوا قرباً من الحس المشترك ؛ فهم يتفقون فى أحكامهم على الأشياء بمقدار اتفاقهم فى الثقافة واتحادهم فى وجهة النظر ؛ والظاهر أن الإنجليز فى هذا الاتحاد فى وجهة النظر إلى الأشياء والحكم عليها ، قد بلغوا مبلغاً قصرت من دونه سائر الشعوب ، ومن ثم كان تفرُّدُهم بعبارة « Common sense » حتى لقد نقلتْها بقية الشعوب عنهم إما بنصها أو بأقرب ترجمة لها .

* * *

وإذا حللت المواقف التى يستخدم فيها « الحس المشترك » للحكم على

سلوك الناس بالصواب أو بالخطأ ، وجدتها المواقف التي يهتدى فيها الإنسان إلى الحكم الصحيح دون أن يكون على وعي بالمقدمات المنطقية التي يستند إليها في حكمه ذاك ؛ فكأنما هو حكم صائب بالفطرة السليمة ، ولا يحتاج إلى سند من أدلة وشواهد — ترى الإنجليزي يحكم على هذا السلوك أو ذلك بأنه صواب ، أو بأنه خطأ ، فإذا سألته : كيف عرفت ذلك ؟ أجابك بقوله : « بالحس المشترك » ثم لا يزيد على ذلك شيئاً .

ليس « الحس المشترك » هو سبيل الحكم على العادات والتقاليد ، بل الحكم هنا للعادات والتقاليد نفسها ؛ فإذا لبست سيدة السواد لوفاة زوجها أو ابنها ، ثم سئلت : لماذا تفعل ذلك ؟ كان جوابها : « هي العادة الجارية ، أو هو التقليد السائد ، في إظهار الشعور بالحزن » ؛ وإذاً فليس هذا مجال الحس المشترك .

كذلك ليس « الحس المشترك » هو سبيل الحكم على المسائل العلمية ؛ فالعالم الطبيعي — مثلاً — لا يحكم « بحسه المشترك » على الوزن النوعي للذهب أو مقدار الضغط الجوى على جبال الهملايا ؛ والعالم الرياضي لا يحكم « بحسه المشترك » على مساحة الدائرة والجذر التربيعي للعدد ٣ — هذه المسائل العلمية يُرجع فيها إلى التجربة إن كان العلم من العلوم الطبيعية ، وإلى التحليل إن كان من العلوم الرياضية ؛ والحكم في كلتا الحالتين مستند إلى مقدمات معروفة مذكورة ؛ حتى إذا ما سئل العالم الطبيعي : كيف عرفت

أن الضغط الجوى على جبال الهملايا هو كذا ، أظهر التجارب التى قام بها هو أو غيره من العلماء لإثبات ذلك ، وإذا ماسئل العالم الرياضى : كيف عرفت مساحة الدائرة ، بيّن الخطوات التى سار فيها تحليله حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من نتائج ؛ لكن حين يكون الحكم مستندا إلى « الحس المشترك » فلا يكون صاحب الحكم على استعداد لإبراز مقدماته التى استند إليها ، وكل ما فى وسعه أن يجيب به إذا ما سئل : كيف عرفت ذلك ؟ أن يقول : « بالحس المشترك » فمثلاً إذا سألت : لماذا ينبغى أن تخضع الأقلية لحكم الأكثرية ؟ لم تجد لذلك جواباً عند علم من علوم الطبيعة أو الكيمياء ، وإنما حكمه عند « الحس المشترك » .

وذلك نفسه هو ما يجعل لأحكام « الحس المشترك » أهمية كبرى فى حياة الناس الاجتماعية ؛ لأنه — لسوء الحظ — لم يبلغ الإنسان فى فهم نفسه فهما علمياً إلا شوطاً قصيراً ؛ ولذلك ترى أحكامه على أنواع سلوكه بالصواب أو بالخطأ كثيراً ما تعوزها الدقة العلمية ، فلابد له من الركون إلى فطرته يحكم بها حكما سريعاً نافذاً حتى تسير عجلة الحياة ؛ وإن عجلة الحياة لتزداد فى سيرها سهولة ويسراً كلما ازداد الناس قدرة على أحكام « الحس المشترك » فى شتى المواقف ، بحيث لا يحدث بين الأفراد من الاختلاف والتصادم إلا حده الأدنى .

* * *

وتستطيع بعد هذا التحليل أن تعلم لمـاذا تقع على معركة ناشبة بين الأفراد هنا فى مصر كلما خطوت خطوة ، مع أنك قد تعيش الأعوام فى بلد كانجلترا ولا تصادفك معركة واحدة ؟ تركب الترام هنـا فيندر جداً ألا تسمع اشتجاراً بين الكمسارى وراكب أو أكثر من راكب واحد ؛ وتسير فى الطريق العام فيندر جداً ألا تشهد اختلافاً فى الرأى بين الشرطى والباعة ، أو بين بائع وشار ؛ بل تدخل البيوت فيندر جداً ألا ترى ما يهولك من اتساع هوة الخلاف بين الزوج وزوجته ، وبين الوالد وأبنائه أو بين المخدوم وخادمه . . الخلاف بين أفراد الشعب هنا يستوقف النظر بحدته وشدته واتساع نطاقه : هو بين الرئيس ومرءوسيه ، و بين صاحب الأرض أو العقار ومستأجريه ، و بين العمدة وأهل القرية ، و بين رب الأسرة وأفرادها ، و بين المدرس وتلاميذه ، وفى كل مجال يتصل فيه الأفراد بعضهم ببعض فى شأن من شئون الاجتماع .

أقول إنك تستطيع فى ضوء التحليل الذى قدمناه « للحس المشترك » أن تجيب لنفسك عن سؤالك : لمـاذا يقع كل هذا الخلاف بين أفراد المجتمع الواحد ؟ فالجواب الصحيح هنـا هو : لأنهم أفراد بغير حس مشترك ! إنهم لا يحكمون على الموقف الواحد حكماً واحداً ؛ فقد شهدت — مثلا — بالأمس جندياً من جنود الجيش يركب سيارة عامة أجر الركوب فيها ثلاثة قروش ، ولما كان للجندى حق الركوب بنصف أجر ،

فقد كان عليه أن يدفع قرشاً ونصف قرش ، لكنه أبى إلا أن يدفع ما يدفعه فى السيارات الأخرى ، وكان خلاف ، وكان وقوف للسيارة ، وكان غضب أخذ نطاقه يتسع حتى شمل الراكبين جميعاً ؛ وما أظن أن موقفاً كهذا يجوز أن يقع فى بلد بين أبنائه « حس مشترك » أو « فهم مشترك » للأمور . . العلة كلها هى أننا نحكم بأحكام مختلفة على الموقف الواحد ، ومن ثم يقع بيننا ما يقع من ألوان التنافر التى أشرت إليها ، التنافر فى البيت والطريق العام والديوان وعربات الترام والمتاجر وغيرها .

ليست الروابط بين الأفراد واستقرارها أمراً تافهاً يسيراً ، لأنها هى عصب الحياة ؛ إنك تعيش — راضياً أو كارها — على صلات بغيرك ، تعيش متصلاً بأبنائك وإخوتك وجيرانك ، وتعيش متصلاً برئيسك أو مرءوسك ، و بالتاجر الذى تعامله و بالشرطى فى الطريق وهكذا ؛ فإن كان لك فى كل صلة من صلاتك تلك سبب للشقاء فانظر كيف تكون حياتك فى مجموعها ! وإنك لتعجب أن يكون بيننا هذا الاختلاف كله وهذا الشقاء كله ، ولا يكاد يقوم منا باحث واحد يبحث « الملاقات الإنسانية » بحثاً علمياً ، فى الوقت الذى تسير فيه الصلات الاجتماعية فى بلد كانجلترا على درجة من التفاهم يحسد الانجليز عليها بغير شك ، ومع ذلك لايزال يقوم من مؤلفيهم من يتناول « الروابط بين الناس » بالبحث المفصل ؛ وإنى لأذكر فى هذا الصدد كتابين يحضرانى الآن ، ولابد أن

يكون هناك سواهما مما لم أقع عليه : أحدهما كتاب بعنوان « العلاقات بين الناس » لكاتبهم « لاندو » والآخر كتاب لكاتب أمريكى هو « ستيوارت تشيس » وعنوانه « علم الروابط بين الناس »

وقد يسأل سائل : ولماذا انعدم « الحس المشترك » بيننا ؟ وأجيب جواباً سريعاً بأن ذلك يرجع أول مايرجع إلى التباين الثقافى الواسع المدى ، الذى تراه منعكساً فى تباين الأزياء وتباين المساكن والمآكل والمشارب ؛ إنك تسير فى البلد الأوربى فيستوقف نظرك التشابه فى المساكن حتى لكأن كل إنسان يسكن بيتاً لا يكاد يختلف فى باب أو نافذة عن بيت زميله ، وحتى لتظن ألا موضع بينهم لاختلاف الفقر والغنى ؛ وتأكل فى بيت الأسرة المتواضعة وفى بيت الأسرة الغنية فيدهشك التشابه الشديد بين ألوان الطعام هنا وهناك وطريقة الأكل ، حتى لتظن أن القوم كلهم من طبقة واحدة ، تخرجوا كلهم فى معهد واحد .

أما نحن . . . ! !

الفكرة الواضحة

« ستيوارت تشيس » كاتب معاصر ومصلح وفيلسوف ، يروى لنا عن نفسه قصة تستوقف النظر ، لها دلالة بعيدة المدى ، خلاصتها أنه قد بدأ حياته العاملة مصلحاً اجتماعياً متحمساً ، لكنه ما لبث أن وجد وسائل الإصلاح « بالكلام » لا تجدى فتيلا ، فأخذه العجب : لماذا لا يتأثر الناس بما يقوله وما يكتبه ، مع أنه واضح صادق ؟ وسرعان ماوجد لنفسه الجواب ، وهو أن الأفكار التى يظنها هو ، ويظنها معه الناس واضحة ، ليست كذلك ؛ فلا بد له — إن أراد إصلاحاً حقيقياً — أن يبدأ بأبحاث تحليلية يوضح بها الألفاظ التى يكثر دورانها على الألسن ، حينما يتحدث الناس عن إصلاح حالهم ؛ فاسمع إليه يقول : « لما كنت فى سن الشباب أحاول الإصلاح ، أخذت أنظم الاجتماعات ، وأكتب النشرات ، وألقى المحاضرات ، وأرسم الخطط ، وأنشر الدعاية على نطاق واسع فى حماسة حارة ؛ لكن رجائى قد خاب ، حين نظرت فوجدت أن الناس ما زالوا على حالهم ، لم يتحولوا قيد أنملة عما كانوا عليه حين بدأت حملتى ؛ وكلما مضت بى الأعوام ، ازددت يقيناً ، بأننى فيما كنت أبذل فيه جهدى ، إنما كنت أضيع وقتى سدى ؛ فرسالتى — التى لا أزال أعتقد أنها رسالة

رحمة وإنسانية — لم تبلغ القلوب ، إذ الطريق بينى و بين من أخاطبهم مغلق مسدود » .

وصادف هذا الذى قرأته عن « ستيوارت تشيس » هوى فى نفسى ، لأننى فى أعوامى الأخيرة ، قد تنبهت فى شدة وحماسة ، إلى أن غموض الأفكار عند الناس هو أسُّ البلاء ؛ فالرءوس ملأى بالأشباح بسبب ما فيها من أفكار غامضة ، والتعصب لهذه العقيدة أو تلك قد أنزل بالناس الكوارث ، بسبب أفكارنا الغامضة ؛ وحدّة الغضب التى تأخذنا عند اختلافنا فى الرأى ، سببها الأفكار الغامضة ؛ ومجهودات المصلحين تذهب صيحة فى واد بسبب الأفكار الغامضة ؛ ولو وضحت الأفكار ، لاختفت الأشباح من الرءوس « المسكونة » ، وزال التعصب للرأى والعقيدة تعصباً أعمى ، وخفت الغضب وهدأ الانفعال حين يختلف الناس فى وجهة النظر ، ووجدت أقوال المصلحين أرضاً خصبة صالحة للنماء والإثمار .

فما هى الفكرة الواضحة ؟

أول ما أسارع إلى إثباته فى الإجابة عن هذا السؤال ، هو أننا كثيراً ما ننخدع بالإلف والعادة ، فنألف كلمة معينة ونعتاد قولها وسماعها ، حتى ليخيل إلينا أنها فكرة واضحة ، مع أنها قد لا تكون من الوضوح فى شىء ، ولا تزيد على كونها « صوتاً » مألوفاً لأسماعنا ؛ وإنى لأحسب

أن ديكارت نفسه — وهو على رأس من نادوا فى التاريخ الحديث بالتزام التفكير الواضح — قد أخطأ هذا الخطأ الذى أشرت إليه ، وهو أن يظن الكلمة المألوفة فكرة واضحة ؛ بدليل أنه قد جعل عبارته المشهورة « أنا أفكر » مقياساً للفكرة الواضحة ؛ فقد حسب — أولاً — أنها عبارة واضحة بذاتها ، وأنها — ثانياً — يصح أن تتخذ مقياساً لما ينبغى أن يكون عليه الوضوح فى غيرها من العبارات ؛ أى أن الفكرة التى تبلغ عنده من درجة الوضوح ما بلغته هذه الفكرة ، تؤخذ على أنها هى الأخرى واضحة .

مع أن عبارته هذه تحتوى على كلمتين : كلمة « أنا » وكلمة « أفكر » هما أبعد ما تكون الكلمات عن الوضوح ؛ ومن ذا الذى يستطيع حتى اليوم أن يقول إنه قطع برأى يقينى جازم فى حدود الشخصية الإنسانية وعناصرها التى نجمعها جميعاً تحت كلمة « أنا » ، أو يقول إن « التفكير » قد عرف معناه على وجه التحديد الذى لا إبهام فيه ولا غموض ؟ — كلا ، إنما خُدع ديكارت بالإلف والعادة ؛ فما دامت كلمة « أنا » مألوفة ، وما دامت كلمة « تفكير » معهودة مكرورة ، فهما — فى ظنه — واضحتان ، والعبارة التى تتألف منهما واضحة لا تحتاج إلى مزيد من بيان .

ولدىّ من التعليق على معنى الوضوح عند ديكارت كلام طويل عريض، لا أجد هنا مكاناً لذكره ، لأنى لا أحب أن أدخل القارىء فى مناقشة

فلسفية قد لا يكون به ميل إليها ، وكل ما أردته هو التحذير من هذا الخطأ الذى سرعان ما يزلُّ فيه الإنسان ، حين يظن أن الفكرة واضحة ، ما دامت الكلمة المعبرة عنها مألوفة للأسماع .

إذاً فتى تكون الفكرة واضحة ؟

الفكرة الواضحة هى التى يمكن تحويلها إلى عمل ، فكل فكرة لا تدلك بذاتها على ما يمكن عمله ، بحيث يكون هذا العمل هو معناها الذى لا معنى لها سواه ، تكون « صوتاً » فارغاً ، مهما قالت لنا القواميس عنها ؛ الفكرة الواضحة هى ما يمكن ترجمته إلى سلوك ، وما لا يمكن ترجمته على هذا النحو لا ينبغى أن نقول عنه إنه فكرة غامضة وكفى ، بل ليس هو بالفكرة على الإطلاق ؛ وليس هنالك فى الدنيا شىء اسمه « فكرة نظرية » لا شأن لها بالعمل والتطبيق ، إذ الفكرة النظرية هى الخطة التى يمكن تنفيذها ، وما لا سبيل إلى تنفيذه عملا وسلوكا ، ليس من الفكر فى شىء ؛ ولذلك لا فرق بين الفكر النظرى والفكر العملى إلا فى الترتيب الزمنى ، فما هو الآن فكرة عملية كان منذ حين فكرة نظرية ؛ وما هو اليوم فكرة نظرية يمكن أن يصبح غداً فكرة عملية . . « النظر » من جهة و « العمل » من جهة أخرى ، طرفان لشىء واحد — هو الفكرة — ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء ، فنحن نقول عنها اصطلاحاً إنها « فكرة » حين نشير إلى طرفها

الداخلى ، ونقول عنها إنها « عمل » حين نشير إلى طرفها الخارجى .

وفيما يلى أمثلة توضح ما نريد :

« الصلابة » فى الجسم فكرة واضحة إذا كنت أعرف ماذا أعمل فى الجسم لأتبين فيه ما أسميه بالصلابة ؛ كأن أحاول خدشه بأجسام أخرى كثيرة ، فلا ينخدش ، فأقول عندئذ إنه « صلب » وأعُدُّ نفسى قد فهمت فكرة « الصلابة » فهماً « واضحاً » لأنى عرفت ما نوع السلوك الذى أسلكه حين أريد ترجمة الفكرة إلى عمل ؛ أما إذا وصفت شيئاً بأنه « جميل » فلست أعرف ماذا أعمل بحيث يكون على هذا هو ما أسميه فى الشىء بالجمال ؛ وإذاً فالفكرة غامضة ، أو قل إن « الجمال » ليس فكرة على الإطلاق ؛ وكل مناقشة فى جمال الشىء أو عدم جماله عبث لا يؤدى إلى طائل ؛ فإذا رأيت الفلاسفة على خلاف لا ينقضى فى تحديد معنى « الجمال » ، فاعلم أن ذلك لا يرجع إلى « صعوبة » فى الفكرة ، بل يرجع إلى أن أصحابنا يحاولون أن يقبضوا الريح ، إذ هم يناقشون فى غير موضوع .

و « الثقل » فى جسم من الأجسام فكرة واضحة ، لأنى أعرف ماذا أعمل فى الجسم لأتبين فيه ما أسميه ثقلا ، وهو أن أزيل الحوائل التى تمنع سقوطه على الأرض ، فإن سقط كان « ثقيلا » ، وكانت فكرة

« الثقل » واضحة لأنها قد انتقلت إلى عمل منظور ؛ أما إذا قلت عن شيء ما إن له حقيقة وراء ظواهره المحسوسة ، كأن أقول مثلا إن الكهرباء شيء كامن وراء آثارها الظاهرة ، كان قولي هذا هراء ، بمعنى أنه ليس « فكراً » على الإطلاق ، دع عنك أن يكون فكراً واضحاً ، ذلك لأني لا أعرف ماذا أعمل بحيث أتبين في الشيء حقيقته الخفية المزعومة .

الفكرة الواضحة مشروع لعمل يمكن أداؤه إذا شئنا ، ولا شيء غير ذلك ؛ حتى الأفكار الرياضية مشروعات لأعمال يمكن أداؤها : لقد طلبت إلى خادمتي يوماً أن تشتري لبناً بثلاثة قروش ونصف قرش ، وأعطيتها لذلك ورقة ذات عشرة قروش ؛ فلما أردت حسابها ، قلت لها : لقد اشتريتِ اللبن بثلاثة قروش ونصف قرش ، وكنتُ مديناً لك بقرشين ، فهاتي أربعة قروش ونصف قرش ؛ فبدا عليها الاضطراب ؛ فقلت : ضعي هاهنا ماتبقى لديك من القروش العشرة ؛ فوضعتْ على المنضدة ستة قروش ونصف قرش ؛ قلت لها خذي منها قرشين كنت مديناً لك بهما ، ففعلت وانتهى الإشكال . . كانت العملية الحسابية غامضة في ذهنها أول الأمر ، لأنها لم تكن بعد قد تحددت على صورة سلوكية يمكن إجراؤها عملا ، وكانت العملية « واضحة » في ذهني لأني كنت أعرف كيف أترجمها إلى عمل .

ولئن كان بين الناس خلاف شديد في المذاهب السياسية والاجتماعية ،

فما ذاك إلا لأن الألفاظ الشائعة فى هذا المجال لم تتبلور أفكاراً واضحة بعد ، أعنى أن الأفكار المتداولة لا يُعرف لها طريقة معينة محددة للتنفيذ ؛ إننا نفهم كلمة « جمهورية » فهماً واضحاً إذا عرفنا ماذا نصنع فى المجتمع بحيث يجىء ما نصنعه شيئاً هو الذى نسميه بهذا الاسم ؛ لكن ألفاظاً مثل « ديمقراطية » و « حرية » و « شيوعية » و « اشتراكية » تعبر عن أفكار غامضة ، ومن هنا كان الخلاف ، بل كان القتال ؛ لأن الديمقراطية — مثلا — لا تكون فكرة واضحة إلا إذا عرفنا ماذا نعمل ، وعلى أى وضع نقيم الناس والحكومة ، وبأى صورة تجرى الصناعة والزراعة والتجارة ، حين يكون هنالك ما نسميه بالديمقراطية ؛ — وما دامت الفكرة غير محددة فى طريقة تنفيذها ، فليست هى بالفكرة الواضحة ؛ وقل ذلك فى سائر أخواتها .

لكن قائلاً قد يقول : إنك قد اخترت لأمثلتك أفكاراً بسيطة مما يمكن أن يحقق رأيك فى الوضوح ، لكن هنالك أفكاراً « عميقة » يستحيل أن ينطبق عليها هذا المقياس . والحق أنى ما كتبت هذا المقال إلا لأمحو كثيراً جداً من هذه الأفكار « العميقة » محواً . أيها القارىء الكريم : لا يخدعنك هؤلاء « المتعمقون » لأنهم لا يفهمون لما يقولونه معنى ، ثم يجاوزون بشرهم حدود أنفسهم فيدفعونك فى خلط يفسد عليك حياتك الفكرية والعملية على السواء . إنهم يريدونك أن تكتفى من

دنياك بالكلام ، ولقد شبعنا كلاما حتى التخمة ، ونريد العمل ، نريد العمل ، نريد العمل .

فمثلاً يقول لنا هؤلاء « المتعمقون » فى تفكيرهم : كونوا يا أهل الشرق « روحانيين » . ونسألهم عن معنى « الروحانية » التى يقصدون فلا تدرى بماذا يجيبون ؛ فإننى — كما قلت يوماً فى كلمة ألقيتها — «لا أرى بين ضلالاتنا ضلالة أشد تضليلاً من هذا الذى يكثر ترديده على ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين — وهو أننا شعوب روحانية بالقياس إلى الغرب المادى ؛ يقولون لنا ذلك وكأنما يريدوننا أن نفكر ونعمل ونربى أبناءنا على هذا الأساس . ولست أتمنى شيئاً بمقدار ما أتمنى أن يتفضل علىّ فاضل من هؤلاء فيوضح لى ماذا يريدوننا أن نفعل وكيف يريدوننا أن نفكر ، لأنى حاولت جهدى أن أرى كيف تأكل الشعوب الروحانية وكيف تشرب ، كيف ترصف الطرق وتبنى الجسور ، كيف تقاوم أمراضها وتجرى صناعتها وتجارتها ، كيف تحارب أعداءها ، بل كيف تلهو فى ساعات الفراغ ، حاولت جهدى أن أفهم كيف تتم هذه الأشياء عند الشعوب الروحانية كى تجىء مخالفة لما يصنعه الماديون فى الغرب ، فلم أفهم » — فإذا كانت الفكرة « الروحانية » كما ترى ، يستحيل ترجمتها إلى سلوك ، إذاً فليست هى بالفكرة على الإطلاق ، بل هى لفظة فارغة يجب حذفها حتى لا تفسد علينا الحياة . إننا فى صراع مع ما يسمونه غربا ولن نظفر من

صراعنا بنصر إذا كانت عدتنا كلاما لا يتحول إلى عمل .

وأحسب أن القارىء الذى اعترضنى منذ حين ، سيعود إلى اعتراضى قائلا : لكنها تُعدّ بالمئات ، تلك الألفاظ التى نقولها دون أن يكون فى مضمون معناها عمل ممكن الحدوث ؛ ومنها ألفاظ عزيزة جداً على نفوسنا ، نحبها ونرددها فى الصباح وفى المساء . . . فأجيبه مطمئناً واثقاً : إنها لغو لن تتقدم به الإنسانية فتراً ولا شبراً ؛ إننا نعيش ونحيا بالأفكار القليلة الواضحة ، أى أننا نعيش ونحيا بالأفكار التى يمكن أن تتحول عملا وسلوكا ، فأما تلك التى لا تغير من دنيانا شيئاً فشر يجب أن نتقيه .

إننا نريد العمل ، نريد العمل ، نريد العمل .

جناية الألفاظ

أرأيت بوارج البحر ودبابات الأرض ومقـاتلات السماء التى تنفث اللهب ؟ أرأيت هذه المدمرات كلها بما فيهـا من قوة الفتك والتخريب ؟ إذاً فاعلم يا سيدى أنها جميعـاً لا تكون شيئاً مذكوراً إذا قيست فى ذلك إلى كلمة واهنة ضعيفة من هاتيك الـكلمات التى تخرجها أفواهنا فى موجة صوتية قصيرة ضئيلة ، أو تجريها على الورق بقطرة من مداد ، لو تجمعت على سن القلم لأوشكت عين الرائى ألا ترى شيئاً .

من هذه الموجة الصوتية القصيرة الضئيلة ، أو هذه القطرة المجهرية من مداد قد تنطلق شيـاطين البوارج والدبابات والمقاتلات وغيرها من وسائل التقتيل والتدمير ؛ فنها قد تفور الدماء فى العروق ويطير عن الرءوس صوابها فإذا الجماعات البشرية قطعان من كائنات تدفعها الغريزة كما يندفع سيل الماء من أعلى الجبل مدفوعاً بقوة الجذب دون أن يكون له فى مسلكه اختيار — ألا إن هذه الألفاظ التى نكتبها أو ننطق بها ، لقماقم حبست فى أحشائها الأبالسة والشياطين .

وقصة الألفاظ فى هـذا الصدد مأساة محزنة حقاً ، فهذه الألفاظ قد خلقها الإنسان خلقاً . وحسب أن قيادها بين يديه ورهينة لسـانه ، فإذا

بالألفاظ على مر الزمن يتطور أمرها وتصبح كالمردة الجبابرة ، تمسك بزمام الإنسان راكبة فوق ظهره ، فتنحرف به يمنة أو يسرة كما يشاء لها عماها الذى لا يبصر سواء الطريق ! .

وكنت أود أن أسير مع القارىء فى فصول هذه المأساة المحزنة سطراً بعد سطر ، ليرى هول الجناية التى تقترفها فى حق الإنسان تلك المخلوقات التى ظاهرها وَهَنٌ وضعف وباطنها طغيان وجبروت ؛ لكن هذه المأساة البشرية الكبرى أعقد جداً وأطول جداً مما يستطيع الكاتب أو القارىء أن يقطع شوطه فى مقالة واحدة أو بضع مقالات ؛ فلامندوحة لنا — إذاً — عن القناعة بالخطوط الرئيسية نرسمها أمام أبصارنا ، لعلنا مستطيعون أن نترسم الصورة كلها بلمحات الخيال .

وأول ما نذكره فى هذا السبيل ؛ أن الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغة التى نستخدمها للتفاهم ، هى فى الحقيقة رموز بغير مدلول ولا معنى ! ! وإذا كان الأمر كذلك ، فنستطيع أن نتصور كل كلمة (تقريبا) مما ينطق به الناس علامةً نصبت فى عرض الصحراء وكتبت عليها إشارة تدل على ماء قريب ، والحقيقة أن ليس هنالك فى القريب أو فى البعيد إلا سراب ! ! .

ولنضرب لك مثلا لما نريده كلمة « إنسان » ؛ إن العالم فيه أفراد ، ولكل فرد اسمه الخاص ، فهذا زيد وذلك عمرو أو خالد ؛ فإذا ناديت قائلا : « تعال يا زيد » جاءك رجل بعينه ، وكذلك إذا ناديت يا عمرو

أو ياخالد ؛ ولما كنت مضطراً فى كثير جداً من الأحيان أن أتحدث عن هؤلاء الأفراد جميعاً دفعة واحدة ، ولما كان ذكر أسمائهم جميعاً يتطلب من الوقت والجهد ما لا طاقة لى به ، فقد اخترعت كلمة « إنسان » اختراعاً ، لكى تدل على هؤلاء الأفراد جميعاً دون أن تكون هى نفسها اسماً لفرد منهم ؛ فإذا ناديت : تعال يا إنسان ! ما جاءك أحد لأنه ليس هنالك مسمى لهذا الاسم المخترع . .

فأول فصول المأساة إذاً ، هو أن كل لفظة نستخدمها فى كلامنا (ما عدا الألفاظ التى سمينا بها أفراداً جزئية معروفة) هى رمز ابتكرناه لسهولة التفاهم وسرعته ، لكنه رمز لا يدل على شىء ، أعنى أنه رمز لا يشير إلى شىء قط فى عالم الأشياء — ليس الاسم أو الكلمة هو الشىء المسمى ، احفظ هذا المبدأ جيداً وانظر بعد ذلك إلى المصائب الكبرى التى تنزل على رءوس الناس من جراء نسيانهم لهذا المبدأ الواضح البين .

فإذا أردت فهماً للأمور من خلال ما يقال لك من عبارات وألفاظ ، فلا سبيل إلى ذلك إلا أن تدرب نفسك على النظر من خلال الألفاظ إلى الأفراد والأشياء الجزئية التى وراءها ؛ فإذا قلت لك مثلا : الشعب المصرى جاهل ، فقير ، مريض ، فقد يخيل إليك للوهلة السريعة الأولى أنك فهمت المراد ، لكنك فى أغلب ظنى لم تفهم شيئاً ، واعذرنى فى هذا الاتهام ،

لأنى أحكم بما قد جرى عليه الناس من طريقة الفهم لما يكتب أو يقال .

فليس « الشعب المصرى » إلا علامة سوداء أمامك على الورق ، فإذا وقفت عند هذا الحد من الرؤية ، فأنت لم تفهم شيئاً على سبيل اليقين ؛ لكنك تأخذ فى الفهم حين تقف أمام هذه العلامة السوداء لتتخذها منظاراً لا أكثر ولا أقل ، هى منظار ترى خلاله عشرين مليوناً من الأنفس رجالا ونساء وأطفالا ؛ حاول أن توقف هؤلاء العشرين مليوناً أمام مخيلتك صفاً طويلا يمتد — مثلاً — من منبع النيل إلى مصبه ، ثم حاول أن تنقل بصرك فى هذا الصف الطويل من هذا الرجل (زيد) إلى هذه المرأة (هند) إلى ذلك الغلام (خالد) — هؤلاء جميعاً يا سيدى ناس ، لكل منهم مشاعر وخواطر من قبيل مشاعرك وخواطرك ؛ وإذا عض الجوعُ واحداً منهم فهنالك فرد يتألم ، وإذا خاب رجاء واحد منهم ، فهنالك فرد يتحسر ويحزن ؛ ليس (الشعب المصرى) بذى دلالة إلا إذا أدركت إدراكاً واضحاً أن الكلمة فى ذاتها ليس لها معنى ، وإنما المعنى المراد هو الحزمة الضخمة من الأفراد الأحياء الذين أسمينا كل فرد منهم باسمه الخاص ؛ وياليتنا نستطيع — كلما أردنا أن نتحدث عن الشعب المصرى — أن نكتب قائمة طويلة بالأسماء كلها ، فذلك أقرب إلى الفهم الصحيح لما نريد .

فإذا قلت بعد ذلك عن هذا الصف الطويل من أفراد البشر ، إنه

(جاهل) فقد تحسب مرة أخرى أنك قد فهمت المراد ، لكنك هنا أيضاً فى أغلب الظن قد اكتفيت بالنظر إلى علامة سوداء خطّت أمامك على الورق ؛ ولكى تفهم المعنى المراد على حقيقته ، انظر خلال هذا المنظار إلى أمثلة الجهل القائمة فعلا ؛ عدْ إلى الصف الطويل من أبناء آدم الذى بلغ عشرين مليونا ، عد إلى ذلك الصف الطويل وانظر إلى الأفراد واحداً بعد واحد ، فستجد لكل فرد مواقف وأقوالا ، وستعلم أن كثيراً جداً من تلك المواقف ، وهذه الأقوال ، لا يصور دنيا الواقع فى شىء ، وعندئذ فقط سيتبين لك كم نسبة الجهل فى الفرد الواحد ، وكم نسبته فى المجموعة كلها ، وما أنواعه البشعة الفظيعة ؛ سيتبين لك ياسيدى أن معظم (المتعلمين) جهلاء ؛ لأنهم فى سلوكهم وفى أقوالهم وفى عقائدهم يسيرون فى واد والدنيا بأسرها تسير فى واد آخر ؛ سيتبين لك يا سيدى كم من أفراد هذا الصف البشرى يعيش فى أوهامه ؛ وعندئذ فقط ستعلم فى شىء من الوضوح قولك عن (الشعب المصرى) إنه (جاهل) .

وهكذا قل فى طريقة فهمك لكلمة (فقير) وفى كلمة (مريض) — نشدتك الله ألا تكتفى بالنظر إلى هاتين اللفظتين الصغيرتين فى حيزهما الضئيل على الورق ، ثم توهم نفسك أنك قد فهمت المراد ؟ لا يا سيدى ، اخرج إلى الطريق وسافر إلى الريف وانظر إلى (الفقراء) فقيراً فقيراً ، فكلمة (فقير) لامعنى لها بعيداً عن هؤلاء (الأفراد الفقراء) الذين يطلق على كل منهم اسم خاص به ؛ فهذا (زيد) وذلك (إبراهيم) وتلك

« فاطمة » ؛ ثم اخرج إلى الطريق وسافر إلى الريف ، أستغفر الله ، إنما أردت أن أقول تسلل إلى الجحور البشرية التي تملأ الأرض عن يمينك وشمالك ، لكي ترى « المرضى » مريضاً مريضاً ، فليس لكلمة « المرض » معنى إذا لم يكن معناها هؤلاء الأفراد المرضى الذين يطلق على كل منهم اسم خاص به في شهادة ميلاده !!

أرأيت إذاً كم تستغرق من الزمن وكم تنفق من المجهود لتفهم عبارة واحدة قصيرة ، مثل « الشعب المصرى جاهل فقير مريض » ؟ .

لكنها جناية الألفاظ علينا هى التى تخيل إلينا أننا بالنظر إلى الكلمة مكتوبة أو مسموعة ، قد فهمناها !! وأصل الجريمة هو كما أسلفت لك ، الظن بأن الكلمة هى نفسها الشىء المسمى ، لكن احفظ جيداً هذا المبدأ الواضح البيّن ، وهو : ليس الاسم هو المسمى ، ليست اللفظة هى الشىء . . الأسماء والألفاظ مناظير ينبغى أن ننظر خلالها إلى الأفراد الذين نتحسس بأيدينا فنلمسهم ، وننظر بأبصارنا فنراهم . . .

* * *

وذلك فصل واحد من فصول المأساة ، وأما فصلها الثانى فهو تلك الكلمات المجرمة التى تثير مشاعرنا فنأتى الكبائر ، مع أنها فى ذاتها ليست بذات معنى ! انظر إلى هذه الأمثلة من الكلمات المجرمات :

إنسانية ، دولة ، ديمقراطية ، حرية ، أمة ، دستور ، مدنية ، إلى آخر أفراد « العصابة » إن كان لهذه العصبة الآثمة من آخر .

فما كان أهون على رجل واحد أن يقوم فينادى بألوف الألوف من فتىّ الشباب ليقذف بهم فى جهنم الحرب إرضاء لشهواته هو ، لأنه يريد أن يقود ويسيطر ؛ ما كان أهون على ذلك الرجل أن يقذف بألوف الألوف من الشباب الفتى القوىّ باسم « الدولة » — مثلاً — أو باسم « الديموقراطية » أو بما شئت من هذه الطلاسم السحرية . . .

وها هنا نريد لك أيها القارىء أن تحفظ مبدأ آخر حفظاً جيداً ، وهو أن مدلول الكلمة هو الأشياء الجزئية المحسوسة التى تشير إليها ؛ فإذا قيل لنا « الدولة » وأردنا أن نفهم فيجب أن نسأل بدورنا : أين هى ؟ لابد أن أضع يدى عليها لألمسها ، وأن أفتح عينى وأميل بأذنى لأراها وأسمعها ، وعندئذ سترى أن الدولة مجموعة من أفراد ؛ وليس فى ذلك بأس ، لـكن البأس كل البأس فى أن نتوهم أنها كائن إلهى غيبى لا حق لنا فى نقده ومناقشته الحساب .

وقد يقول القائلون : لـكن هنالك من الألفـاظ ما لا سبيل إلى الرجوع به إلى أشياء تلمس بالأيدى وترى بالأعين وتسمع بالآذان ، وإلا فماذا تريد أن تلمس فى معرفتك لمعنى كلمة « الديمقراطية » مثـلاً ؟

والجواب على ذلك هو أننا بين أمرين لا ثالث لهما : فإما أنه من الممكن أن نعثر فى عالم الأشياء الواقعة المحسوسة المرئية على ما نسميه بهذا الاسم وأمثاله ، ولو بعد جهد وحصر انتباه ودراسة ، فيكون لهذا الاسم وأمثاله معنى ، وإما أن يكون ذلك مستحيلاً فلا تكون الكلمة عندئذ ذات معنى على الإطلاق ، وتكون جريمة كبرى أن نستخدمها فى إثارة المشاعر ، وما تستتبعه من تقتيل وتخريب وفتك ودمار .

حرام عليكم أيها الناس أن تحرصوا على « ألفاظ » حتى إن كان الثمن ألوف الألوف من الشباب الفتىّ الحالم الآمل ؛ فهاتيك الألفاظ موجات صوتية ضئيلة ، أو هى قطرات من مداد سكبناها على الورق فى صورة معينة ، أما هؤلاء الشباب فأفراد أحياء فى أجوافهم قلوب ورئات ودماء وأعصاب ! .

* * *

لا عجب والله إن كانت للألفاظ قوة السحر عند الشعوب البدائية الأولى ؛ فهذه اللفظة تشفى من الحمى ، وتلك اللفظة تهزم العدو فى القتال ، إلى آخر ما كان سائداً بين تلك الشعوب من أحلام وأوهام .

اعلم أفادك الله أن اللفظة من ألفاظ اللغة إذا لم تدلك على مُسمّى تراه بعينيك فهى لفظة فارغة ، هى موجة صوتية كأى اهتزاز آخر يهتز

به الهواء ، أو هى نبش على الورق كأى نبش يحدثه الطفل اللاهى ؛ فاسأل — إذا أردت الفهم والتفاهم — عن الشىء أو الأشياء التى يراد للفظة المستعملة فى الحديث أن تشير إليها ؛ فإذا وجدتها فالخلاف بينك و بين خصمك لن يطول ، وإلا فسيظل الخلاف فى الرأى قائماً إلى يوم الدين .

فما أكثر ما يطول النقاش بين فريقين حول كلمة ، كالحرية مثلاً أو كالديمقراطية أو الدولة أو الأمة ، وتكون علة الخلاف بينهما هى أن كلا منهما يقصد بالكلمة إلى معنى غير المعنى الذى يقصد بها إليه زميله ؛ فإذا جعلنا دستورنا فى الفهم والتفاهم هو تحديد المسميات أولاً — المسميات التى نراها بالأعين ونحسها بالأيدى ، انحصر مجال الخلاف وقصر أمده كما هى الحال بين رجال العلوم مثلاً .

والكارثة الحقيقية فى أمثال هذا الخلاف الذى قد يؤدى إلى حرب وسفك دماء ، أن يقوم الخلاف على لفظة فارغة زائفة إن بحثنا لها عن مدلول فى عالم الأشياء لم نجد شيئاً .

راجع التاريخ فى ضوء هذا الكلام ، وانظر كم أودت الألفاظ الزائفة بأنفس البشر هباء ! فكلمة « جهاد » وحدها مسئولة عن سفك أنهر من الدماء لا يعلم إلا الله مداها ؛ ولسنا بطبيعة الحال ننكر استعمال هذه

الـكايات وأمثالها ، لـكن الذى ندعو إليه هو أن يكون المتكلم والسامع على بينة مما تشير إليه كل كلمة من تفصيلات فى عالم الأشياء الواقعة ؛ قل للشباب بملء فيك : جاهدوا فى سبيل الحرية ، على شرط أن تـكون أنت ، وأن يكون الشـباب على علم تام بالتفصيلات التى نطلق على مجموعتها كلمة « جهـاد » و بالتفصيلات التى نطلق على مجموعتها كلمة « حرية » ، فعلينا منذ الآن بالتفرقة الدقيقة بين الألفاظ الحقيقية والألفاظ الزائفة كلما أردنا الجدّ فى الكلام والـكتابة ، وليسمح لى القارىء أن أعيد هنا ما قلته فى كتابى المنطق الوضعى فى هـذا الصدد ، لعله يفيد :

« الفرق بين اللفظة الحقيقية واللفظة الزائفة هو أن الأولى وراءها « رصيد » من المسميات الجزئية ، وأما الأخرى فليس وراءها شىء يشار بها إليه ؛ فما أقرب الشبه بينهما وبين الورقة النقدية الحقيقية بالقياس إلى الورقة النقدية الزائفة ، فهاتان قد تكونان فى الصورة الظاهرة متساويتين ، لـكن الأولى حقيقية لأن هنالك « رصيداً » من الذهب أوما إليه يجعل لها قيمة « فعلية » . وأما الورقة الزائفة فليس وراءها مثل ذلك « الرصيد » ، ولذا فهى لا تشير إلى شىء وراءها من محفوظات « البنك » مما يجعل لها قيمة حقيقية .

«إن الـكلمة لا ينفى عنها الزيف طولُ أمد استعمالها فى التفـاهم بين الناس ، فإذا مضينا فى تشبيهنا الألفاظ الزائفة بالنقد الزائف ، قلنا إن اللفظة الزائفة التى طال أمد استعمالها بين الناس حتى ظنوا أن لها معنى ، شبيهة

بظرف مقفل ليس بداخله شيء ، لكنه دار بين الناس مدة طويلة على زعم وهمي ، وهو أن فيه ورقة من أوراق النقد ، فظلت له هذه القيمة في التعامل ، حتى تشكك في أمره متشكك ، وفتحه ليستوثق أن له قيمته المزعومة ، فلم يجد شيئاً ، بل وجده فارغاً ولا « قيمة » له .

وهكذا قف إزاء الكلمات التي تراها مكتوبة أو تسمعها منطوقة ، وانظر في عالم الأشياء المحسوسة باحثاً عن « رصيدها » فإن وجدتها كانت الكلمة ذات معنى وصالحة للتفاهم ، وإلا فهي فارغة زائفة ، بل هي مجرمة آثمة .

مهمة الكاتب

اللهم إنى كفرت بالأقلام تكتب بالمداد ، فمن لنا بعشرة آلاف قلم تنفث من أسنانها الحمم ، لعلها تلسع الجلود فتوقظ الرقود من سباتهم العميق ، وتحفز الوقوف إلى الحركة والسير ، وتستحث السائرين ليسرعوا الخطى ، عسى أن ندرك الركب ، فقد بعدت المسافة جداً بين الرأس والذَّنَب .

كفرت بالأقلام تكتب بالمداد ، لأن الكتاب عندنا قد ظلوا يكتبون ويكتبون ، ولم يزل الناس على حالهم غرقى فى أوهامهم ؛ فهما وجهنا اللوم إلى كبار كتابنا على ممالأتهم الناس فى كثير مما كتبوه ، حين جعلوا يمجدون لهم أمجادهم ويترنمون لهم بالأنغام التى تصادف هوى فى نفوسهم ، فلا بد لنا إلى جانب اللوم أن نعترف لهم بالفضل فى محاولتهم تغيير كثير من القيم السائدة ، التى أصبح قيامها محالاً بين شعب أراد أن يتحضر ؛ فمنذ ثلث قرن أو يزيد ، أخذ كبار كتابنا ينقلون إلينا معايير جديدة للأخلاق ونظم الحكم والتربية ، ويعلموننا مقاييس جديدة نقيس بها الآداب والفنون ، ويلفتون أنظارنا إلى القواعد الصحيحة التى ينبغى أن نحكم بها على الأشياء فى هذا العصر الحديث — كتبوا وكتبوا ،

وما يزال الناس على حالهم فيما أرى ؛ حدث تغيرٌ طفيف فى القشرة ، أما اللباب فهو هو كما كان منذ قرون .

كنت أتحدث إلى أستاذنا العقاد منـذ حين ، فقلت له فى سياق الحديث : إننا لا نتطور ولا نتغير ، كأنما قوانين التطور الاجتماعى التى تسرى على سائر البشر لا تنطبق علينا ، فقال باسماً : بل قل إن شئت إن القوانين الطبيعية نفسها توشك فى أرضنا ألا تفعل فعلها . . . وهو بذلك يعنى أن ما تتوقعه فى أى بلد من بلاد الأرض قد لا يقع لك فى هذه البلاد ، فربما وضعت وعاء الماء على النار متوقعاً للماء أن يغلى ، فإذا به ينجمد ثلجاً ؛ و بعبارة أعم ، إن المقدمات عندنا قلما تنتج نتائجها ، والنتائج قلما تتفرع عن مقدماتها الصحيحة ؛ أنظر — مثلاً — إلى الخطة التى وضعناها منذ ربع قرن لمحو الأمية ؛ حسبنا الحساب وقلنا سنفعل كذا وكذا ، وستنمحى الأمية بعد كذا من السنين ؛ وتمضى السنون ، وتسأل كيف الحال ؟ فلا تجد من يعرف كيف يجيب — ليس لك أن تعجب لحدوث شىء فى أى زمان وأى مكان ، لأن العجب إنما يكون لشذوذ يحدث وسط انتظام واطراد فيستوقف النظر و يستثير العجب . أما إن كان الأصل فى الأشياء هو ألا نظام ولا اطراد ، فلا عجب ولا تعجب ، إلا إذا شاء الله لجزء من الحوادث فى ركن من البلاد أن يسير مؤقتاً على سياق منتظم من قانون معلوم ! . . ليس فى ذلك مبالغة أو إسراف ؛ فالذى

يلفت أنظارنا اليوم هو أن نجد رجلاً قد اؤتمن على عمل للشعب أو مال للدولة فأنجز العمل أميناً ، أو أدّى المال كاملاً .

ولعل كبار كتابنا قد أدركوا أنهم كانوا ينفخون فى قربة مقطوعة حين كانوا يقصدون إلى الجد فيما يكتبون ، فانقلبوا إلى كتابة التسلية وإزجاء الفراغ ، وشجعهم على ذلك أن بعض الشركات المالية التى أرادت لها المصادفة أن تشرف على إصدار الصحف والمجلات ، قد أغرتهم بالمال ، على شرط أن يكتبوا لها ما تطلب إليهم الكتابة فيه وبالمقدار الذى تطلبه ، وبالكثافة التى تقررها ، والموضوع والمقدار والكثافة عند أصحاب تلك الشركات المالية ، كلها أمور يقررها الجمهور الشارى ، إذ لا فرق عندها بين المجلات والصحف التى تنزلها إلى السوق ، وبين رءوس الماشية وقوالب الطوب ، والفول والعدس — كلها سلع تجارية ، ولا بد فيها جميعاً أن ينظر إلى الشروط الصالحة للبيع والشراء . . .

إذاً فقد انصرف كتابنا الكبار عن الكتابة الجادة لسببين : الأول أنهم وجدوا كتابتهم لا تغير من الأمر الواقع شيئاً ، فالناس هم الناس سواء كتب الكتاب أو لم يكتبوا ، والثانى هو أن زمام الكتابة لم يعد فى أيديهم هم ، بل انتقل إلى أصحاب رءوس الأموال الذين اختاروا لاستغلال أموالهم تجارة الصحف والمجلات ؛ ولك إن شئت أن تنظر إلى

إنتاج هذا الأديب أو ذاك ، فتأتى بمجموعة من مقالاته التى أصدرها منذ عشرين عاماً أو ثلاثين ، ثم تقارنها بمجموعة من مقالاته التى يكتبها هذه الأيام فى المجلات التى أعنيها ، وسترى الفرق واضحاً : كان هنـاك جد وعزم على تغيير عقول القراء ، فأصبح هنا استهتار وعدم مبالاة بمـا يجرى به القلم ، لأن الأمر عنده وعند صاحب المجلة لم يعد يزيد أو يقل عن صفحتين يكتبهما ليتسلى بهما القـارىء حين لا تسعفه للتسلية وسيلة أخرى .

لـكن لو أخلص هؤلاء الـكتاب لوجدوا أن مهمتهم لا تزال باقية على حالها ، فهم لم يغيروا من عقائد الناس شيئاً ، إذ لا يزال الناس فى حالة شبيهة جداً بما كانت عليه أوربا فى العصور الوسطى . . . إن أميز ما يميز التفـكير فى العصور الوسطى هو الاستناد فى الأحكام على الـكتب القديمة ، فإذا قال قائل قولا ، وطالبه السامعون بالسند ارتد إلى الـكتب القديمة يستخرج الدليل حتى إذا ما وجده اقتنع هو واقتنع السامعون على السواء . والنهضة الأوربية التى جاءت لتنفض غبار العصور الوسطى ، كان معناها هو هذا : أن يرجع الناس فى أحكامهم إلى ما تقوله الطبيعة وما يقوله الواقع ، وأن تـكون وسيلتهم إلى ذلك هى عيونهم وآذانهم ، لأن الله أرحم جداً وأقدر جداً من أن يقصر العيون والآذان على

عصر واحد ذهب ومضى ليكون الناس من بعده صُماً عمياً لا يسمعون ولا يبصرون .

لا يزال النـاس عندنا فى حالة شبيهة جداً بما كانت عليه أوربا فى العصور الوسطى ، يؤمنون بأفواه مفتوحة ولعاب سائل ؛ فإذا تمنينا لهم شيئاً ، فهو أن يقيض لهم الله من أصحاب الفـكر وأرباب القلم مثل من أنعم بهم على عباده من الأوربيين إبان نهضتهم ، فلو استعرضت أوربا عندئذ بخيالك وجدت مفـكريها وكتابها قد عقدوا عزماً من حديد على تنظيف الرءوس وتجديد النفوس ، ليستقبل الناس عهداً جديداً ، هو الذى نسميه اليوم بأوربا الحديثة — فأين لنا من علمائنا من يقوم بالدور الذى قام به جاليليو وكبلر ونيوتن إبان النهضة الأوربية ، ليلفتوا أنظارنا إلى الطبيعة تدرسها ، بدل الانطواء على أنفسنا مكبين على صفحات صفر معفرة بالتراب ؟ وأين لنا من فلاسفتنا من يدعو إلى ما دعا إليه ديكارت وبيكن أيام النهضة الأوربية ، ليرسموا لنا منهاج التفـكير الجاد الصارم ، الذى لا يلين أمام عاطفة حتى يبلغ الحق ، وهو فى سبيل ذلك يتشـكك ويتثبت ويتحقق حتى لا ينخدع بإيمان السذج البلهاء ؟ وأين لنا من أدبائنا من يكتب بمثل الأقلام التى كتب بها سيرفانتيز ومونتيني وشيكسبير ، ليهزوا فينا الخيال هزاً عنيفاً ، فترتسم الدنيا أمام أنظارنا فى صورة جديدة ؟ .

لا . . ليس بيننا العلماء وليس بيننا الفلاسفة . . لا صغار ولا كبار — وأعظم من يعظمون فى أعيننا من هؤلاء هم « تلاميذ » حفظوا كثيراً أو قليلاً مما كتبه العلماء والفلاسفة فى أوربا التى نعوذ بالله من شيطانها الرجيم ! ! إننا نتسامح فى استعمال الألفاظ إلى الحد الذى نقول عنده عن فلان إنه « عالم » حين يكون فلان هذا قد وعى رأسه قائمة طويلة من الحقائق التى وصل إليها العلم ؛ لكن « العالم » الحق ليس هو من وعى وحفظ ، إنما هو من عرف كيف يسأل الطبيعة سؤالا وكيف يجعلها تجيب له عن سؤاله بما يجرى من تجارب فى أنابيبه ومخابيره ؛ وليس بيننا من يعرف كيف يسأل الطبيعة سؤالا جديداً ، ويجعلها تجيب له عنه جواباً يذيعه فى العالم المتحضر على أنه من كشفه هو ومجهوده هو .

لا . . ، ليس بيننا العلماء وليس بيننا الفلاسفة ، وكان يمكن أن يكون بيننا الأدباء ، لكنهم — واحسرتاه — قد انصرفوا عن مهمتهم إلى حيث الكلام الخفيف اللطيف ، الذى يبيعونه لشركات الصحف والمجلات ، بيع التاجر الذى يراعى فى سلعته ظروف العرض والطلب .

ولم يكن قد حان الوقت بعد لهؤلاء الكتاب أن يلقوا السلاح من أيديهم ، لأننا لم نزل أمة فى عصورها الوسطى ، تنتظر الانتقال إلى العصر الحديث على أيديهم ؛ إنه لما يستوقف النظر فى أمتنا أنها تنقسم قسمين :

أقلية ضئيلة جداً فى ناحية وأكثرية كبيرة جداً فى ناحية أخرى ؛ وهى تنقسم هذين القسمين فى كل شيء : فى الثروة ، وفى العلم ، وفى التحضر بأسباب المدنية الحديثة ؛ فأقلية ضئيلة بلغ بها الغنى حد الإفراط ، وأكثرية كبيرة مزّقها الفقر فى الوحل ؛ وأقلية ضئيلة بلغت من العلم شأوا ، وأكثرية كبيرة نزلت من الجهالة إلى حد الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب ؛ وأقلية ضئيلة تكاد تنخرط مع الأوروبيين فى حضارتهم ، وأكثرية كبيرة لم تلمسها يد القرون التى تتابعت على الإنسانية فى تاريخها الطويل .

إننا لم نزل أمة بدائية فى احتكامنا إلى العواطف حيث ينبغى تحكيم العقل ؛ فبالعاطفة نرفع الحكومات ونخفضها ، وبالعاطفة نرسم المشروعات وننسخها ، وبالعاطفة نحالف الدول الأخرى ونخاصمها ، وبالعاطفة نملأ المناصب ونخليها ، وبالعاطفة نؤيد ونعارض ونستحسن ونستهجن — أفتكون هذه حالنا والكُتّاب عندنا مشغولون بالكتابة الخفيفة لتسلية القراء وإثراء الشركات الصحفية ؟ .

إننا لم نزل أمة بدائية تملأ الخرافة رءوسنا ، نتشاءم ونتفاءل ونؤمن إيمان العجائز ؛ واسمع القصة الآتية واسخر : أقمنا ذات يوم حفلاً نودع به راحلاً ونستقبل قادماً ، وجلس على المائدة أمامى رجل صناعته تدريس الفلسفة فى الجامعة ؛ فأخذ هذا الفيلسوف يقص علينا كيف يفعل الإيمان

الأعاجيب ، قال : كان فى شبرا شيخ تقى صالح ، له مريدون كثيرون ؛ وكنت أحضر جلساته أحياناً ، وقد أخذ يعلم تلاميذه كيف يقولون البسملة بإيمان ، ثم يمشون بعد ذلك على سطح الماء فإذا هم يدوسون بأقدامهم على مسطح أصلب من الحجر ؛ وحدث ذات مرة لبائع فجل (ولست أدرى لماذا وقعت الواقعة لبائع الفجل وحده ، ولم يقع مثلها لزميله الأستاذ الفيلسوف) من تلاميذ الرجل أن فرغ من بيع بضاعته ، وأراد الرجوع إلى داره فى امبابه ؛ وسار على قدميه شوطاً ، ثم تنبه فجأة إلى دروس أستاذه الشيخ ، فوقف على شاطىء النيل ، وأغمض عينيه ، وقال بكل قلبه « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم مشى ، فإذا هو الماشى من النهر على أرض يابسة ! — هكذا قص علينا الفيلسوف قصته ، ولولا أنى أتمنى له السلامة لتمنيت عندئذ أن يقوم هو الآخر بالتجربة عينها ، ليتخفف الشعب من عامل من عوامل التخريف — وإن كان هذا شأن القمة العليا من طبقة « المثقفين » (؟!) فماذا تكون حال الملايين من السواد ؟ أفبعد هذا كله يلقى كبار كتابنا من أيديهم أقلامهم الجادة كأنما قد فرغوا من مهمتهم ، ولم يبق عليهم سوى أن يكتبوا ما تطلب إليهم شركات الصحف كتابته لتسلية القراء ؟

ونحن لم نزل أمة بدائية فى عقيدتنا بأن الإنسان ألعوبة فى يد القدر ؛ فتلك هى نظرة الشعوب الأولى التى لم تكن تدرى كيف يسقط المطر

إعانة المجلات العلمية

لوزارة التربية والتعليم جهود مشكورة فى تشجيع الحركة العلمية والفنية فى كثير من صورها ، تشجيعاً لولاه لما استطاعت تلك الحركة — فى أرجح الظن — أن تحقق هذا الذى حققته اليوم على قلته وضآلته .

فهى تعين المدارس والجامعات إعانة مبسوطة الكف لاتدخر فى ذلك وسعاً ، حتى لتدفع كل نفقات الطالب فى بعض المراحل التعليمية ، وقسطاً كبيراً من تلك النفقـات فى المراحل التعليمية الأخرى ؛ وهى تدفع مكافآت مجزية فى تشجيع حركة الترجمة حتى لقد يبلغ ماتدفعه أجراً على ترجمة الكتاب أحياناً مبلغاً يزيد على ما يكسبه مؤلف الكتاب نفسه ، وهى تبذل بذلاً حميداً فى تشجيع المؤلفين بشراء بضع مئات من كل كتاب تقريباً ، مما يعوض على المؤلف شيئاً مما أنفقه فى تأليف كتابه من جهد ومال ، وهى تعين الفرق التمثيلية الأجنبية والمصرية على السواء بألوف الجنيهات كل عام ، وهى كذلك تسخو على كثير من الجمعيات العلمية والنوادى الأدبية والاجتماعية بمال كثير أو قليل ؛ وهكذا وهكذا إلى آخر ما تنفقه الحكومة فى هذا السبيل ، و إذاً فهى جهود للحكومة مذكورة مشكورة مهما يكن بها من نقص هنا أو عيب هناك ؛ إن لم

تصلحه اليوم ، فهى لا بد فاعلة غداً ؛ فحسبك من أصحاب الحكم فى هذا الصدد أن تراهم قد ولوا وجوههم نحو الخير الصحيح ، فإن كان فى خُطاهم تعثرٌ فى أول الطريق ، فالأرجح أن يعتدل بهم السير بعد حين .

لكننا نرى أن وزارة التربية والتعليم قد غفلت عن إعانة المجلات العلمية إعانة تمكنها من القيام بواجبها على نحو كامل ، وهى بإغضائها عن هذا الجانب من البناء الثقافى بمثابة من يصلح الأدوار العليا من البناء ويترك الأساس متداعياً منهاراً ؛ ولست أطلق الكلام هنا إطلاقاً عن غير وعى بمعناه ، ، وإنما أعنى هذا الذى أقوله بأدق ما يؤديه من معنى .

فالمجلات العلمية والأدبية هى حقل التجارب الذى يخرج لنا الكتّاب والمؤلفين فيما بعد ؛ فإذا أنت محوته فقد محوت تسعة أعشار الفرصة التى تتهيأ للأقلام الناشئة ، وبالتالى فقد محوت تسعة أعشار المؤلفين فى الجيل المقبل ؛ ولست بذلك أعنى أن المجلات العلمية مقصورة على أقلام الناشئين ، لكنها توشك أن تكون هى المجال الوحيد أمام هؤلاء ؛ أما الكاتب الذى استقام واعتدل وقويت ساقاه فيستطيع أن يتنفس فى الكتب إن ضاقت أمامه المجلات التى تتناسب مع مكانته العلمية والأدبية ، وأنا أقول ذلك تفاؤلاً منى بكبار كتّابنا ؛ وإلا فلو قلت ما أعتقده حقاً لقلت مرة أخرى ما أعلنته فى مواضع عدة ، وهو أن الكاتب عندنا فى معظم الأحيان تستنفد مجهوده المقالة الواحدة ؛ وليس

هو كالكاتب الأوربى يستطيع أن يستطرد مع فكرته حتى يملأ بها كتاباً ، وإذاً فإضعاف المجلات العلمية والأدبية عندنا معناه المباشر هو سد الطريق فى وجوه أصحاب القلم جميعاً ، صغارهم وكبارهم على السواء .

كانت المجلات والصحف عندنا هى المعمل الذى أخرج لنا قادة الفكر الذين نفخر بهم ونعتز ، والذين نخشى مخلصين أن يتركوا وراءهم فراغاً يستحيل على الجيل التالى لهم أن يملأه ؛ فلولا الكتابة الصحفية لما كان لدينا العقاد والمازنى وطه حسين وأحمد أمين وهيكل وغيرهم ؛ وقد كدت أقول توفيق الحكيم ، وأنا أتحفظ بالنسبة إلى الأستاذ الحكيم لأنه على خلاف هؤلاء جميعاً قد بدأ أدبه الممتاز بالكتاب الكامل ، ثم جرفه التيار العام ، فعقّب على الكتاب بالمقالة ، وأتبع مرحلة التمثيلية الكاملة ذات الفصول ، بمرحلة التمثيلية ذات الفصل الواحد ، التى تتناسب مع الإخراج الصحفى ؛ وهو لاشك سيرٌ فى الطريق من آخره إلى أوله ، لكنه يدل دلالة قوية على سيطرة المجلة أو الصحيفة على أدبائنا . فكيف إذاً تكون الحال لو عشنا فى خلاء من مجلات وصحف أدبية ممتازة ؟

فكر فى قادة الأدب عندنا واحداً بعد واحد ، واسأل : ماذا يستطيع فلان أن يكتب إذا امتنعت دونه كتابة المقالة ؟ تجد جواب السؤال حاضراً فى أغلب الحالات ، وهو : لا يستطيع أن يكتب شيئاً ، لأنه أضحل فكراً من أن يخرج فكره فى كتاب متصل ؛ وكم مر علينا من تجارب ، سدت

فيها أبواب الصحف على كبار كتابنا ، فسكتوا وطووا أقلامهم لأن الواحد منهم إما أن يكتب مقالة أو لا يكتب شيئاً ؛ والكثرة الغالبة من نتاجنا الأدبى الذى يتخذ فى النهاية صورة الكتب ، إن هى إلا مقالات جمعت فى كتب ، وليست هى بالكتب الأصيلة التى أنشأها منشئوها على أساس الكتاب لا على أساس المقالة .

لست هاهنا ناقداً يشير إلى وجه من أوجه النقص فى إنتاجنا الأدبى والعلمى ، ولكنى أصف هذه الحالة لأنتهى إلى النتيجة التى تتفرع عنها ؛ وهى أنه إذا انعدمت المجلات الأدبية والعلمية فقد انعدمت بالتالى الفرصة الوحيدة التى يتنفس فيها كبار كتابنا ، والتى تهىء مجال المران لصغارهم الناشئين .

قرأت فى العدد الأخير من المجلة الإنجليزية « القرن التاسع عشر وما بعده » مقالاً هو الذى انبثقت منه فكرة هذا المقال الذى أكتبه ؛ إذ قرأت تحت عنوان : « حالة الجمعيات العلمية » (فى انجلترا) ما يشبه البكاء على تدهور الجمعيات العلمية هناك بسبب قلة الإعانة المالية التى تقدمها حكومتهم إليها ؛ ويقول كاتب المقال متجهاً بقوله إلى رجال الحكومة : إننا فى أثناء الحرب الأخيرة قد حرمنا كثيراً من ألوان التسلية واللهو ، حتى يتوافر مجهودنا كله للقتال ، ومع ذلك لم نجرؤ على تحريم سباق الخيل ، وكانت حجة الحكومة عندئذ هى أن إغلاق حلبات السباق يؤدى إلى

تعريض تربية الجياد الكريمة لخطر جسيم ؛ ولما كانت الحكومة حريصة على اتصال سلسلة الجياد الكريمة حتى لاينقطع حبلها ، فقد أبقت على الدافع الأول إلى تربيتها والعناية بهـا ، ألا وهو السباق وحلبته — وبعد هذا التشبيه ينتقل الكاتب إلى حالة الجمعيات العلمية عندهم ، فيقول : أليست تحرص الحكومة على اتصال سلسلة رجال الفكر كما كانت تحرص على الجياد الأصيلة ؟ إنهـا لابد حريصة على ذلك أشد الحرص ، وإذاً فلا مناص من صيانة الحلبة التي يؤدى وجودها إلى وجود رجال الفكر ، ويؤدى انعدامها أو ضعفها إلى انعدامهم أو ضعفهم ، وما تلك الحلبة سوى الجمعيات العلمية بما لها من مكتبات ومجلات وغيرها .

ويقول كاتب ذلك المقال أيضاً : إن هنالك المجامع العلمية الرسمية ، مثل « المجمع الملكى » للعلوم الطبيعية والرياضية ، و « المجمع العلمى البريطانى » للتاريخ والأدب والفلسفة والآثار — هذه المجامع العلمية الرسمية تحظى برعاية الحكومة على الوجه الأكمل ؛ لكن كيف السبيل إلى إمداد تلك المجامع بقادة الفكر إن لم يكن لدينا « جمعيات » تكون بمثابة صفوف الشعب التى تخرج منها هؤلاء القادة ؟ هل تستطيع أن تظفر بالقادة دون أن يكون لديك المجال الذى يتخرجون فيه ويتمرسون فى ميدانه ؟ فلا مناص لنـا — إذاً — من رعاية الجمعيات العلمية والأدبية حتى تخرج لنا فيما بعد قادة المجامع .

وإن صح هذا القول مرة واحدة فى انجلترا ، فهو صحيح ألف مرة بالنسبة لنا فى مصر ، وسائر بلدان الشرق العربى ؛ ونحن ننظر إلى مجلاتنا العلمية والأدبية نظرتنا إلى « الجمعيات العلمية » التى وردت فى المقال الذى أشرنا إليه .

أنظر إلى « المجمع اللغوى » عندنا — مثلاً — وهو يضم فريقاً من القادة ، تجد أعضاءه جميعاً قد بلغوا ما بلغوه بفضل المجلات والصحف التى هيأت لهم سبيل الكتابة فى شبابهم وكهولتهم على السواء ؛ ولك أن تسأل بعد ذلك : ما مصير كتابنا الناشئين الذين يحملون بذور التفكير والكتابة ، إذا لم يجدوا أمامهم المجلات القوية التى تعينهم وتشجعهم على الكتابة والتفكير ؟ أليس واجباً محتوماً على القائمين بالأمر أن يتعهدوا هذا المصدر حتى يضمنوا لحياتنا العلمية استمراراً وازدياداً فى القوة والنماء ؟ أم تراهم يحسبون أن الزمان قد وقفت دورته ، وأن الحاضر هو الزمان كله من أزله إلى أبده ؟ .

إن الصراحة هنا واجبة لأن الأمر فى رأينا خطير غاية الخطر ؛ فإذا استثنيت المجلات التى تصدرها دور النشر الكبرى صاحبة رءوس الأموال الضخمة ، وجدت سائر مجلاتنا الأدبية المحترمة فى طريقها إلى الانهيار والزوال ، وما قيامها إلا تضحية كبرى من أصحابها ؛ أين المجلات التى شهدها شباب الجيل الماضى — والتى كانت ميدان قادة الفكر عندنا

اليوم — السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة في عنفوانها والثقافة في إبانها ، بل أين المجـــلة القوية التي لم تشهد النور إلا حقبة قصيرة ، مجلة الكاتب المصري ؟ زالت كلها أو هي كالزائلة . لأن الحكومة لا تعينها بالقدر الذي يمكنها من البقاء ، ولا يكفي من الحكومة أن تعين بشراء بضع مئين من أعدادها ، بل لابد هنا من السخاء في العطاء ، لأن المسألة متعلقة ببنائنا الفكري من أساسه .

لا ينبغي لوزارة التربية والتعليم أن تترك المجلات العلميــة لعوامل العرض والطلب في السوق ، وإلا فلن يكون هناك مجلة علمية واحدة ، لسبب بسيط ، وهو أن السوق تتطلب مادة سهلة للتسلية ؛ والمجلات التي في مقدورها اليوم أن تعيش عيش الرغد والرواج هي التي تغــذي ذلك الاتجاه في السوق ، غير آبهة بمثل أعلى لابد من فرضه على جمهور القراء ؛ فليس من الحكمة في شيء أن تتركوا أصحاب الفكر لأبنــاء الشارع يسيرونهم كيف شاءوا ، كما تتركون بائعي الصابون لعوامل العرض والطلب في سوق البيع والشراء .

جناية الأدباء

كانت أمسيات الصيف كثيراً ما تثقل على كاهلى ، فلا أدرى كيف أتخلص من ساعاتها الطويلة المديدة التى تسبق النوم ؛ لذلك كنت أطيل التردد على السينما فى دورها الصيفية المكشوفة ، حيث « أقتل » قتلا من مسائى ثلاث ساعات أو أربعا ، ألهو فيها عن نفسى بما أرى على الشاشة ؛ وكان معظم الأفلام التى عرضت فى تلك الدور المكشوفة التى قصدت إليها وقصد إليها ألوف كثيرة جداً ممن هجروا ديارهم فراراً من حرارة الصيف ، كان معظم هذه الأفلام عربى التأليف والتمثيل .

وإنى لأشهد الله أنى ما عدت من هذه الأفلام العربية ليلة ، إلا ضيق النفس بما قد رأيت ، آسفاً لهذه الهاوية التى نعيش فى ظلماتها فناً وذوقاً وتمثيلا وإخراجاً ، ثائراً على أدبائنا الذين غضوا أنظارهم عن هذه الصفحة البيضاء التى فتحت لهم صدرها رحباً ليملأوها بنتاج أقلامهم ؛ غضوا عنها أنظارهم ، فانتهبها أصحاب الأذواق الفجة السقيمة ، التى لا تميز بين طيب وخبيث ؛ أستغفر الله ، بل لعلها تميز بين الطيب والخبيث تمييزاً تستطيع به أن تمحو الطيب كله وأن تثبت الخبيث كله .

ولست أقصد بالخبيث هنا خبيث الأخلاق كما قد تراءى لكثيرين

ممن تعرضوا لنقد أفلامنا العربية ؛ لأنى رجل لا أبالى فى الإنتاج الفنى بالأخلاق طيبها وخبيثها على السواء ؛ بل لا أكاد أفهم اللغة التى يتحدث بها الذين ينقدون الفنون على أساس الأخلاق ؛ ماذا عساهم يريدون بالخير الأخلاقى أو الشر الأخلاقى ، حين يقولون فى نقدهم لإنتاج فنى إنه خير أو إنه شر؟ إن الكاتب الذى يصـــور ملاكا رحيما تصويراً بارعاً كالكاتب الذى يصور شيطانا رجيما تصويراً بارعاً ... أم تراهم يقصدون بكلامهم عن الخير والشر فى الإنتاج الفنى ، ما يبثه هذا الإنتاج فى نفوس الناس من تعاليم ؟ فالأدب الخير عندهم هو ما علم الناس أخلاقاً تواضعنا على اعتبارها رفيعة سامية ، والأدب الخبيث عندهم هو ما علم الناس أخلاقاً اتفقنا على اعتبارها خسيسة دنيئة ؟ لو كان هذا هو ما يقصدون إليه بنقدهم ، إذن فالطامة أكبر ، وفهمهم للأدب أبعد جداً من الفهم الصحيح ، لأن الأدب الذى يعلم الناس شيئاً ليس من الأدب فى كثير ، وربما كان من الأدب فى قليل ضئيل ؛ فلم يخلق الله الأديب — أو رجل الفن بصفة عامة — أديباً أو فناناً ليقف من الناس معلماً وواعظاً ؛ بل خلقه أديباً أو فناناً ليحاكى الطبيعة فى خلقها للكائنات ، فيضيف إلى خلقها خلقاً جديداً من نوع جديد . . . لكنى لا أريد استطراداً فى هذا ، فما أكتب الآن لأوضح رأياً فى طبيعة الفن ، بل أكتب فى خاطرة كانت تتردد على رأسى كلما قصدت داراً من دور السينما التى تعرض أفلاما عربية .

أعود فأقول إنى لم أرِدْ بالخبيث خبيث الأخلاق ، حين ذكرت عن أصحاب الأفلام العربية أنهم يثبتون على شاشتهم كل الخبيث ذوقاً وفناً ولا يفسحون للطيب من تلك الصفحة البيضاء مكاناً كبيراً أو صغيراً .

فالله أعلم منى بطبيعة هذا الذوق الذى يبيح لصاحبه أن يحشر فى القصة الواحدة ـ وفى كل قصة مما تعرضه الأفلام العربية ـ كل ما تحويه الأرض والسماء من الحوادث الضخمة الغليظة ، التى تكفى كل حادثة منها عشرين قصة حتى يتم تحليلها . . . فلا بد عند الكاتب الذى يكتب للسينما المصرية ، أن يكون فى القصة الواحدة يُتمٌ وتشريد وزواج وطلاق وغدر وخيانة وتهتك فى المراقص والملاهى بالنسبة للأغنياء ، وعفة وأمانة بالنسبة للفقراء ، فلا أذكر أنى رأيت فلماً واحداً يخلو من شاب غنى ذهب إلى مرقص فأحب راقصة بعد أن أراد العبث بها فردّته عن العبث الحرام ، ولما أراد الزواج منها وقف له أبوه الغنى حائلا بينه و بين من أحب ؛ ثم لابد أن تكون هذه الراقصة قد لجأت إلى رقصها عن طلاق أصاب أمها ، أو عن موت حرمها والداً ، فاضطرت إلى الكسب عن هذا الطريق . . . وأنا أعيش فى مصر كما يعيش هؤلاء الكتاب الذين يكتبون القصص للسينما المصرية ، ولا أعلم أين أجد ما يجدونه بهذه الكثرة من أمثال هذه الحوادث ؟ فكم رأوا من الشبان الأثرياء الذين تزوجوا من راقصات الملاهى رغم ذويهم ؟ وكيف تقصوا أنباء هؤلاء الراقصات فعلموا أنهن جميعاً

لاجئات من جوع وتشريد ؟ وأن واحدة منهن لم تلجأ إلى الرقص عن هواية وفن ؟ لـكن على رسلك ! فإلى من توجه هذه الأسئلة ؟ أتوجهها إلى أصحاب القصص السينمائية العربية ، زعماً منك بأنهم أدباء يعلمون ماذا يصنعون ،وهم أنفسهم لايدعون لأنفسهم هذا الذى تلصقه بهم رغم أنوفهم.

هل يعلم أصحاب هذه القصص التى تعرض على شاشة السينما ، أنهم يصورون بقصصهم أغلظ الأذواق الهمجية ، إذ يقصرون تصويرهم على الحوادث الصارخة التى تتلاحق تباعاً كأنها سيل من القنابل المتفجرة ؟ فصاحب الذوق الهمجى البدائى وحده هو الذى يميل إلى هذا الصراخ كله كى يصحو من نعاسه ؛ وهو وحده الذى لايطمئن فى ألوانه المختارة إلى الهادىء الخافت ، ولا يطمئن فى حديثه إلى الصوت الخفيض ، ولا تكفيه فى حياته اللمسات الخفيفة ؛ أما من أصاب شيئا من تحضر وتهذيب ، فتراه هادىء الطبع لايرتاح إلى زعيق فى الصوت أو ضجيج فى الحركة أوصراخ فى اللون ؛ وحسبه إشارة هامسة إذا أردت له يقظة والتفاتاً ولا أحسبنا من همجية الذوق بهذه الدرجة كلها التى فرضها أصحاب الأفلام العربية .

إنه لا عجب أن نرى الأفلام العربية كلها صورة تكاد تكون واحدة لاجديد فيها ، صورة واحدة تتكرر ، بحيث تستطيع أن تعلم فى يقين أوشبهه أى الحوادث أنت راء على الشاشة قبل أن تعرض القصة ؛ لأن كل واحدة من هذه القصص تحيط بحوادث الدهر كلها ، لا تدع منها شيئاً إلى قصة أخرى . . وهل رأيت فلماً واحداً قد قصر نفسه على فـكرة واحدة يعرضها

بظلالها وأضوائها ، كهذا الذى نشاهده فى الأفلام الأوروبية والأمريكية الجيدة؟

لكن فيم هذا اللوم كله والنقد كله ؟ إنما ينصرف اللوم إلى أدبائنا الذين جنوا على أدبهم وعلى الناس جناية كبرى ، إذ تركوا ميدان الشاشة السينمائية لسواهم من غير ذوى الفهم الأدبى والذوق الفنى ؛ ولعلهم تركوا شاشة السينما لغيرهم ، لأنهم نفضوا أيديهم من القصة والمسرحية جملة واحدة — إذا استثنينا حالات قليلة تعدّ على أصابع اليد الواحدة — إن كبار أدبائنا يكتبون ويكتبون ، ولست أدرى والله فيم يكتبون ، إذا كنت تلتمسهم فى ميدان القصة والمسرحية فلا تكاد تعثر لأحد منهم على أثر ؛ كأنما هم لا يعلمون — مع أنهم خير من يعلمون — بأن العالم كله لا يكاد يعرف من الأديب الكبير إلا كاتباً للقصة أو منشئاً للمسرحية .

أدباؤنا الكبار فى شغل عن القصة والمسرحية بما يكتبونه للصحف اليومية والأسبوعية من مقالات يذكرون فيها نتفا ومجالات عن السياسة والاجتماع ؛ وإذا قلنا إنهم فى شغل عن القصة والمسرحية فقد أوشكنا أن نقول إنهم فى شغل عن الأدب .

كيف يجوز لأدبائنا الذين هم فى الطليعة ، أن يزعموا لنا أو لأنفسهم أنهم يصورون آمالنا ومخاوفنا إن كانوا لا يخلقون لنا بأيديهم أشخاصا تتجسد فى سلوكهم هذه الآمال والمخاوف ؟ هل يجوز لأديب واحد من هؤلاء الكبار أن يدّعى بأنه قد صوّر الرجل من الطبقة الوسطى الفقيرة بمثل ما صوره ممثل لم يكن ينتمى إلى طائفة الأدباء — وأعنى به المرحوم

نجيب الريحانى ؟ هل يجرؤ أديب واحد من أئمة أدبائنا أن يدّعى ،أنه قد صوّر الفساد الذى كان والذى نرجو ألا يكون ، فى شخص أو أشخاص أحْسنَ خلقهم وتصويرهم ؟ .

أليست فضيحة ثقافية كبرى أن تسألنى : ما أبرز السمات التى تميز الأدب الإنجليزى اليوم ، فأجيب ، وأن تسألنى السؤال نفسه عن الأدب المصرى فلا أستطيع الجواب ؟ . . . إنها فضيحة ثقافية لا لأنى أعجز عن تحليل أدبنا المصرى المعاصر فأعجز عن إخراج سماته وخصائصه ، بل لأنى أبحث — حين أبحث — عن الأدب الممثل لنا اليوم فى قصة أو مسرحية فلا أكاد أجد من ذلك شيئا ؛ إنك إذا أردت تحليل الأدب الإنجليزى أو الفرنسى — مثلا — لتستخرج خصائصه المميزة ، فلا تستعرض الصحف اليومية هناك التماسا لما تريد ، بل تستعرض كتبا وقصصا ومسرحيات ؛ فما الذى أستعرضه هنا من كتب وقصص ومسرحيات لأخلص إلى الاتجاه العام الذى يشترك فيه كبار الأدباء عندنا ؟ .

إن أئمة الأدب فى شغل عن الأدب بما لست أدرى ماذا ؛ وهيأت لهم شاشة السينما مجالا فسيحا ، إذا أرادوا حقا أن يتعقبوا حياتنا بالتصوير ، وأن يعرضوا على الناس قطعاً حية من نفوسهم وما يختلج فيها من خواطر ومشاعر ؛ لكنهم أجمعوا فيما بينهم — أو كادوا يجمعون — على أن يتركوا هذا المجال الأدبى لغير الأدباء ، فجنوا على أنفسهم وعلى الأدب وعلى الناس جناية لا يمحوها عنهم إلا غفران من الله ورحمة .

المحتويات

	الصفحة
عند سفح الجبل	٥
نفس عارية	١٤
الكوميديا الأرضية	٢٢
خيوط العنكبوت	٢٩
الكراهية الصامتة	٣٨
عروس المولد	٤٧
إلى سادتي الحكام	٥٦
أبناء الظلام	٦٤
عالم قلق	٧٢
نفوس فقيرة	٧٩
مصباح علاء الدين	٨٧
مقومات الحياة	٩٣
عزمات الإرادة	١٠١
هاروت وماروت	١٠٩
رهان	١١٦
نظرة الطائر	١٢٤
تمثال فيدياس	١٣١

الصفحة

الأفراد ! الأفراد !	١٣٧
آباء وأبناء	١٤٩
سيئات الموتى	١٥٨
ندوة الخميس	١٦٨
ابتسامة الساخر	١٧٨
أنتيجونا	١٨٧
نشر القديم	١٩٦
سلّم القيم	٢٠٦
نموذج المتمدن	٢١٥
الحس المشترك	٢٢٦
الفكرة الواضحة	٢٣٤
جناية الألفاظ	٢٤٣
مهمة الكاتب	٢٥٤
إعانة المجلات العلمية	٢٦٤
جناية الأدباء	٢٧١

مطابع الشروق
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٠١٠ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN